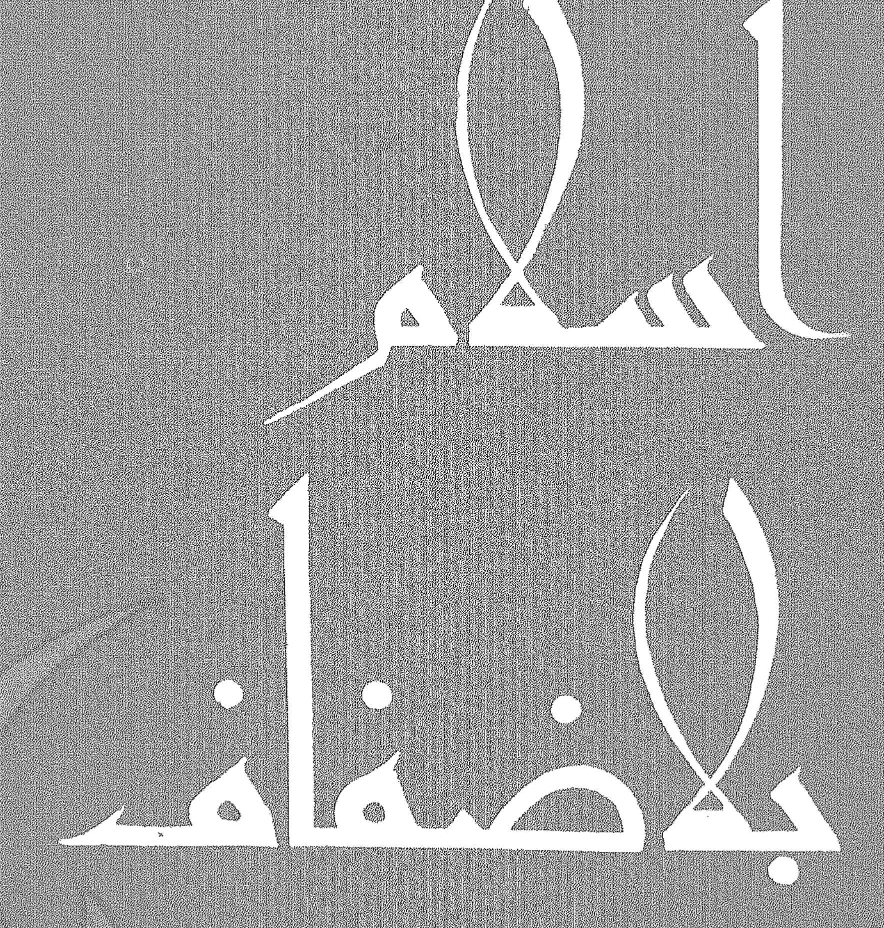




د. يوسف إدريس



اسلام بلا ضفاف

الاخراج الفنى : محمد قطب

د. يوسف إدريس

إسلام بلا ضفاف



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٩



كلمة لابد منها

لا بد منها لأنى أخشى أن يتصور من يقتنى هذا الكتاب ــ دون اطلاع على محتوياته ــ أن يعتقد اننى أتخذ العقيدة الاسلامية السمحاء ، موضوعا كاملا متكاملا للكتاب كله •

ولكن الأمر ليس كذلك ، فحقيقة هناك مواد كثيرة من أبواب هذا الكتاب تتحدث عن الاسلام ، وأكتب من خلالها وجهة نظرى فى كثير من الأوضاع الاسلامية التى فرضت نفسها على القراء والكتاب جميعا ، ولكنها ، مجرد وجهة نظر كاتب فى موضوع الساعة : الاسلام وتطبيق الشريعة والجماعات المتعصبة والعالميين والعلميين ، وكل تلك القضايا التى أصبحت الشغل الشاغل لأى متعامل مع القلم اذا كان كاتبا ، ومع الورق اذا كان قارئا • عشمى اذن ألا يخيب أمل القارىء الذى يقترف الكتاب وكأنه ــ معاذ الله ــ مرجعا اسلاميا • فأنا أعرف قدرى وأعرف دينى وأعرف أنى حين أتعرض لاسلامنا الحنيف انما أتعرض له ككاتب يعمل بقضايا الانسان المصرى والعربى والمسلم بشكل عام القضايا الحياتية والسياسية والاجتماعية والثقافية

والفكرية • ومن هنا ، ولهذا السبب جاءت محتويات الكتاب الأخرى •

★★★

ولكنى لا أبادر بنشر هذه المجموعة المتجانسة من المقالات لهذا السبب وحده • ففى العام الماضى صدر لى كتاب ، اعتبره القراء والنقاد كتابا هاما ، اسمه : «فقر الفكر وفكر الفقر» • وكان من الطبيعى لكتاب يتعرض لفقرنا الفكرى والثقافى أن يتحدث أيضا عن فقرنا فى مجال أهم عمل فكرى يقوم به الانسان • عقيدته وعلاقته بخالقه •

وفى هذا الاتجاه استعرضت ، مناقشا ، آراء كثيرة يدعو لها عالمنا الاسلامى الكبير وداعيتنا فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، استعرضتها لأناقشها وأحدد موقفى من محتواها العلمى والفكرى •

ولكن ، لأن هناك دائما من يهوون الصيد ، حتى فى الماء الرايق ، أو بالأصح يهوون تعكير أى ماء رائق ، فقد فوجئت بابن صديق كاتب هو الاستاذ محمد عبد القدوس وبصديق عزيز زميل حياتى الأستاذ ابراهيم راشد يشنان على هجوما رهيبا بزعم انى (شتمت) فضيلة الشيخ وتجرأت عليه • وطبعا كتبت على الفور فى بابى فى الأهرام أوضح الخطأ المطبعى الذى نزل الى الطبع ولم يرفع من الملزمة ، الخطأ فى كلمة واحدة فى كتاب فيه أكثر من مائتى صفحة ، ولكن ، لأن الطوبة جاءت فى المعطوبة ، كما يقولون فمن سوء حظى وقع الخطأ فى معرض كلمة شائقة عن فضيلة الشيخ ، خطأ مطبعى محض لو كنت قد راجعت التصحيح أو راجعه الناشر أو المصحح مراجعة دقيقة ما حدث هذا أبدا •

فأنا لست مجنونا حتي ـ بدون مناسبة هكذا ، أتعرض لشخصية تحتل مقاما رفيعا ساميا فى عقول وقلوب ملايين جماهيرنا الاسلامية العريضة ، أتعرض لتلك الشخصية وأقول انه « راسبوتين » الاسلام • كان مفروضا أن ترفع كلمة راسبوتين لان الوصف فى الأصل هو أن عددا من أعداء الشيخ الشعراوى ومن أعداء الاسلام يصفونه بأنه راسبوتين الاسلام • الخطأ المطبعى لم يذكر كلمة أعداء الشيخ الشعراوى أو أعداء الاسلام فجاء الكلام وكأنه على لسانى •

وأنا فى حياتى لم أتراجع عن كلمة قلتها أو كتبتها ، ولو كنت قد قلت أنا شيئا كهذا لما بادرت لتصحيحه ووضع الأمور فى نصابها ليس خوفا فأنا والحمد لله لا أخاف الا من خالقي ومنشئى ولكن ، ليس خوفا وانما اثباتا لحقيقة ما حدث فقط لاثبات الحقيقة واصلاح الخطأ الذى حدث ، أما بقية مناقشاتي واعتراضاتي على بعض ما يقوله فضيلة الشيخ فهو موجود فى الكتاب وأنا أتمسك بكل حرف فيه •

★★★

الجانب المضحك في المأساة أننى ومنذ أن جرى هذا الصيد السخيف فى الماء الرائق وأنا لا عمل لى الا اجابتي وشرحي لما حدث ، وكأن الناس لا يقرأون ، وبعضهم فعلا لا يقرأ ، وانما (سمع) انى تجرأت على فضيلة الشيخ وسببته • حتى وأنا أؤدى العمرة وأطوف الطوفات السبع بالكعبة الشريفة كان بعض المعتمرين يقطعون طوافهم وشعائر عمرتهم ، ويقطعون أيضا طوافي وشعائر عمرتي ويسألنى السائل منهم : هل صحيح •• شتمت الشيخ الشعراوى ؟

وكدت أجن •

فنحن فى بيت الله ، نطوف حول الكعبة فى لحظات من أقدس الأوقات فى حياة المسلم ، فى أقدس بقعة تتجه اليهـا الافئدة والقلوب ، وتنسى ، وهى تطوف كل ما عداها من أمور حياتها ودنياها مهما بلغت قسوتها • ومع هذا يجيئنى السؤال أيضا فى تلك اللحظة المقدسة ، وفى ذلك المكان الذى يبكى الانسان من فرط سعادته بالوجود فيه •

وقـد تحملت قطع طـواف العمرة مرة ومرتين وعشر ، وبطول بـال مضيت أجـاوب . الى أن بلـغ بى الملـل ، وقلت للسائل الأخير : يا أخى أتضع فضيلة الشيخ فى مكانة أعلى من شعائر الاسلام • فنحن فى بيت الكعبة وفى حضرة رب الكعبة ، والشيخ الشعراوى مخلوق مثلى ومثلك تماما • وسواء ذممته أو رفعته الى أعلى عليين فأنتم أنصاره تكادون تجعلون منه وثنا من الأوثان وليس كائنا بشريا من الله عليه بالايمان والفصاحة والتقوى •

★★★

من أجل هذا ، من أجل ألا نعـود بعد أربعة عشر قرنا من ظهور الاسلام وتحطيم أوثان الكفرة ، توكلت على الله ، وأصدرت ذلك الكتاب حتى لا نعود مرة أخرى الى عبادة أوثان أخرى ، أوثان بشر ، مهما بلغت درجات علمهم وتقواهم فهم كانوا وسيظلون بشرا غير معصومين ، نستطيع ان كانوا على خطأ أو ظننا هذا أن ننقدهم ، فكل الناس قابلة للنقد ، كل المخلوقات بما فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وما محمد الا بشر يوحى اليه ، انما الهكم اله واحد •

أما ما صنعتموه بفضيلة الشيخ شعراوى ورفعه من مرتبة البشر الى مراتب القديسين فهو عمل ليس من الاســلام فى

شيء ، فالاسلام ليس فيه قديسون وليس فيه طبقات للناس عند الله سبحانه الا بمقدار ما فى قلوبهم من تقوى ، والتقوى ودرجتها وبالتالى قدر الانسان ، شيء علمه عند ربى وعند ربى فقط .

★★★

أحببت أن أجمع آرائى هنا ، وآراء غيرى ، ليتضح لنا كم ضيقنا ، بفقرنا الفكرى اسلاما عظيما بلا ضفاف ، يضم ، أو لا بد أن يضم البشرية جمعاء ، بل والجنس البشرى كله .

وليبارك المولى خطواتنا ويعاملنا جل شأنه بنوايانا انه سميع مجيب .

يوسف ادريس

عمرة كاتب

بدأت الكتابة كمتفرغ منذ خمسة وثلاثين عاما ، وقبلها كنت ضالعا فى الحركة الوطنية الطلابية والعمالية ، ومنذ (العلقة) التى نالتنا على يد فيتز باتريك باشا حكمدار بوليس القاهرة فى كوبرى عباس وجنود بلوكات النظام وثمة علاقة عضوية شخصية قد ربطتنى بالحركة الوطنية المصرية برباط لم تنفصم عراه وأعتقد أنها أبدا لن تنفصم . ما حدث لمصر طوال هذه المدة عانيت منه على المستوى الشخصى من اعتقال الى فصل الى مرض الى اهانات ، ولا أزال أعانى . والانسان منا ليس مصنوعا من حجر ولا من صلب ، انه دم ولحم وعظام فاعصاب ... ومنذ ذلك اليوم البعيد فى أوائل الخمسينيات ولم تمر على ، وربما على المصريين جميعا الا أيام قليلة جدا من الفرحة الشخصية والجماعية ، مثل يوم ألغى النحاس باشا معاهدة ٣٦ ، ويوم أمم عبد الناصر القناة ويوم قرر فى خطبته المشهورة بالأزهر عقب العدوان الثلاثى أن نقاتل ونقاتل ونقاتل ، يوم طرد الملك ، يوم قرار العبور وبطولة الجيش المصرى فى حرب ٧٣ ، ولا أريد أن أذكر الأسباب التى لا تخفى على القارىء ، وبعض أيام أخرى فى عهد

الرئيس مبارك ، وفى المقابل كانت حياتنا طوال تلك الأعوام التى قاربت على الأربعين سلسلة متصلة الحلقات من المشاكل والهموم • وعجيب أمر هذا الشعب الذى لست سوى فرد منه كيف تحملنا كل هذا ، كيف لم ننكسر ، كيف لم نركع ، كيف لم نسلم بالأوضاع ونحيا كيفما اتفق ، افتح قلب أى مصرى تجد أن قلقه على بلاده ومصيرها يكاد يوازى قلقه على مصالحه الشخصية وعند بعض الناس يفوق قلقه على مصالحه الشخصية •

ومنذ النصف الثانى من السبعينيات والهم يتثاقل حتى يبلغ الحلقوم • ومع هذا فنحن أحياء مازلنا نتحمل ونصبر ، وحتى نأمل ونحلم وتلك هى معجزة الشعب المصرى تلك التى أبقته حيا طوال أكثر من ألفى عام من حكم المستبدين والغزاة والمجانين •

كانت هذه الأفكار تدور فى رأسى وأنا أرتدى ملابس الاحرام فى طريقى للصلاة فى الحرم وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما فأرضاهما • وقفت أمام مقام الرسول الكريم وجموع المسلمين تتدافع لتلقى على بابه وعلى مقامه نظرة شوق طال ، وشفاعة مكتومة فى النفس كل منهم يبوح له صلى الله عليه وسلم بمكنون قلبه وبدعاء له ولوالديه ولاولاده وعائلته • ومثلما كانوا يدعون دعوت ، ولم يكن الدعاء سهلا • فقد كان على أن أفرغ نفسى تماما من كل اهتماماتها الشخصية والدنيوية كان على أن أطهر قلبى وأفسح صدرى وأمسح كل ما يزدحم فى رأسى من قلق ، ولم يكن الأمر سهلا ، فما كان يشغلنى عمره أحقاب وأحقاب ، طبقات فوق طبقات من هموم عامة وخاصة ، من خوف غريب من المستقبل ، من تشاؤم

يكاد يطبق على بصيرتي وبصرى • كان على أن أتطهر وتعود نفسى بريئة كنفوس الأطفال الرضع ، جديدة وكأن لم يمسها سوء ولا فعلت سوءا •

وأنا مستغرق في دعائي لنفسي ولأسرتي وحتى لأصدقائي، هبط على خاطر كأنما هو منزل من أعلى عليين • وماذا يا يوسف لو استجاب الله لدعائك وحفظ عليك صحتك وعلى أسرتك سعادتها وعلى أصدقائك حياتهم • أهذا هو منتهى الوصول • ما فائدة أن تحل البركة والخير على تلك المجموعة الصغيرة من الناس ، في مجتمع يعاني وبين مصريين يتحملون ما لا طاقة لهم به •

ودنوت الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورأيته في ضوء آخر تماما • هذا انسان من بنى البشر اصطفاه الله جل جلاله ليكون رسولا ومبشرا بالاسلام العظيم • فماذا فعل ؟ لم يكتف بتبليغ الرسالة الى أولى القربى منه أو الى قريش وانما جعل همه كله سعادة البشر في الجزيرة وفي الدنيا كلها • وآمن بهذا ايمانا جعله يتحمل الأذى ويتحمل النفى والهجرة ويحارب ويقاتل المشركين الضالين • رجل واحد بمفرده وبقوة من عند الله ، ولكن بايمان يجل عن الوصف استطاع أن يغير أناسا يعيشون في عصر الوثنية والبداوة والجاهلية الأولى ، يعبدون أصناما من الحجر الى قوم صنعوا أمة من أعظم الأمم ، ان لم تكن أعظم أمم الأرض ، قوم استطاعوا أن يهزموا أكبر امبراطوريتين في عصرهما يقابلان القوتين العظميين في عالم اليوم ، يحطمون ديوان كسرى ، ويقوضون عرش امبراطور الرومان ، وينشرون مبادىء الاسلام السمحة من بواتييه في فرنسا الى الصين في أقصى الشرق •

وأنا أطوف بالكعبة وأرى الناس سودا وبيضا ، صينيين وأوروبيين مشارقة ومغاربة ، من نيجيريا الى أندونيسيا ، نلتف جميعا حول الكعبة ونصلي المغرب ، يا له من مشهد غريب فريد في بابه يشرح القلب ، آلاف مؤلفة من الناس يحمدون الله ويركعون ويسجدون ويسبحون ويستغفرون ، كان منظرهم يخلع القلب فرحا ، ويجعلك تنتقل من انتماءاتك المحدودة في عائلتك أو في بلدك الى انتماء أشمل وأكبر الانتماء الأكبر ، الى المحيط الاسلامي ، الواسع،وتحس بآلامك ومخاوفك ، تذوب تماما في هذا المحيط ، وتبدأ نفسك كالماء المعكر بالطين حين يروق فيروق حتى يصبح أصفى من الماء المقطر ، من نقاء وحلاوة ماء زمزم .

صليت ركعتين في الروضة الشريفة ، وارتكنت الى عامود من أعمدة الحرم النبوي الشريف ، أرقب الايمان مجسدا على الوجوه يالحلاوة الايمان حين يكسب الوجه البشرى جمالا نابعا من القلب ، وموجها الى المولى سبحانه .

وجاءتني مصر وأنا مرتكن أمارس متعة الابتهال بلا صوت ، والتأمل بلا انقطاع ، جاءتني مصر بشعبها ومشاكلها، بحاضرها ومستقبلها، ورحت أدعو للشعب المصرى، بني وطني ، أن يزيد الله نعمه ، انه القادر القوى المعين ، ما فائدة ان أكون قد دعوت لعائلتي ولنفسي أن يخلصنا من أزماتنا وقلقنا ونحن نحيا مع شعب واقع في الازمات والقلق . ما فائدة أن تكون سعيدا صحيحا في مجتمع يعاني .

ما فائدة أن يرزقك الله بالملايين في شعب يعيش على حافة الفاقة ، ان المسلم الحقيقي لا يسعد الا في مجتمع مكتمل السعادة ترفرف فيه السكينة على الجميع .

وظللت أدعو وأدعو حتى وجدتنى أبكى ، بكاء لم يحدث لى من قبل ، فهو ليس بكاء حزن ، وليس بكاء اشفاق على النفس والشعب ، وليس بكاء مذلة واحساس بالضيم ، ولكنه بكاء المحب لحبيب البكاء الواصل بين الله سبحانه والانسان ، البكاء المستلهم من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بكاء المتامل فى الآيات البينات التى أوحى له بها وغمرت الدنيا من أقصاها لأقصاها ٠

يارب لا تمنحنى الصحة وشعبى مريض

ولا تمنحنى الرزق الوافر وشعبى يشكو الفاقة

ولا تمنحنى سلامة النفس وشعبى يطحنه القلق ٠

وأنزل اللهم السكينة على قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ٠ يا لها من آية كريمة معجزة المعنى ظللت دون أن أعى أرددها وكانما بقدرة قادر وباملاء قادر « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » أنزل اللهم السكينة على قلوبنا ، وآلهمنا الصواب ، وأخرجنا بفضل قدرتك ورحمتك من مآزقنا وهيىء لنا من أمرنا رشدا ٠ انك انت السميع المجيب الوهاب ٠



العلم الاسلامى ٠٠ والعلم الغربى

فى العلم الاسلامى ظهر العباقرة الموسوعيون
بينما فى الغرب لم يظهر عباقرة شموليون

التصور الغربى للعلوم والتكنولوجيا تصور قاصر ما فى ذلك شك ، ذلك انه يرتكز على التسليم بانه يجب قياس العلوم والتكنولوجيا بمقياس واحد فقط هو قدرتها على احكام أقصى قدر من السيطرة على الطبيعة وعلى البشر ٠

وهذا التعريف الكمى الصرف يعود الى الايمـــان بأن الهدف الاسمى « للتقدم » و « النمو » هو ارادة القوة تلك حتى لو أدت تلك الارادة الى تدمير الطبيعة والبشر ٠

ولا يكتفى الغرب بهذا ، بل انه ينصب من نفسه قاضيا على جميع الحضـارات الأخـرى معتبرا أن طريقــة تطوره وما وصل اليه وما يريد الوصول اليه هو النموذج المثالى لما يجب أن يكون عليه هدف أى مجتمع آخر ٠ وهكذا يقرر أن شعبا ما ، أو حضارة ما أو علما ما « بدائيا » و « متخلفا » بالقياس الى النقطة التى يوضع فيها هذا المجتمع على المسار الذى سار فيه المجتمع الأوروبى ٠ والفكرة تبدو شاذة حقـا وشديدة التعصب خاصة اذا سأل هؤلاء الساعون الى السيطرة وارادة القوة ، أنفسهم هذا السؤال : ألم تتحـول أوروبـا وبالتالى الغرب منذ عصر النهضة (أى منذ نشأة الرأسماليـة

الغربية وبالتالى الاستعمار المتزامن معها الى تبرير للرأسمالية والاستعمار جاعلة الهدف الوحيد للعلوم والتكنولوجيا هو أن « تجعلنا سادة الطبيعة ومالكيها ، كما كتب (ديكارت) فى كتابه « بحث فى الطريقة » ٠

وأبدا ليس لتأمين تفتح وازدهار الانسان ، كل الانسان ، وكل انسان ٠

هكذا يبدأ جارودى مدخله الى دراســـة الثورة العلميــة والتكنولوجية التى قامت بها الحضارة الاسلامية مســـاهمة عظمى منها فى رفع شأن البشرية ٠

وفى هذا الصدد يقول ، وهو يعنى الحضارة الشاملة ، حضارة الاسلام : تفتح كل انسان وأعنى بذلك الانسان بكل أبعاده ، بما فى ذلك علاقاتنا الجمالية بالطبيعة كمشاركة منا فى « حياتها » أى حياة (الطبيعة) وليس اعتبارها مجــرد مستودع للمواد الأولية وكانها مستودع نفايات ٠

ان تفتح كل انسان هو الشىء الذى ينقص فلسفة النمو الغربية وديانة التقدم التى يعتنقها الغرب ٠ فهذا النمو نفسه هو السبب فى تفاقم الفوارق بين الطبقات فى بلدان «النمو»، وهذا « النمو » الغربى نفسه لا يمكن أن يتحــقق الا بنهب موارد العالم « المتخلف » عن النمو المادية والبشرية ٠ هــذا فوق انه ــ فى الحقيقة ــ لا توجد بلدان « متقدمة » متطورة، وبلدان « نامية » متخلفة ، بل توجد بلدان « مسيطرة» وبلدان « مسيطر عليها » بلدان مريضة من فرط النمو ، من التخمة ، والآخرون مخدعون بسراب هذا النمو الانتحارى نفسه الذى تديره « نخبة » منهم تكونت ثقافيا فى الغرب وتم التوصل الى اقناعها بان مستقبلها هو فى السير على منوال البلــدان المتقدمة « المريضة » وفى تقليدها ٠

لقد احتاج تيمور لنك أياما وأياما لذبح ٧٠٠٠٠ شخص من البشر عند استيلائه على أصفهان حتى يستطيع أن يكدس جماجمهم على هيئة هرم كبير . أما في هيروشيما فقد حصل الغرب على نفس النتيجة خلال ثوان . انه لتقدم علمي وتكنولوجي لا ريب فيه ولا مراء . وقد وصل هذا التقدم الى انه توجد في حوزة هذا الغرب «بشقيه الرأسمالي والاشتراكي» ما يعادل مليون قنبلة مثل قنبلة هيروشيما ، وهو ما يساوي خمسة أطنان من المتفجرات المألوفة مثل ت.ن.ت ، لكل رأس من سكان المعمورة .

ان الثورة الخضراء وبذورها العجيبة زادت محاصيل الارز زيادة هائلة في جنوب شرق آسيا ، في مدة خمس سنوات . في حين ان التكنولوجيا الأوروبية المستخدمة في الزراعات العميقة المفروضة على بعض بلدان العالم الثالث ، طمرت القشرة الرقيقة من التربة العضوية ليقوم الغرب ببيع الاسمدة الكيماوية الفتاكة بما تولده من طاقة بحيث لم يعد هذا الجزء اللابترولي يستطيع شراء تلك الاسمدة .

ان العلم يكون سفها وظلما اذا لم يكن له هدف آخر الا العلم نفسه ، العلم للعلم، فهذا التضخم في المعرفة المنفصلة عن الحياة يصاحبه الضمور في جميع أبعاد الانسان الأخرى : الحب والابداع ، والتأمل في غيابات الحياة والطموح الى التوازن والانسجام في علاقتنا مع الطبيعة وعلاقاتنا الانسانية ببعضنا البعض .

ان مبدأ التوحيد قد سد الفاصل بين العلم والايمان ، فما دام كل شيء في الطبيعة هو « امارة » على حضور الله ، تصبح معرفة الطبيعة ، كالعمل لونا من ألوان الصلاة ، وطريقة للاقتراب من الله .

وفى الحديث النبوى الشريف :

« من سلك طريقا يلتمس به علما سهل الله به طريقه الى الجنة ٠٠ » ٠ و « يوزن مداد العلماء بدم الشهداء يوم القيامة ٠٠٠ » ٠

لقد جمع الاسلام ، وترجم الى اللغة العربية ، كل ما ازدهر قبله من علوم وثقافات من حضارة بين النهرين الى مصر وبيزنطة ، كل ما تخلف من اليونان والرومان ، كل ما كان قبله من طب وعلوم وتقنيات ، وانه لأمر ذو مغزى عظيم الا يطالب الخليفة هارون الرشيد (٨٧٦ ـ ٩٠٩) عندما استولى على انقرة ، أو الخليفة المأمون من بعده عندما انتصر على الامبراطور البيزنطى ميشيل الثالث الا بتسليم مخطوطات قديمة تعويضا عن أضرار الحرب ٠

ولقد حدثت حركة ترجمة عظمى منذ القرن الثامن الميلادى ٠ فقد اجتذب هارون الرشيد الى بلاطه فطاحل الباحثين واللغويين من كل أصل ، وأشهر من رأس هذا العمل كان حنين من قبيلة العباديين العربية التى استقرت منذ زمن بعيد فى الحيرة ولم يكن حنين الذى اعتنق المسيحية مع ذلك (وهذا شاهد آخر على مدى غنى وثراء الحضارة الاسلامية ، اذ كان فى ظلها يستطيع أهل كل كتاب بل حتى البوذيين ان يتعايشوا مع المسلمين وأن يتساووا معهم فى الحقوق والواجبات) ولقد قام حنين بترجمة مؤلفات أبو قراط فى الطب وجالينوس وديكوسكيوريدس وكذلك مؤلفات الرياضيين والفلكيين وعلماء الطبيعة وبأمر من المأمون قام الغزارى بترجمة واقتباس بحث الـ « سيد هانتا » فى علم الفلك الهندى للعالم براهما فوستا ٠ واذ تعلم العرب من الصينيين فن صناعة الورق (وكان انشاء أول مصنع له فى بغداد عام

٨٠٠ م) الذى لم يعرفه الغرب عن طريقهم الا بعد أربعة قرون • كما أن المكتبات قد تكاثرت فى أرجاء العالم العربى، وفى عام ٨١٥ أنشأ الخليفة المأمون فى بغداد (بيت الحكمة) احتوت على مليون مؤلف • وفى القرن العاشر كانت مدينة صغيرة كالنجف فى العراق ، تملك ٤٠٠٠٠ مجلد وفى الطرف الآخر من الدنيا ، فى أسبانيا المسلمة كان الخليفة فى قرطبة يستطيع التباهى فى القرن العاشر بمكتبة تضم ٤٠٠٠٠٠ كتاب ، في حين أن ملك فرنسا شارل الحكيم (أى شارل العالم) بعد أربعة قرون من هذا التاريخ كان بالكاد يستطيع أن يجمع ٩٠٠ كتاب ، ولكن ليس هناك من يستطيع ان ينافس خليفة قاهرة العزيز الذى كانت مكتبته تحتوى على ١٦٠٠٠٠٠ مجلد منها ٦٠٠٠ فى الرياضيات و ١٨٠٠٠ فى الفلسفة ، هذا الشغف بالكتب وهذا السعى الجاد لتمثل كل الثقافات السابقة لم ينطو على أية انتقائية أو اصطفاء ، وانما أخذه المسلمون واخصبوه برؤيتهم ثم قدموا هذا جميعا كنزا خالصا للثقافة البشرية •

ان سبب الركود العلمى الرئيسى فى أوروبا المسيحية ، كان الارتياب فى الطبيعة الذى لا يمكن الا أن يبعد الانسان عن الله • وتلك الثنائية بين الطبيعة وبين الله والايمان هى التى أفسدت الرؤية المسيحية •

وعلى هذا قام كثير من البطاركة بحرق المكتبات باعتبار انها تساعد على « الوثنية والهرطقة » •

وعكس هذا تماما ما يعبر عنه النظام التربوى الخاص بالاسلام الذى يشكل تعليم القرآن فى الجامع نقطة الانطلاق فيه ، اذ تندمج الحكمة والعلوم بالعقيدة فى وحدة عضوية ، اذ أن هدفها جميعا هو عالم من « نور الله » تتجلى فيه آياته ،

اذ الكون هو أيقونة يتجلى من خلالها الواحد الأحد خلال الكثرة العددية التى تشمل آلاف الرموز ٠

★★★

وهكذا جاءت صفات الكتاب والعلماء المسلمين ، فمن جهة ليس ثمة انفصال بين علوم الدين وعلوم الطبيعة والمرئيات وبين الفنون والآداب من جهة أخرى ٠ وأيضا ليست هناك حواجز عازلة بين مختلف العلوم من الرياضيات الى الجغرافيا ٠ وهذا ما يفسر ظهور عدد كبير من العباقرة المسلمين الموسوعيين ٠

فبينما فى الغرب لا يوجد عباقرة شموليون اللهم الا ميوناردو دافنشي فى حين انهم فى الاسلام جحافل ، من الكندى الى الرازى ومن البيرونى الى ابن سينا وعشرات غيرهم من المبدعين فى الطب والجغرافيا والتاريخ وأحيانا فى الشعر كعالم الرياضيات عمر بن الخيام أو الفيلسوف ابن عربى أو فى الموسيقى كالرازى ٠

وهذه الرؤية التوحيدية تفسر كذلك الأهمية التى تختص بها الحضارة الاسلامية فى تصنيف العلوم : فبتوضيح وحدة الواقع ومعرفة الانسان بها وتناسقها من التأمل في وحدة العالم الى التأمل فى الوحدانية الالهية التى تجد صورتها فى وحدة الطبيعة ٠

ان الرياضيات مثلا فى المنظور الاسلامى هى عبور من « المحسوس » المدرك الى المعقول ، من عالم الصيرورة الى عالم الأبدية ، وهى فى العلوم كما فى الفنون طريق للتوحيد ٠ فما نسميه نحن (هكذا يقول جارودى عن الأوروبيين)

الغربيين بـ « الأرقام العربية » ويسميه العرب اعترافا بدينهم بالـ « أرقام الهندية » ادخلت الى أوروبا عن طريق الخوارزمى، وقد كان الكتاب الهندى سيدنانتا الذى جيء بـه الى بلاط المأمون يتضمن نظام العد العشرى الذى يعبر عنه بتسعة رموز ، وبزيادة صفر ، ويستطيع ان يحيط بأى عدد ممكن تخيله ، فقلب الرياضيات رأسا على عقب ، وحمل هذا النمط الجديد من الحساب اسم الرجل الذى منهجه ، وكان هذا الاسم هو : « اللوفاريتم » أى الخوازرمن • وبعد قرنين قلب هذا النظام عن طريق ادخاله الى أوروبا بواسطة الراهب جيربرت نظام الرياضيات فى الغرب •

وبما أن الرمز واحد (١) هو الدلالة الأكثر مباشرة للمبدأ الالهى فان سلسلة الاعداد ومركباتها هى السلم الذى يرتقى به الانسان من المتعدد الى الواحد • واذا نحن تذكرنا ان الرقم ٤٤٤٤ كان يكتب بالأرقام الرومانية هكذا بحيث يصبح من العسير جدا اجراء أية عملية حسابية ، لتخيلنا الدور الهائل لهذا العدد المتتابع ، ودور (السفر) فى تطوير العلوم والتقنيات كما فى الصناعة والتجارة والمحاسبة •

كان الخوارزمى رائد علم الجبر (وكلمة الجبر نفسها هى عنوان كتابه الأشهر) وفى القرن التاسع الميلادى (وحوالى الثالث الهجرى) استعمل ثابت بن قرة لأول مرة حساب التكامل وربط الهندسة بالجبر • فى حين أكب علماء آخرون (مثل الطوسى والبيرونى) على البحث فى (الجيوب) (جا) وابتكروا القاطع قبل كوبرنيكوس بعدة قرون •

وفى الفلك أكمل علماء الاسلام مسيرة اليونانيين من أمثال بطليموس وتجاوزوه كثيرا ، فوضع فلكيو الخليفة

المأمون الجداول الـ «مأمونية» التى صححت جداول بطليموس، وبنوا المراصد فوق جبل قايسون ومرصد مرفـة الذى اداره ناصر الدين الطوسى ، وكان ذلك المرصد يملك تجهيزا فريدا فى عالم ذلك اليوم ، كرة محلقة مكونة من خمس حلقات نحاسية ، قطر الواحدة منها أكثر من ثلاثة أمتار ، وهو جهاز لا يمكن صنعه الا بتكنولوجيا متقدمة جدا فى فن قطع المعادن • وكانت تلك البحوث الفلكية مفيدة تماما للعرب فى سفرهم فى البادية وفى البحار والمحيطات على حد سواء مما دعاهم الى اختراع الاسطرلاب الذى أخذه الأوروبيون عنهم •

وفى الجغرافيا كانوا هم أول من رسم الخرائط ، واستلهاما للعقيدة الاسلامية فان أرض الجغرافيين كانت كسماء الفلكيين ، معرفتها ، وتأملها ودراستها واجبة لانها صورة رمزية وآية من آيات الله • هى التجلى ، وظهور الله بالنسبة لنا سبحانه الذى لا يستطيع أحد أن يراه بذاته ، وانما بتجلياته •

فى بلاط روجيه الثانى ملك صقلية « حتى بعد استرداد صقلية من العرب » قام الجغرافى العربى العظيم (الادريسى) المولود عام ١١٠١ م بتأليف كتبه وسماها باسم روجيه ، وكانت تلك الكتب بما احتوت عليه من خرائط أشمل وأدق وصفا لعالم القرون الوسطى كله • وما ابن ماجد فى رحلاته وجولاته الا قرن الاستشعار العربى يمتدعبر البحار والمحيطات يسير فوق الدنيا ، فهو لم يكن مؤلفا لكتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد فقط ، وانما كان بحارا ماهرا يلقب بأسد العواصف وهو الذى قاد أسطول فاسكو دى جاما البرتغالى من ميلاندى على الشاطىء الافريقى الى كالكوتا فى الهند عام ١٤٨٩ م

لقد درس المسلمون العالم جغرافيا باعتبار استمرارية الطبيعة وباعتبار أن ليس ثمة فاصل بين الجغرافيا والزراعة والجيولوجيا وعلوم النبات وعلوم الحياة . واذا كانت الجغرافيا تصنع التاريخ فى جزء كبير منه فان التاريخ يصنع الجغرافيا فى جزء كبير منها .

لقد كانت ابتكارات العرب هى أساس اكتشافات « تورشيللى » فى ايطاليا لاختراع مقياس الضغط الجوى « البارومتر » . واكتشاف فوكانسون فى فرنسا للآليات لم يتجاوز كثيرا بحوث الجزارى فى الآلات .

ولا بد أن نقف عند أحد أعظم الشخصيات البارزة فى العالم العربى الاسلامى ، ذلك هو الانسان ذو الفكر المتكامل، العالم والفنان ورجل الدولة والفقيه ، ورجل القانون والفيلسوف ، كل هذا فى وقت واحد ، انه ابن خلدون ، الذى وضع فى القرن الرابع عشر الميلادى ، مؤلفا عظيما فى التاريخ وعلم الاجتماع تناول فيه ارتقاء الحضارات وانحطاطها ، وعندما درس أساس الحكم وأصل الأسر الحاكمة فانه فعل ذلك بتمكن لم يستطع أحد أن يتجاوزه الا بعد هذا بقرن من الزمان ، وكان ميكيافيللى فى كتابه « الأمير » . وعندما عرف المنهج التاريخى ليفين كأساس لتاريخ تفسيرى، وتعليلى ، فعل ذلك بوضوح يضاهى مونتيسكى فى (روح القانون) أو فى دراسته لأسباب عظمة الرومان وانحطاطهم .

ففى نفس العصر الذى لم يكن الغرب فيه يعرف عن التاريخ سوى كتاب « الحوليات » كتب ابن خلدون : ... « ابدأ بذكر الأسباب العامة فى دراسة الأحداث الخاصة ... وسأتناول التاريخ بالتفسير والتعليل مرجعا الأحداث

السياسية الى أسبابها وأصولها ٠٠ وطريقتنا فى معالجة هذا الموضوع تشكل علما جديدا قائما بذاته » ٠

واذ يربط الملاحظة الشخصية بالتفكير النظرى ، فانه يدون أثر المناخ والجغرافيا والظواهر الاقتصادية على حياة الشعوب ٠ وكذلك يدرس بنية المجتمعات ونشاطها انطلاقا من تقسيم العمل ، حتى انه يقدم أول صياغة للـ « مادية التاريخية » اذ يقول : ان ما نلاحظه من اختلافات فى عادات مختلف الشعوب وأفكارها مرده الى الطريقة التى تدبر بها قوتها ، أى طريقتها فى أكل العيش ٠

ولكن ما يميز ابن خلدون على مكيافيللى أو مونتيسكى (وأيضا عن التصور الوضعى للتاريخ) هو أن فكره التركيبى ، يبحث وراء سطح الظواهر ، عن الحياة الكامنة التى تعطى لهذا السطح معنى ، فمنذ الصفحة الأولى من مقدمة كتابه فى « التاريخ العام » حيث يدين أولئك الذين لا يرون فى التاريخ الا « رواية » و « وقائع جامدة » يضيف الى ذلك قوله : ان النظر من الداخل الى التاريخ يكسبه معنى آخر وهو هنا يقصد أن « يفسر » للقارىء كيف ولماذا تكون الأمور على ما هى عليه ٠ انه هنا لا يسرد وقائع ولكنه يحللها ويفسرها ٠ وهذا أثر اخر ٠ وليس فى ابن خلدون أى أثر لنزعة غيبية كالتى يجدها القارىء عند « بوسويه » فى كتابه « مقالة فى التاريخ العام » الذى كتب بعد ابن خلدون بقرنين ٠ ومع ان ابن خلدون يستند هو أيضا الى قوله تعالى « وفوق كل ذى علم عليم » الا أنه يقيم صلة أخرى بين العلم والعقيدة اذ يقول : ان التاريخ لم يكن مكتوبا قبلنا ولم يكتب بدوننا ٠ فليس فى مقدور الانسان ان يصم اذنيه عن النداء ، انه مسؤول عن قدره ٠٠٠

فالتاريخ فى المنظور الاسلامى عند ابن خلدون يصنع من أوضاع وأحوال وأسباب ، ومن اندفاعات الى الامام ومن خرافات وحيوانات وأوبئة ، وهو يصنع كذلك من مشروعات انسانية وغايات جزئية ومن نداءات ووجفات الهية ، ومن العقيدة أحيانا مصابة بالخور والتراجع وأحيانا أخرى شهيدة أو منتصرة مظفرة ، هذا هو التاريخ بتمامه لان الانسان هو كل هذا ٠

أما الطب الاسلامى ، وهو احد أجمل أزهار الحديقة الاسلامية ، فانه قائم هو الآخر على أساس الرؤية الاسلامية للعالم ، من الانشغال الدائم بالوحدة بين الاجزاء بمبدأ التوحيد ٠ وحدة الجسم بترابط الأجزاء والاعتماد المتبادل بين الكل ، وحدة الكائن الحى مع وسطه ومع المد الكونى وحدة الروح والجسد فان مفاهيم التوازن والانسجام الركيزة الأول للاسلام تقف هكذا فى المقام الأول فى نظرية الطب وممارسته ٠ تلك النظرية الطبية المرتبطة بما وراء الطبيعة وبعلم الكونيات وبفسلفة الاسلام ، معتبره أن الانسان عالم صغير تتلخص فيه درجات الكائن والكون بجملتها ، مرتبطة فى نفس الوقت بالملاحظة ودقتها وما يحدث للمريض فى فراشه باعتبار ان تعليم الطب يتم فى مستشفى وهو فى نفس الوقت يشدد على الوقاية ، والضوء خير دليل ٠

ولنعرف مدى الأثر العربى العظيم فى الطب ، فيكفى أن نعرف أن كلية الطب فى باريس لم تكن تملك منذ ستمائة عام خلت ، من العصور القديمة وحتى عام ١٩٢٥ الا مجلدا واحدا يخص كل العلوم الطبية فى العالم ، وكان هذا المجلد للرازى العالم المسلم ، الذى لا يزال تمثاله قائما الى جوار تمثال ابن سينا فى المدرج الكبير بشارع الآباء القديسين ٠

ولقد طبع بحث الرازى عن الجدرى والحصبة ، الذى كتب فى القرن العاشر أكثر من أربعين طبعة ما بين ١٤٩٨ و ١٨٦٦ ميلادية ٠

ورغم عظمة الرازى الا أن تأثير ابن سينا ، وبالذات فى كتابه « قانون الطب » الذى ترجم الى اللاتينية ، ظل موسوعة الطب العظيم بفضل وضوح تصنيفه للأمراض ودراسته المنهجية لأعراضها ، ودامت طرقه فى تشخيص أمراض ذات الرئة وذات الجنب وخراج الكبد وطرقا كلاسيكية اكاديمية طيلة ثمانية قرون من الزمان ٠ وكان ابن سينا كالرازى أيضا ، عبقرية شاملة فقد كان طبيبا وفيزيائيا وفيلسوفا وعالما دينيا وشاعرا كالحسن بن الهيثم الذى كان عالما عظيما فى الرياضيات والفلك ومهندسا وصاحب عدة مؤلفات فى علم البصريات ان الغرب يعتبره رائد الطريقة التجريبية فى العلم الحديث ، ولقد كتب ابن الهيثم أول وصف تشريحى دقيق للعين ، وفى عام ١٠٠٠ كان أبو القاسم الموصلى فى بغداد ينجح فى استئصال ما يسمى الكاتاراكت (الماء الأزرق) من عدسة العين بواسطة امتصاصه بابرة مجوفة ، فى حين أن الغرب لم ينجح فى اجراء هذه العملية الا فى عام ١٨٠٦ بعد انقضاء ثمانمائة عام على يد الدكتور بلانشيه ٠ وقد مارس العرب التلقيح ضد الجدرى ٠ ودرس الطبيب الاندلسى أبو القاسم مرض السل فى العمود الفقرى المسمى الآن بمرض « بوت » قبل ان يكتشفه بيرسيفال بوت بسبعة قرون ونصف ٠

أما تأثير العنصر المعنوى والروحى على الجسم فقد أدخل فى الحسبان ، فقد كتب ابن سينا : لا بد لنا من الأخذ بعين الاعتبار ان أحد أفضل العلاجات وانجحها يقوم على رفع القوى العقلية والنفسية والمعنوية لدى المريض وتشجيعه على المقاومة

وعلى احاطته بجو مستحب والعمل على اسماعه موسيقى عذبة وعلى اتاحة احتكاكه بأشخاص يروقون له ·

ان النهضة الأوروبية لم ترث تعاليم الحضارة اليونانية مباشرة فان الحضارة العربية الاسلامية هى التى استشرت طيلة الألف عام الوسيطة بين الحضارتين اليونانية والأوروبية الحديثة · لقد نقلت تلك الحضارة الى أوروبا عبر اسبانيا وصقلية ، ومورس تأثيرها بواسطة ترجمة المؤلفات الاسلامية الى اللاتينية ·

ان الفكر الفلسفى فى الاسلام لا يرى العالم فى تطوره وكأنه يسير فى اتجاه أفقى ، وانما فى صعود ، فالماضى ليس وراءنا ، الماضى تحت أقدامنا وهكذا لا يعود فى وسع العلم والتكنولوجيا اذ يستدعيان على هذا النحو لقضاء حاجات أسمى ، أن يصبحا مثلما هما فى التقليد الغربى منذ عصر النهضة ، غايتين بذاتهما · هذا المرض المسمى فى الحضارة الغربية بالحداثة والعصرية ، هو عكس للعلاقة بين الوسائل والغايات فالوسائل (التكنولوجيا) فى المنظور الغربى غايات، اذ لم يعد العلم والتكنولوجيا يتكيفان مع البيئة ، ولم يعد أحدهما فى خدمة الانسان ، العكس هو الصحيح : أصبح الانسان وبيئته خاضعين لنمو العلوم والتقنيات ·

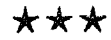
ان العلم والتقنيات وسائل مدهشة فى خدمة غايات انسانية ، لكن « علما » ما ، وأعنى به تنظيما للوسائل ، منفصلا عن حكمة ما ، أى عن تأمل فى الغايات يصبح أداة تدميرية فى يد الانسان وللانسان ·

وهكذا ممكن أن نلخص فلسفة العلم عند الحضارة الاسلامية بالتالى :

١ ـ ان العلم والتقنيات تنسق وفقا لأهداف أعلى من أهداف انسان أو مجتمع يكونان مجرد جزء من الطبيعة ٠

٢ ـ هناك استعمال آخر للعقل غير الاستعمال الذى يتجه من سبب الى سبب ، ومن سبب الى نتيجة ٠ عقل يصعد من هدف الى هدف ، ومن أهداف ثانوية الى أهداف أسمى ،ويسعى دون أن يبلغ النهاية أبدا الى التوحيد الأسمى الذى يضم معا سائر الأمور الأولى ٠

ان الأستاذ حسين نصر يعرف العلاقات بين العلم الذى يقال انه عصرى والعلم الاسلامى بانه على عكس العلاقات بين العلم والوسائل وبين الحكمة (الأهداف) ولو أن علماء المسلمين بعثوا اليوم لأدهشهم وربما أرعبهم مدى الانقلاب الذى صار اليه الحال ، فالعلم والوسائل قد أصبحت غايات ، بينما الحكمة (الأهداف) قد أصبحت هامشية جدا ، ان لم نقل انها اختفت تماما ٠



لماذا أسلم جارودى ؟

كان أول تعرفى على « روجيه جارودى » حين قرأت كتابه « واقعية بلا ضفاف » والحق ان الكتاب أعجبنى تماما • فقد كنت أيامها لا أزال أخوض مع نقاد الواقعية الاشتراكية معركة ساخنة حول مفهوم الواقعية ، ومفهوم المضمون الاشتراكى للعمل الفنى ، ذلك أن هم هؤلاء النقاد كان ينحصر فى بحثهم حول « موضوع » العمل الفنى ، بصرف النظر ان كانت تنطبق عليه مقاييس الفن أو لا تنطبق ، وحتمية ان يكون هذا المضمون واضح المفهومات الاشتراكية أو الانسانية ، بطريقة تحيل العمل الفنى فى النهاية الى نوع من الدعاية ، بل الى اسخف أنواع الدعاية ، الدعاية الحزبية، أعجبنى كتابه رغم انه كان فى ذلك الوقت فيلسوف الحزب الشيوعى الفرنسى وكاتبه الفكرى ، فانيؤمن الحزب الشيوعى بان الفن لا تنطبق عليه مقاييس الدعاية ولا الاعلام وانما هو عالم كامل مواز للحياة يعمل على مراكز فى النفس البشرية لا يمكن ان تصل اليها أى مبادىء سياسية أو اجتماعية وانما هو ينهل من بحر الانسانية الأعمق والأكثر فاعلية ، ذلك البحر الذى منه يغترف السياسيون والفلاسفة وعلماء النفس

والحياة • ان يكون هذا رأى الحزب أو مفكر الحزب الشيوعى فى الفن ، مسألة غريبة وجديدة وتلفت النظر ، بل الحق انها تصفع النظر ، وترينا الى أى حد يقصر نظر النقاد الماركسيين فى عالمنا الثالث والرابع •

وكان ثانى لقاء لى بجارودى فى جريدة الأهرام فى أوائل السبعينات حين دعاه الأستاذ محمد حسنين هيكل لزيارة مصر كضيف على جريدة الأهرام • وفى قاعة المحاضرات بمبنى الجريدة حضرت له مع نخبة ممتازة من الكتاب والمثقفين المصريين محاضرة كان عنوانها فى ذلك الوقت غريبا على مفكر الحزب الشيوعى ، حتى لو كانت الازمات قد بدأت تترى بينه وبين الحزب ، وحتى لو كان الحزب قد بدأ يفكر فى فصله باعتباره مراجعا ، ناكصا على حدود المادية الجدلية والمادية التاريخية • كان عنوان المحاضرة : الحضارة الاسلامية •

ماذا سوف يقول هذا الفيلسوف الماركسى السابق عن الاسلام وحضارته ؟!

والحق ان المحاضرة كانت نظرة جديدة تماما يلقيها مثقف غربى محايد عن الاسلام كحضارة • فهو يتحدث عن عمارة المساجد الاسلامية ويربطها بالمبدأ الاسلامى الخالد فى الوحدانية ، لا اله الا الله تجمع الخلق أجمعين فى « جامع » أو مسجد واحد ، القبلة واحدة ، السقف عال يجمع الأصوات فى وحدة موسيقية متناغمة وهكذا •

كان يلقى محاضرته بالفرنسية والفرنسية هى لغتى الثالثة التى أهملتها كثيرا ولكن لروعة القائه ونظرته استطعت أن أستوعب المحاضرة كلها وألم تقريبا بكل ما أراد قوله •

بعد هذه المحاضرة ، أو ربما قبلها بقليل لست أذكر على وجه الدقة ، قام الحزب الشيوعى بفصل جارودى من مكتبه

السياسى ولجنته المركزية وحتى من عضوية الحزب باعتباره مرتدا عن الماركسية ، وشنوا عليه حملة شعواء ايديولوجية وشخصية ٠

وان هى الا بضع سنين مرت واذا بنا نفاجأ بان جارودى قد اعتنق الاسلام وسمى نفسه رجاء وتزوج من مسلمة وزار ليبيا والجزائر والقاهرة والجزيرة العربية ٠

وسخر البعض من اسلام جارودى ، وشهروا به قائلين انه قبض ثمن اسلامه من العقيد القذافى ٠ وانه أسلم اسلاما بتروليا الى آخر ما قيل عنه ٠

والحق ، لانى لم يتح لى معرفة وجهة نظره ، ظللت حائرا امام اسلامه هذا ٠

وحتى حين استضافه التليفزيون المصرى ، عهدوا بالحوار معه الى مذيعة لا مؤهلات لها الا اتقان اللهجة الفرنسية فى النطق ، وسألته أسئلة ساذجة جدا عن اسلامه ، والحق انى لم اقتنع ، ليس لانه لم يقل ولكن لانه لم يسأل ٠ الى أن اشتريت هذا الكتاب من مكتبة فى القاهرة ٠ وكان كشفا عظيما ٠

الكتاب سماه مترجمه الدكتور ذوقان قرقوط ممثل الجزائر فى هيئة الأمم المتحدة سماه : وعود الاسلام ، والحق انه رغم دقة الترجمة الا ان الاختلاف اللغوى بين المشرق العربى والمغرب العربى جعلنى أرجع الى النص الفرنسى لافهم حتى العنوان ، رغم انى أقدم خالص شكرى وعميق امتنانى للدكتور قرقوط ، فلولاه ما ظفرت بهذه الثروة الفكرية ٠
ويبدأ جارودى كتابه عن الاسلام بشن هجوم على الحضارة الغربية « المسيحية ! » وما آلت اليه فيقول : ان الغرب

حادث عارض ثقافته ممسوخة وقد بترت من أبعادها الجوهرية ، فمنذ قرون ادعت هذه الثقافة بانها تنحدر فقط من ارث مزدوج من الحضارتين اليونانية والرومانية ومن اليهودية والمسيحية ، وهكذا لا يذكر الغرب كجذور لحضارته الا مرتكزا على « المعجزة الافريقية » وبهذا يبتر هذه الحضارة عمدا عن جذورها الشرقية • عن تراث آسيا الصغرى « تركيا اليوم » ، عن الاتصال بالفرس حيث استلهمهم طالس دى ميليت ومن جاء بعده الى كزينوفون دى كولونون ومن فيثاغورس الى هيراقليطس ومن خلال أعمالهم تهب نسائم زرادشت وفيما وراءها من ثقافة هندية قديمة • ناهيك عن تراث مصر القديمة وآلاف السنين ـ قبل اليونان ـ من تاريخها الحضارى الطويل وعلومها ورؤاها التى فتنت فيثاغورس وأفلاطون •

ان الحضارات تتخاطب وتتفاعل ولا يمكن ان تنفصل بعضها عن البعض الآخر ، فهى فى الحقيقة متواليات حضارية ، ففى الوقت الذى غربت فيه الثقافة فى روما بزغت فى الاسكندرية • وفى الاسكندرية التقت جميع تيارات الفكر فى الشرق ، وولدت علوم اقليدس فى الرياضيات وعلم بطليموس فى الفلك ، مثلها مثل الاشراقات الصوفية العظيمة عن فيلون وأفلوطين وأوريجين وكليمانت الاسكندرى ، ولكن الغرب ترك هذا كله ولم يذكر سوى اليونان القديمة مصدرا لحضارته • عن جهل هذا أم عن عمد • كذلك ذكر اليهود فقط دون الاسلام • أكذوبة تغذت من نفس الجهل المتعمد ، ونفس الالغاء ذاته • من قلب الهلال الخصيب الذى يمتد من بلاد بين النهرين « العراق » الذى جاء فيه « سيدنا » ابراهيم الى مصر التى أعاد منها موسى شعبه كيف يمكن أن تتخيل ان الثقافة اليهودية كاليونانية لا تحمل من الحضارة البابلية

والفرعونية فى أرفع درجات سموهــا ذلــك الذى نسخ منه اليهود حضارتهم ، ذلك النســخ الذى تفجــرت منه ملحمــة جلجامش وتنبئية زارادشت وتوحيدية اخناتون الذى نجــد تسبيحه للاله الواحد الشمس « بالنص فى مزامير داود ال ١٠٤ » .

وحتى المسيحية نفسها لم تأت من أوروبا ، القارة الوحيدة التى لم يولد فيها نبى ولم ينشأ فيها أى دين عظيم ، وانما من آسيا والتى تطورت فى انطاكيا « تركيا الآن » فى آسيا ، وفى الاسكندرية أى فى أفريقيا ، أفلاتدين الحضارة المسيحية لهذا كله بدين لا تستطيع ابدا نكرانه ، فالقديس بولس هو الذى انشأ الكنيسة الكاثوليكية فى روما بكل ما حمله معه من الشرق الى روما . وهل من العظمة فى شىء ان يكون المرء ابنا لأب مجهول .

والمسيحية نفسها ، وبالذات فى حبوها الى الشمولية فى الكاثوليكية الا يجب أن تعترف ان جذور هذه الشمولية الكونية فى حقيقتها مستمدة ، معظمها من الشرق . وان أثر الشرق عليها لا يقل عن أثر الحضارتين اليونانية والرومانية . ان من أوضح الأمثلة على هذا الراهب الكالابرى يواكيم دى فلور الذى تمكن فى سورية من معرفة « فلسفــــة الاشراق » عند السهروردى ، ومع المعلم ايكهارت الذى تعود اعماله الى الوحى الاسلامى لدى ابن سينا ، ومع القديس فرانســوا الاسوزى الذى استوحى الخليفة عبد الملك بن مروان فى دمياط ، ومع القديس حنا دى لاكروا الذى تظهر تجربته الصوفية شديدة الشبه أحيانا بتجارب صوفية المسلمين . ولــكن الشموليــة المسيحية لم تفعل هذا ، وبضيق أفقها الشديد خاضت حربــا من أكثر الحروب العسكرية اراقة للدمـــاء طيلــة قرنين من

الزمان فى الحروب الصليبية التى ذهبت عبثا فى فلسطين أو طيلة سبعة قرون لاعادة فتح اسبانيا حيث استقبل العرب فى القرن الثانى عشر كمحررين وحيث جعلوا من قرطبة أعظم مركز اشعاع للثقافة فى أوروبا ٠

لقد رفض الغرب منذ ثلاثة عشر قرنا هذا الجذر المهم الثالث لحضارته المعاصرة ، الجذر العربى الاسلامى الذى كان يمكنه ولا يزال فى وسعه ليس فقط ان يصالحه مع حضارات وحكمة للشعوب الأخرى ولكن أيضا يساعد على الوعى بالابعاد الكونية والالهية التى بتر عنها بتطويره من جانب واحد لارادة القوة فيه ضد الطبيعة وضد البشر الآخرين ٠

ذلك ان الاسلام كما يقول جارودى لم يكمل ويخصب وينتشر فحسب من بحر الصين الى الاطلنطى ومن سمرقند فى الشمال الى تومبكتو فى أفريقيا فى أقصى الجنوب لم يكمل فقط ولم يخصب أقدم الثقافات ، ثقافة الصين والهند وثقافة الفرس واليونان والاسكندرية وبيزنطة ، وانما نفخ من روحه المتوقدة فى امبراطوريات مفككة وحضارات مشرفة على الموت ، روح حياة جماعية جديدة واعاد الى البشر والى مجتمعاتهم ابعادها الانسانية والالهية بنوع خاص من التسامى والتوحيد ، كما أعاد انطلاقا من ذلك الايمان البسيط والقوى لاحياء العلوم والفنون ، خلق الحكمة الاشراقية التنبئية وسن القوانين ٠ ليس صدفة ابدا ان ملامح اليقظة الغربية الأولى كانت فى أسبانيا الاسلامية قبل أربعة قرون من يقظته فى ايطاليا فيما سمى بعد هذا بعصر النهضة ، وقد كان ممكنا ان تكون هذه اليقظة عالمية فيطرح الغرب هذا الجذر المهم الثالث لحضارته جانبا ، ذلك الجذر الذى كان ممكنا ان يوحد الشرق والغرب ، « وبانفصاله وتقوقعه داخل ما يسمى بالحضارة

المسيحية واليهودية ـ اليونانية الرومانية » حرم نفسه من حضرية الثقافات الأخرى كلها وعلى رأسها الثقافة الاسلامية بينما وجهه نحو نموذج انتحارى من النمو والحضارة · أى اسم يطلق اليوم على هذا الشكل من هيمنة الغرب العالمية الذى انفق فى عام ١٩٨٠ ، ٤٥٠ مليار دولارا فى التسلح وتسبب فى موت ٥٠ مليونا من الكائنات البشرية فى العالم الثالث نتيجة لنزف الموارد وتصدير الفائض بالسعر الكاوى ، تلك المقايضات الظالمة المتعسفة غير المتساوية · ان الغرب فى منظور آلاف السنين كان وسيكون أكبر مجرم فى التاريخ ، انه اليوم بسبب سيطرته الاقتصادية والسياسية والعسكرية يعنى النظر الى الأشياء كما لو كانت مستقلة عما هو أصلها التى لا يشاركه فيها احد ، يفرض على العالم بأكمله ، نموذجه من النمو الذى يقود الى انتحار سكان كوكبنا جميعا لانه يولد فى آن واحد ، تفاوتات متزايدة ، وينزع من نفوس الفقراء وأكثر الناس حاجة كل تفاؤل بأمل فى المستقبل ، ويعمل على انضاج التمرد اليائس ، فى الوقت الذى يرصد فيه ما يعادل خمسة اطنان من المتفجرات لكل رأس بشرى يقطن كوكب الأرض · ان النظام الثقافى العالمى الجديد هو الانتقال من الهيمنة الغربية الى التشاور على مستوى الكرة الأرضية لاعادة تحديد مواصفات مشروع انسانى شامل · فان الحوار بين الحضارات قد أصبح ضرورة ملحة · فلقد بلغ السيل الزبى وتجاوز الى درجة الفيضان · اذ لم تعد معركة عصرنا الحيوية هى المعركة الدائرة بين « الرأسمالية » التى تولد النزعات الاستعمارية والحروب والازمات و « الاشتراكية » ذات النموذج السوفياتى التى أصبحت بتبنيها نفس أهداف النمو التى يباشرها الغرب الرأسمالى ، كالرأسمالية ، ظالمة لشعبها ذاته ، مستغلة وأحيانا مستعمرة كما فى أفغانستان « للعالم

الثالث وشريكة في السباق نفسه الى الهيمنة وامتلاك أسلحة الرعب • انما معركة عصرنا المركزية والحيوية هي معركة الصراع الرهيب بين الطريقة الانتحارية للتقدم والنمو على المنوال الغربي أو على وجه الدقة الطريقة التي تفصل بين الوسائل والغايات ، بين العلم والحكمة من استعمال العلم والهدف من استعمال العلم ، هذه الطريقة التي تؤجج في الانسان فرديته وتبعثره من جماعته وابعاده الانسانية الأخرى • ان الاسلام لم يعد ذلك « الكافر » في زمن الصليبيين أو الارهابي في حرب التحرير الجزائرية أو « المقاومة الفلسطينية » ولم يعد ذلك الأثر في المتحف الذى يتفحصه المستشرق بين العالم الاختصاصي في الحضارات القديمة انطلاقا من الحكم المسبق بامتياز الغرب وتميزه ، انما الاسلام هو تلك الرؤية لله ، وللعالم وللانسان ، تلك الرؤية التي تستنبط العلوم والفنون ، وتستنبط من كل مجتمع مشروع بناء عالم الهى وانساني لا انفصال فيه بين البعدين الأعظمين: الفردية والجماعية ، التسامي والأمة • لقد انقذ الاسلام من قبل امبراطوريتين عظيمتين متهاويتين أفلا يستطيع اليوم أن ينقذ عالمنا من تفتته أفلا يستطيع أن يجيب على الأسئلة التي تلقيها حضارة غربية تكشفت خلال أربعة قرون عن انها قادرة على أن تحفر قبرا للبشرية كلها • ان اختيار النبي صلى الله عليه وسلم وانتصاره في شبه الجزيرة العربية وتقدم خلفائه الخاطف ، وسيطرتهم في أقل من ربع قرن على كامل العالم المعروف حينذاك باستثناء جزء من أوروبا الخاملة ومن حين صاعدة نحو ذروة تقدمها ، هذا الانتصار والتقدم لا يمكن ان يفهم بدون الاعتراف بمكانة أولى للرسالة الاسلامية ذاتها ونوعيتها • يمكننا ان نحاول ايجاد تفسيرات اقتصادية واجتماعية وسياسية وعسكرية لهذا الانتصار ، ولكن هذا

الانتصار الهائل سيظل مستغلقا على الأفهام بدون الاسلام ، كعقيدة وكجماعة قائمة على هذه العقيدة • والنبى « صلى الله عليه وسلم » لم يدع انه يجىء بدين جديد وانما يواصل ويجدد ويتم تلك العقيدة الأصلية التى كان يبشر بها سيدنا ابراهيم ، وكان فى وقته يمثل تعبيرها الأمثل • ويستطرد جارودى فى تحليله قائلا : ان المجتمع العربى قبل الاسلام كان قائما على نوعين من المجتمعات : مجتمع البادية ، ذلك الذى تسكنه قبائل يدين الفرد فيها بالولاء للقبيلة ، بينما مجتمع الواحة التى أصبحت مدينة بزراعتها وحرفييها وتجارتها وملكيتها الخاصة ومراتبها الاجتماعية ، أخذت تحدث فيه صراعات داخل المدينة نفسها • والبدو من أهل الرعى والابل كانوا فى حاجة الى فلاحين مزارعين مقيمين ، وكان البدوى الراعى يملك بفضل مطاياه السريعة تفوقا عسكريا على المزارعين والحرفيين والتجار المرتبطين بالأرض • وهكذا كان يؤمن القوافل التجارية مقابل اتاوة محددة • وكانت المسيحية حين دخلتها السفسطة الاغريقية واستحالت الى أحاج والغاز لا يفهمها الانسان العادى لا تستطيع ان تنفذ الى هذا المجتمع الخليط ، وخاصة مثلث مكة والمدينة والطائف والواقع فى ملتقى التيارات التجارية بين أوروبا والهند والصين وبين بلاد ما بين النهرين والحبشة ومصر ، كان مثلثا يموج بأشكال عديدة من الشرك وأنواع عديدة من العبادات ، ومن شبه الجزيرة هذا ، فى مطلع القرن السابع كان القلق الروحى عظيما ، والجو كان مهيأ متهلفا لضرورة تحول جذرى يحدث حين ظهر الرسول العظيم • اذن كان المحتوى الدينى فى زخرفته المتعددة مشكلا من وثنيات متعددة الآلهة مفصولة عن معناها الانسانى • ولم تكن الرسالة المحمدية فى فحواها المباشر الا عبادة ان لا اله الا الله ، الها واحدا سبحانه ، وان

ينبذ المعتقدات الباطلة الطفيلية والطقوس التى لا حياة فيها • ولم يكن ذلك استبعادا لجميع أشكال الشرك بتعدد الالهة وعبادة الاوثان ، وانما اخضاع أيضا لكل سلطة وكل ملكية وكل معرفة لمفهوم التبعية • ان الله أكبر من أعظم الملوك ، واليه وحده يدان بالاجلال المطلق • هذا مبدأ لا يجوز التصرف فيه • ولا بد ان نصمد فى وجه كل طغيان وبمعارضة كل سلطة تزعم لنفسها حقا الهيا والمساواة التامة بين الناس بحيث يكون « أكرمكم عند الله أتقاكم » هى القاعدة الوحيدة والواحدة • فالله وحيد وهو حقيقة واحدة ، وهذه هى الشهادة المبدأ والقاعدة لاعلان الايمان والمسلمة الثانية فيه وهى ان محمدا رسول الله تشير الى حركة العودة ، ذلك ان محمدا هو القدوة نفسها لكل حقيقة ينظر اليها كوحى واشارة من الله • فالقرآن هو الله ، فى بلاغة الناس ، متوجها اليهم بالكلام الذى يوحيه الى الرسول من أجل ربطهم بمصيرهم • وهكذا لا توجد ألوهية أخرى غير الله ولكن ليست هناك حقيقة أخرى أيضا خارج هذا الاطار « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»«سورة فصلت٥٣»، ان كل شيء فى الكون آية كل شيء هو تجل من الله ، ان كلمة آية أو بمعنى آخر « امارة » ، فكل شيء حينئذ آية من الله تدل على وجود الله وكل شيء يكون مقدسا بعلاقته بالله فالفكر يعنى النظر الى الأشياء كما لو كانت مستقلة عما هو أصلها وغايتها ومعناها ، الله سبحانه •



اسلام بلا ضفاف

تركت كتاب جارودى جانبا ، ورحت أتأمل رحلة الانسان الباحث عن الحق والحقيقة • لقد كلفتنى هذه الرحلة عمرى وأنا لا أزال دائب البحث ، ولقد تجسد لى جارودى على هيئة ذلك الجزء المتبقى حيا من الضمير الأوروبى المعاصر الذى كتب عليه فى بداية حياته ، وحتى قبل أن يصبح عضوا بارزا فى الحزب الشيوعى وفيلسوفه الأعلى أن يصطدم بالحقيقة الاسلامية الكبرى حين عمل أستاذا فى الجزائر المستعمرة اذ ذاك استعمارا فرنسيا كاثولوكيا غاشما ، استعمارا يهدف الى نزع كل ما يخص الانسان الجزائرى من أصالة ولغة ودين ومقومات وجود ، والباسه لباسا فرنسيا مهلهلا ، فلا هو أصبح به فرنسيا ، ولا هو أبقى على حقيقته العربية الاسلامية • يقول الدكتور ذوقان قرقوط مترجم كتاب (وعود الاسلام) : عادت بى الذاكرة ، وأنا اقرأ كتابه الجديد (كتاب جارودى) الى أيام يفاعتنا بثانويات الجزائر ، فى احدى مدن وهران • كان ذلك عام ١٩٤٨ عندما قدم الينا رجل ، جاء ليهدم سورا • ذلك السور الذى كان يفصلنا بوحشية عن ثقافتنا القومية التى حرمنا منها الاستعمار والتى

لم يكن فى وسع أية ثقافة أجنبية ، مهما كانت فنية وفاتنة ، ان تجعل منا غير رهائن ضائعة ، بالنسبة لأبنــاء وطننا ، وبالنسبة للآخرين • واذ كنا محرومين من ثقافتنا ومن لغتنا القومية ومن حضارتنا الخاصة ، فقد استقبلنا هذا الرجــل بشكران ورع ــ الذى كان يجعلنا نرفع الحجاب ــ الذى يخفى ثقافتنا والتى أصبحت هى نفسها غريبة فى بلدها • فى زمن كان القيام بالتصدى للاستعمار فيه يعرض للاخطار ، عمل هذا الرجل المقدام على أن نعود للارتباط بأنفسنا ،ليساعدنا على التغلب على عملية نزع ثقافتنا ويشرع منذ ذلك الحين فى فتح حوار بين الحضارات • لم يأت ليعرف بواسطتنا ، من نحن ، وماذا يستبسل الاستعمار فى العمل على أن ينسينا اياه ، وانما أتى ليساعدنا على اتقانه أو على اعادة اكتشافه • هذه المرة يتوجه روجيه جارودى بكتابه (وعــود الاسلام) الى جمهور غير مسلم يريد أن ينزع الضمادات عن عيونه ويخلصه من أحكامه المسبقة •

فى كتابه هذا الأخير اذن يتوجه جارودى الى الأوروبيين مسيحيين كانوا أو يهودا أو ملحدين ، ويحدثهم عن الاسلام ، حديث انسان بدأ رحلته مع الاسلام كما نرى فى الجزائر عقب الحرب العالمية الثانية ، وفى عام النكسة الاسلامية والعربية الكبرى عــام ١٩٤٨ عــام قيــام اسرائيل وبدايــة اغتيال فلسطين • هل هى مصادفة أم أن ذلك الضمير الأوروبى أو على الأقل بقاياه النقية الباحثة عن الحق والحقيقة ، قد ظل وقد هزت معتقداته وآراءه الثابتة حــرب عــالمية ضروس من صنع ذلك الغرب نفسه ، وداخل معسكره ، أهلكت الملايين ، ولم تحل للبشرية مشكــلة واحــدة ، قــد راح يبحث لازمته الطاحنة عن مخرج ، وازاء طبيعته العدوانية الشرسة يبحث عن ميادين أخرى تحفل بالانسانية والوحــدانية وحدانيــة

الكون والله الممتدة الى الانسان ، فكان جارودى خير باحث وخير رائد لهذا الاتجاه • فقد بدأ جارودى حياته كاثوليكيا راح يقلب هذا الجناح من المسيحية باحثا فيه عن حل شامل للبشرية • وحين أعياه البحث (كفر) بكاثوليكيته تلك ، وتحول الى الماركسية والمادية الجدلية والتاريخية علة يجد فيها الحل •

ولكن لننظر الى هذا التعلق المبكر بالحضارة الاسلامية والذى كما يذكر الدكتور قرقوط يرجع الى العام ١٩٤٨ حين كان جارودى مدرس ثانوى بالجزائر • لقد ظل جارودى بعدها قائدا وفيلسوفا للحزب الشيوعى الى ما بعد هذا بكثير • وكان لا بد لتناقض كهذا أن يصير الى معركة خاضها جارودى وحيدا ، باحثا عن الحقيقة ، أمام حزب كبير ، تحمل موقفه منه واتهاماته له ، والادانات الكثيرة التى طعنه بها والنيل منه •

ولكنه كان قد وصل الى قمة المنتهى ، ومن يصل الى قمة المنتهى لا يهمه اعتراضات البشر • كان جارودى قد آمن بأن الاسلام هو الدين الوحيد بل هو الفلسفة الوحيدة التى بشرت بالوحدة الالهية (التوحيد) الذى يعطى لكل حياة ولكل شىء معنى بالنسبة لعلاقته بالكل • ليس توحيدا جامدا ، توحيد الايمان باله واحد مجرد ، جاعلا من الله فكرة وربما أقل من ذلك أيضا ، مجرد حلول أو وحدة للوجود تخلو من الله سبحانه • التوحيد هو فعل ، فعل من الله دائم الخلق ، فعل من الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذى بكلامه ، الموحى به من الله يكون ليس وحدة أو جملة ، ولكن فعل توحيد ، فعل تجميع ، فعل لكل انسان يعى انه ليس هناك آله حقيقى سوى الله وانه فى كل لحظة يربط كل شىء وكل حادث بمبدئه •

ولا يمكن لنا أن نفهم انتشار الاسلام من غير أن نلفت النظر (هكذا يقول جارودى) الى وجهين أساسيين تجليا منذ ظهور النبى (صلى الله عليه وسلم) • فأولا التوحيد هو عمل يدل على ذلك الافتراض السخيف القائل بأن الاسلام يقود الى « الجبرية » بالناس ، انه يقدم الأساس الصلب لمسؤولية الانسان وحريته فاسم « الاسلام » نفسه يعنى التسليم أو الامتثال للارادة الالهية • وعليه ، فان كل شيء فى تصوره للتوحيد ، للكل ، يكون « مسلما » ، فمثلا الشجرة فى أزهارها ، الحيوان فى نموه الحجر فى جماديته ، هى كلها فى أشكالها المختلفة مسلمة للارادة الالهية وبالارادة الالهية ، فليس فى امكانها الافلات من القانون الذى يحكمها •

ان الانسان وحده هو الذى يستطيع أن ينسى بارادته طبيعته الحقيقية • « قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » (سورة طه ١٢٦) • فهو يصبح مسلما اذن بالاختيار وذلك بتذكره الشريعة الأولى ، شريعة التوحيد والمجموع التى تعطى لحياته معنى ، وهو مسؤول مسؤولية تامة لانه يملك امكانية الرفض •

من جهة أخرى (هكذا يمضى جارودى قائلا) سيكون غريبا جدا اعتبار عقيدة قادت المسلمين الى تجديد أربع حضارات كبرى والاشعاع على نصف العالم ، في فترة لا تتجاوز الثلاثة أرباع قرن ، مجرد عقيدة قدرية منقادة • هذه الحيوية في الفكر والعمل هى تماما عكس القدرية • لقد اقتاد ملايين الناس الى التأكد من أنهم من الممكن أن يعيشوا على نحو آخر •

الملاحظة الثانية تنصب على وجه الدقة على هذه الطريقة الجديدة للحياة : فاذا كان الاسلام قد تمكن من الانتشار بمثل

تلك القدرة وبهذه السرعة فى الجـزيرة العربيـة أولا من المحيط الاطلنطى الى بحر الصين ، شرقا ، فذلك لانه كـان يحدد معنى الحياة لدى شعوب ضلت الطـريق وتفـككت مجتمعاتها وثقافاتها وعقيدتها • كان المبدأ الرئيسى لتلـك التجديدات هو استعادة عقيدة أصلية ، وهى عقيدة ابراهيم ، العقيدة التى كانت تترجم الى أفعال تخضع الى أمور نسبية تراقب البشر وثرواتهم وتبذل جهدها فى تحـقيق المشروع الالهى •

كان القرآن الكريم يعترف بصدق أنبياء التوراة على انهم رسل لله نفسه : شرائع موسى وانجيل يسوع كانت كلام الله • لنرى الآن كيف رأى جارودى العقيدة الاسلامية فى مبادئهـا الأساسية الخمسة •

الاسلام الفلسفة الوحيدة التى بشرت بالوحدة الالهية :

فأولا : الجهر بالعقيدة بشهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله • اذ الكون بأكمله بهذه الطريقة يتخذ معنى • اذ يتجلى المطلق فى النسبى على شكل « اشارات » ورموز • ان الطبيعة والبشر ، تماما ككلام القرآن ، هم ظهور ، هم تجلى الله ، « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شىء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كـان حليما غفورا » (سورة الاسراء ١٤٤) •

ثانيا : الصلاة وهى المشاركة الواعية من الانسان لهـذا التسبيح الكونى الذى يربط المخلوق بخالقه « عد الى ذاتك تجد الوجود كله مختصرا فيك » •

ان الصلاة تريح المؤمن بهذه العبادة الشاملة ، فبالقيام بها وقد ولى الجميع وجوههم شـطر مكـة ، يروح المسلمون

جميعهم · ويولون وجوههم الى المحراب ، الى الكعبة ، بدوائر متحدة المركز ، بهذا الانجذاب الواسع للقلوب التى تهفو نحو مركزها · والوضوء يرمز الى عودة الانســـان الى الطهـــارة الأصلية ، مستبعدا منه ، بهذا الاغتسال ، كل ما يمكن ان يشوب ، بأى كدر ، صورة الله وبهذا يصبح مرآته الصادقة ·

ثالثا : الصـــوم ، وهو ايقاف طوعى للايقاع الحياتى اليومى ، تأكيد حرية الانسان بالنسبة لل « أنا » ولرغباتها ، وفى نفس الوقت هو التذكير بوجود من هو جائع فينا كما لو كان تذكيرا بذات أخرى يجب المساهمة فى انتزاعها من البؤس والجوع والموت ·

رابعا : الزكاة ليست احسانا أو تسولا ، وانما هى نوع من العدالة الداخلية أخذت شكل المؤسسة،وهى ملزمة بطريقة تجعل من المؤمنين ذوى ارادة فعالة ، بمعنى انهم يستطيعون أن يتغلبوا على الانانية وعلى البخل داخل أنفسهم · والزكاة هى التذكير الدائم بان كل غنى لله شأنه شأن كل شىء آخر · وان الفرد لا يمكنه أن يتصرف فيه على هواه اذ أن كل انسان هو عضو فى جماعة ·

خامسا : الحج لبيت الله (مكة) بيت الله الحرام الذى لا يجسد عالمية الأمة الاسلامية فحسب ، وانما هـــو يحيى فى داخل كل حاج الرحلة الداخلية نحو مركز ذاته ·

فالمسألة المحورية فى الاسلام ، فى جميع مظاهره ، هى هذه الحركة المزدوجة من الانسان نحو الله ، وعودة الله الى الانسان ، انبساطا ، وانقباضا فى قلب المسلم ·· « قالوا انا لله وانا اليه راجعون » (سورة البقرة الآية ١٥٦) ·



على هذه الأسس الاسلامية التوحيدية الكبرى أسس النبى (عليه الصلاة والسلام) نموذجا لم تعرفه البشرية من قبل، فهو ليس جماعة قبلية متحدة فقط بروابط الـــدم لدى البدو والرحل أو مقيدة بالأرض لدى الحضريين · كذلــك ليست « أمة » بالمعنى الفرعى للعبادة ، مرتكزة على وحــدة أرض ووحدة وطن وسوق ولغة وتاريخ ، بمعنى انها ليست معطيات جغرافية أو عرقية أو تاريخية ، ولكن مجتمع مبنى على تجربة مشتركة من تعاليم الله ·

وقد ارتكز مجتمع المدينة سياسيا على ركيزتين أساسيتين : الركيزة الأولى أن السلطة لله وحده ، وأنه هو الذى يجعل كل سيادة اجتماعية مجرد سيادة نسبيـــة · الركيزة الثانيـــة هى ركيزة الشورى تلك التى تستبعد أية وساطة بين الله والناس · وهكذا يزول فى وقت واحد أى استبداد مطلق يضفى القداسة على السلطة ويجعل من الحاكم أو الزعيم الها على الأرض · وفى نفس الوقت يلغى الديمقراطية بالشكل الغربى · أعنى (هكذا يقول جارودى) الديمقراطية بالشكل الفردى ، أو الكمى أو الاحصائى · ذلك ان الحرية ليست نفيا ولا عزلة ، لكنها انجاز للارادة الالهية ·

وهنا نستطيع أن نتوقف قليلا لنناقش جارودى فى هذه النقطة · على وجه التحديـــد ، فالديمقراطيـــة على النســـق الغربى ليست فردية كما ينص جارودى · ربما هو كرجل غربى النشأة قد شبع من هذه الديمقراطية وتلك الحرية ، ولكننا هنا نستطيع أن نقول لجارودى انه لا تعارض مطلقا بين الشورى الاسلامية وبين الديمقراطية فى شكلها الغربى ، فلكى تضع مجتمعا (شوريـــا أو استشاريـــا) لا بـــد ــ فى المجتمعات المـــكونة من ملايين الأفـــراد ــ ان تختـــار نخبة تستشيرها ، والشعوب والمجتمعات هى التى تختار ، ولهـــذا

فالانتخاب هنا ، وحقه ، وضرورته هـو الطريقـة الوحيدة (لاختيار) أى مجلس نيابى أو شورى ، مع احترامنا الكامل لرأى جارودى الذى شبع من خلال مجتمعه الغربى اختيارات وانتخابات وحريات ، بينما ظل الحكم الاســـلامى فيما عدا مجتمع المدينة وحكم الخلفاء الراشدين يعج بالاستبداد وحكم الفرد •

أما فيما يتعلق بالملكية ، فيقول جارودى : انه اذا كانت كل ملكية هى ملك لله • وان كل انسان لا ينال منها بعملـه الا حق الانتفاع فان التصور القرآنى والنبوى للملكية هـو عكس التصور الغربى تماما (أو التصور البورجوازى) • ففى الحق الاسلامى ، ليست الملكية خاصة من صفات الفرد ولا من صفات الجماعة ، وانما هى وظيفة اجتماعية مرصودة لتلبية مقتضيات الارادة الالهية فى الـ « الأمر بالمعروف » •

ذلك ان المجتمع الاســلامى هــدفه الأول هو التسامى بأفراده وجماعاته والتسامى والجماعة المتسامية المسلمة هى الاسهام الذى يستطيع الاسلام اليوم أن يقدمه لخلق مستقبل له وجه انسانى فى عالم جعل استبعاد الســمو منه وتدميــر الجماعية بالفردية وسيطرة نموذج جنونى من النمــو بحيث خلق من الوضع الراهن حقيقة لا يمكن أن تعاش أو يستمر الانسان يحياها • كان جان جاك روسو (في العقد الاجتماعى) يستند الى تصور مجرد للفرد ، ولم يكن يستطيع فى النهاية تخيل الاندماج الجماعى والاجتماعى الا من خلال اسطــورة « الأفراد العامة » التى ظهرت أشكالها التاريخية الملموسة على هيئة برلمانات وأحزاب • وكان الأمر على هذا النحو بالنسبة للملكية : فلقد قاده تعريفها الفردى الرومانى البورجوازى الى نظرية « صالح عام » مزعومة ، قائلة ، بانه اذا اجتهد كل فرد فى مصلحته الشخصية فان الصالح العام سوف يتحقق •

وكان لا بد من انقضاء قرنين من الاضطرابات الاجتماعية التى ولدت « الليبرالية الاقتصـادية ، أى الرأسماليـة » التى لم تتفق أبدا مع (الصالح العام) وكذلك الليبرالية السياسية التى لم تتفق أبدا مع الارادة العامة ، فان التجارب الموصوفة ب « الاشتراكية » (هكذا يقول جارودى) التى أحلت محل الليبرالية اسطورة حزب اشتراكى أو شيوعى عالم بكل شىء ومرسل من العناية الالهية باسم طبقة عاملة يقال انها رسوله المستقبل وهى طبقة لم تستشر أبدا فى كيفية حكمها ولا فى مستقبلها وهكذا فلا يمكن أن تتمثل من الحزب أية ارادة عامة أو صالح عام .

يقول الرجل فى كتابه وعد أو وعود الاسلام :

اننا لا نسعى مطلقـا الى اعتبار جميع منجزات المجتمع الاسلامى التاريخية مثالية ، بل نعتقد أن الرغبة فى استنباط تشريعات صالحة لجميع الازمنة وجميع الشعوب من نص منزل هو ضد ما نزل به القرآن بقوله : ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون (سورة يونس الآية ٤٧) ، وبصورة أكثر دقة أيضا : وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ... (سورة ابراهيم الآية ٤) .

واليوم حيث لم يتجمد الاسلام عند ماضيه وانما عرف كيف يحل مشكلات عصرنا بروح مجتمع المدينة ، متذكرا أن البقاء على الاخلاص للتراث ، وللسلف وللاجداد لا يكون بنقل الرماد من موقدهم ، وفقا لتعبير جوريس ، بل بنقل الشعلة ، فالنهر حين يتجه الى البحر انما يفعل هذا وفاء لمنبعه البحر . اذا استطاع المجتمع الاسلامى أن يفعل هذا فيكون قد استطاع أن يشق لنفسه ليس فقط من أجل المسلمين ، وانما بصورة شاملة للمجتمع الانسانى كله آفاقا اشتراكية لا تشملها أبدا العلمانية

الوضعية ولا الفردية الغربية وانما تخصها القيم الأساسية التى سبق لها أن بعثت فى مجتمع المدينة شعلة الأمل : التسامى والمجتمع ٠

★★★

هذا استعراض عام لرأى جارودى فى اسلامنا الحنيف ، ذلك الرأى الذى انتهى به بان يسلم ويسمى نفسه رجاء جارودى ٠ قد نختلف معه وقد نتفق ولكننا فى النهاية لا نملك الا احترام رجل احترم عقله وفكر به ، واحترم حضارته فثار على عيوبها ومثالبها ، وسما بمسيحيته عن أن تكون تعددية أو وثنية فى ثوب جديد ، وبمثل ما جاء الاسلام يصدق ما جاء فى التوراة والانجيل ، فقد كان الرجل طبيعيا جدا فى تطوره من المسيحية التى آمن بها الى الاسلام الذى انتهى اليه ٠

أما ما فعله الاسلام بالمسلمين عامة وبالعرب خاصة فانه شىء حقا يجل عن الوصف ٠



جارودى ٠٠ و « وعود الاسلام »
لماذا كتبت تلك السلسلة

سألنى كثيرون ، بتليفونات وخطابات ، لماذا بالذات اخترت فى أن تقدم كتاب جارودى « وعود الاسلام » وأن تتحدث عنه وعن اسلامه ، وعن رؤيته للاسلام ؟

وهل حدث لى تحول فى تفكيرى دفعنى للـ (عودة) للاسلام ؟

والحقيقة انى لم أستغرب الاسئلة ٠ فقد درجنا فى الفترة الأخيرة على أن نقسم الناس قسمين : قسم مع الاسلام ، وقسم مارق أو خارج أو علمانى أو علمى أو ليبرالى أو يسارى ٠٠

وكأن الاسلام ضد هذا كله ٠

بل انه . لما دفعنى على ابتسامة رثاء ، تلك الندوة الشهيرة التى عقدتها نقابة الاطباء عن الاسلام والعلمانية ، واعتقد انه قد كان وراءها صديقى وزميل العمر الدكتور عبد الفتاح شوقى الذى زاملنى من دمياط الثانوية الى كلية الطب وشاهدته عضوا نشيطا جدا فى الاخوان المسلمين ونحن فى السنوات النهائية من دراستنا ، ورغم اختلاف السبل ، الا أن غاياتنا كانت دائما متفقة ، حتى حين أصبح عبد الفتاح شوقى

ومعه نخبة عظمى من الاطباء الكرام ذوى التوجه الدينى هم تقريبا كل أعضاء مجلس ادارة النقابة · ولم يكن غريبا أن ينتخب عبد الفتاح سكرتيرا عاما للنقـابة ، وأيضا لم يكن غريبا آن ينشط هذا النشاط الذى بدأه بتلك الندوة ·

أقول ابتسامة رثاء لاننا قد وصـلنا الى وضـع اصـبح الاسلام فيه يوضـع ندا للعلمانيـة أو العلميـة ، وكانهما ضدان ، وكأن العلم ضد الاسلام ، أو كأن الاسلام ضد العلم ·

وتلك المقولة ليست سوى مدخلا لما حاق بالاسلام ، خاصة فى أيامنا الأخيرة من سوء تأويل ، وتحديد وافتقار ··

منذ أصابت النكسة كثيرا من الثورات الوطنية القومية فى العالم الثالث ، وربما فى العالم الاسلامى بشكل خاص ، برزت الدعوة الاسلامية بشدة ، ونودى بها كبديل عن الدعوة الى القومية والوطنية حتى سمعت بأذنى شباب النقابيين فى نقابة مهنية عليا يهتفون فى مظاهرة لتأييد مرشحى التوجـه الدينى · هتافات تقول : لا قومية ·· لا وطنية ·· اسلامية ·· اسلامية ·· وكأن الاسلام العظيم نقيض وضد للقومية والوطنية ، وكأن الوطنى أو القومى لا بد أن يكون بالضرورة نقيضا أو عدوا للاسلام ·

ولم تدعنا الحضارة الغربية ، وعلى رأسهـا الحضـارة الاميركية الاسرائيلية فى حالنا ، ولكنها بذكاء شديد أدركت المحنة الفكرية التى تمر بها الشـعوب العربيـة والاسـلامية فحاولت أن تسرب هى الأخرى مفهوم (اسلامية) تحيل بها الاسلام من دين ثورة وكفاح ضد الظلم ، وضد الكفر الحديث (الاستعمار) الى دين يركز عـلى أن الاسـلام دين مزاولـة عبادات فقط ، ودين يضع ما يحيق بنا من ظلم على عاتق الفرد المسلم باعتبار اننا مهزومون ومدحورون لاننا زغنا عن حقيقة الاسلام وأبدا ليس لان هناك أعـداء مكروا لنا وأحسنوا

وأجادوا مكرهم واستعانوا بأقصى ما وصلوا اليه من اختراعات وابتكارات تكنولوجية وعلمية ليحيقوا بنا الهزيمة من ناحية وليشجعوا مفهوما عن الاسلام يطالب بتجريدنا من تلك الاسلحة ، من العلم والتقدم ، من الذكاء والفكر والفن والابتكار ، لنكون له غنيمة جاهلة سهلة ..

ثم رأينا من خلال السنوات الأخيرة تغلغل مفهوم محدود تماما في صفوف شبابنا ، وحتى قطاعات كثيرة من مهنيينا من أشاع فعلا مفهوما للاسلام يركز على زى المرأة والجلباب الباكستانى أو السعودى للرجل ، وكأننا اذا فعلنا هذا هزمنا الشيطان ، وانتصرنا على أنفسنا وعلى ظروفنا وعلى تخلفنا وعلى أعدائنا .

ثم تتحدث الأصوات جميعا فى صيحة عليا تقول ان ما ينقص حكمنا ليكون اسلاميا شرعيا ، وما يضيعنا ويشيع فينا السوقة والانحلال هو عدم تمسكنا بالشريعة الاسلامية ، وان فى تطبيقها الحل الكامل لكل مشاكلنا ، فاذا ناقشتهم فى هذه المقولة وجدت ان الجزء الذى يركزون عليه من تطبيق الشريعة هو اقامة الحدود على السارق والزانى وشارب الخمر ، وكاننا اذا قطعنا بضع أياد كما فعل نميرى ، واذا رجمنا فتاة ليل ، ووضعنا السم فى الخمر ، وحرقنا محلات الفيديو والسينمات والمسارح ، انحلت جميع مشاكلنا وعاش مجتمعنا مؤمنا سعيدا ترفرف عليه آيات الحب والود والوئام .

ثم رأينا الحكم الذى يتحكم باسم الاسلام يعتبر ان المعارضة للولاة ولحكمهم هى أس البلاء وأن الخلاص من المعارضين بالشنق واطلاق النار هو الحل ، وان شن حرب ضروس يموت فيها الشباب بمئات الآلاف من الجانبين هو الطريق الى الجنة ..

بمعنى أخر طرحت في الساحـــة كثرة من الدعـــوات الاسلامية أو على وجه أدق كثرة من الدعوات التى يزعم كل منها انه هو وحده الاسلام وما دونه باطل وزيف ·

واذا كانت كل تلك الدعوات تشترك في شيء واحـد ، فهى تشترك فى النظرة الاحاديـة الضـيقة تمامـا للاسلام العظيم ·

★★★

وأنا أسمع وأرى وأقرأ هذا كله كانت تحضرنى حقيقة لا أستطيع لها دفعا · كنت أقول لنفسى لا يمكن أن يكون هذا هو الاسلام العظيم ، فهو أكبر وأعظم وأجل من أن يتشفى فى سارق أو مخطىء ، وأعظم من أن تكون أداتـه هى القمـع والعقاب ، وأشمل من أن تكون رسالته هى فقـط تطبيـق الحدود ، وأوسع بكثير جدا من أن يضيقوه الى هذه الدرجة التى تحيله الى دين متعصبين لا يرون أو يسمعون الا رأيهـم وحدهم ، والا كان كتابا كتب في حينه،ليرد على قضايا كانت مطروحة فى حينها ، ليس صالحا أبدا ــ وكأنه أستغفر الله قرآن ــ للتطبيق فى كل زمان ومكان ·

وتصادف وأنا فى هذه الحيرة أن وقع فى يدى هذا الكتاب لجارودى · ورحت على مهل أتأمل كيف تسرب الايمان بالاسلام الشامل الى قلب وعقل ذلك المفكر الغربى الذى بدأ كاثوليكيا متطرفا الى أن أسلم ، ولم يسلم فقط ، ولكنه برؤيته للاسلام يقدم لنا اسلاما وكأننا نراه لأول مرة ، فى كل أبعاده وبكل أبعاده اسلام التحضر والوحدة والسمو ، الاسلام العام المدرك الشامل ·

وأعجبتنى تلك الرؤيا تماما حتى آليت على نفسى أن أنقل معظمها للقراء ·

أقول معظمها لانني لست مع جارودى فى كـل ما ذهب اليه وبالذات عن الحكم الاسلامى • فجارودى قد كتب هـذا الكتاب وغيره بعد أن كفر تماما بالغرب المسيحى وحضارته التى يقول عنها انها حضارة خطيرة مدمـرة • كفـر حتى بالديمقراطية الغربية باعتبارها طريقة خادعة لتمثيل ارادة الجماعة البشرية •

وقد يكون لجارودى عذره فى الكفر بالحضارة الغربيـة بعد أن شبعت تقدما وترفا • ولكن رأيى أن جارودى تعسف الحكم ، وتعسف حتى فى كفره ، فالحضارة الغربية التى يقول عنها هو نفسه انها أخذت جذورها من المسيحيـة واليهوديـة والرومانية والأفريقيـة وانه آن الآوان لتضيف لجذورهـا الحضارة ليست سوءا كلها ، فما فيها من تقدم علمى هو تراث بشرى عام لا يخص حضارة بعينها ، بناه الجنس البشرى كله كما يذكر فى كتابه ، وان يكفر هو بها أمر مقبول ، أما أن يدعونا معه للكفر بها فى دعوة تحمل فى طياتها دعوة خطيرة لتخلفنا العلمى والفكرى •

وليس هذا هو فقط ما آخذه على جارودى ، ولكنى آخذ أيضا حديثه عن الاسلام • فهو يتحدث عن الاسلام ككتلة أو بمعنى أدق كدوجما كما يقولون فى الغرب ، والاسلام ليس كتلة وليس دوجما ، انه أولا وأساسا رسالة محمدية سماوية عظمى ، تحققت بالدولة الاسلامية فى مراحلها الأولى فقط ، وانتكست فى مراحل كثيرة من سيرها طوال أربعة عشر قرنا • ولا شىء أسوأ من تطبيق دعوة منتكسة متخلفـة أو كما زعم نميرى ويزعم غيره ، اذ على خريطة الساحة التى تزعم أنها تطبق الحكم الاسلامى اليوم لا أكاد أجـد نظيرا للاسلام فى نقائه الأول ولا يزال الشوط طـويلا للوصـول الى مجتمع اسلامى متحضر حديث •

الغرب ليس دوجما والاسلام أيضا ليس دوجما ، وواجب المسلمين اليوم هو أن يفرزوا الحضارة الغربية ليختاروا منها ما هو ضرورى لوجودهم في عالم اليوم ، ويمحصوا تاريخ الحكم والوجود الاسلامى ليتفادوا كل نكساته ويستخلصوا كل عبراته ·

ولكن ما أعجبنى حقا فى كتاب جارودى هو تلك (الرؤية) للاسلام وفلسفته وامتداداتها الى كل كبيرة وصغيرة من شؤون الحياة وطقوس العبادات · انظر اليه مثلا وهو يقول : لقد فقد الانسان الغربى كل وحدة فى علاقاته بالطبيعة والمجتمع والله · انفصل عن الطبيعة التى أعتقد انه سيدها ومالكها ، حيث اعتبرها انطلاقا من هذا الاعتقاد انها ملكه باعتبارها مخزنا للمواد الأولية ومستودعا للخامات · ولهذا راح يعاملها بلا خجل ولا احتشام بواسطة تكنولوجيات منحته القدرة على تدمير الأرض وأولئك الذين يسكنونها · لم يعد للطبيعة فى حد ذاتها (مغزى) بالنسبة اليه · ولم تساعد المسيحية الكاثوليكية الانسان ، بخوفها الأول من الطبيعة ، ثم بعد هذا حين اشتملت على الثنائية اليونانية وتراجعت عن مفهومها الأول تراجعات متتالية منذ عصر النهضة أمام علمية تدعى الاجابة على جميع مشاكل الحياة ، تراجعات منحتها من الاحتفاظ بهذا البعد الكونى للانسان ·

لقد حكم على الانسان فى مجتمعاتنا الغربية بفردية متفاقمة أدت به الى الوحدة والانعزال عن الآخرين · وباتساع منافسات اقتصاد (السوق) والوحشية سحقت المعدمين بواسطة خربى الذمة وتكنولوجيات استثمارات أحط الرغبات التى تجد لنفسها متنفسا فى الدعاية والتسويق · هذا النظام يولد بالضرورة العنف ولا سيما لدى الشباب المحروم من

الأشياء التى يلقنونه الرغبة فى امتلاكها وفى نفس الوقت لا يجد فى يده القدرة على امتلاكها ٠

هكذا نرى أن كتاب جارودى هذا ليس سوى قصيدة سباب وثورة على المجتمع الغربى الذى ينتمى اليه ٠ حتى حقوق الانسان لم تسلم من ثورته اذ يقول جارودى :

ــ ان اعلان حقوق الانسان والمواطن يؤكد على أن (حريتى تقف حيث تبدأ حرية الآخرين) فحرية الانسان الآخر اذن حد فاصل وليست شرطا لحريتى الخاصة ٠ ان الحرية على هذا النحو حالة خاصة من (الملكية) ، « مسجلة » و « مطوية » ومحفوظة ٠ ولا بد لمثل هذه الفردية فى تملك الحرية من أن تعده لحرب الجميع ضد الجميع ، الى أن تأتى اللحظة التى تتحول فيها بحكم منطقها الخاص الى عكسها تماما أى الى الشمولية حيث يبرز دور فرد تتجسد فيه مجموعة منتصرة ويصير رمزا لها ويحول كل الآخرين الى خدم للدولة أو للحزب أو للطبقة ٠ ان مجتمعاتنا الغربية (وتلك المجتمعات التى نشأت على منوالها فى العالم الثالث) لا تنفك تتذبذب منذ أربعة قرون بين فردانية الغاب وشمولية النمل ٠

فى حين أن الاسلام ، اذ يرفض الثنائيات والثلاثيات والتعدد فى السياسة والعقيدة ، يربط بصورة لا انفصام فيها بين المجتمع ككل وبين التسامى ويبشر بكل ما هو الهى أو على وجه أصح بنمط من الحكم والسلوك يجعل كل سلطة وكل ملكية وكل معرفة مسألة نسبية بالقياس الى القاعدة الأساسية التى تتجاوزها وتسمو عليها ٠ فالانسان يعيش فى عالم يملك القدرة ليس على تغييره فقط وانما أيضا على التسامى به ٠



أعود فأقول لقد حاولت أن أقدم كتاب جارودى لأنه أعجبنى ، بل الحق انه بهرنى فى كثير من أجزائه وجزئياته • مع أن وصول جارودى اليها لم يكن سهلا • فوصول مفكر غربى عبر بكل التجارب الغربية فى الفلسفة والاعتقاد الى الاعتراف بديننا الاسلامى الحنيف وسموه ليس أمرا سهلا ، وأصعب منه فى رأيى أن يصل مسلم اليوم وسط هذه الغابة الهائلة من الدعاوى المحدودة الأفق لفهم الاسلام ، الى حقيقة الاسلام نفسه • وربما حينذاك نكون فى حاجة الى رؤيــة محايدة ، وشاهد من أهلهم لندرك حقيقة رسالتنا • وليس هذا عيبنا على أية حال انما هو عيب من يستخرجون من بطون الكتب الصفراء أقوالا لا تقنع انسان هذا العصر ولا تتلاءم مع طريقة تفكيره وأحاسيسه ، اذ بهذه الطريقة يتصور أنه لكى يكون مسلما جيدا عليه أن يكون أو بالاصح متخلفا جيدا أما أن يكون مسلما متقدما واعيا مدركا متعلما مثقفا مبتكرا خلاقا فتلك جريمة كبرى فى نظر أصحاب الكتب الصفراء •

ولكى تدركوا وجهة نظرى ، خــــذوا مثلا رأى هــذا الفيلسوف فى (الملكية) فى الاسلام •

يقول : جاء فى القرآن الكريم : « لله ما فى السموات وما فى الأرض » (سورة البقرة الآية ٢٨٤) •

ومن هذا يتضح انطلاقا من مجتمع المدينة الذى أسسه النبى (صلى الله عليه وسلم) أن التصور للملكية يقودنا الى نقيض للتصور الغربى الرومانى الأصل للملكية • ففى الحق الرومانى تعتبر الملكية هى (حق الاستعمال والاسراف وأحيانا حتى حق سوء الاستعمال) • وهــــذا المبدأ الرئيسى يشكل الأساس فى قانون نابليون وكل النظام الاقتصادى الرأسمالى • انه يهب المالك حقا (الهيا) حقيقيا فهو يستطيع أن يدمــر

دون أن يعاقب ما يملكه حتى ولو كان بتصرفه هذا يحرم المجتمع من ثروات لا غنى عنها لحياته ٠

والتصور الاسلامى يعارض بشدة هذا النظام ، فالملكية فى الاسلام ، نسبية ، بنسبيتها الى السمو والرجوع الى الله ، وهى أبدا ليست حقا من حقوق الفرد أو الدولة وانما هى وظيفة اجتماعية وعلى المالك ، أيا كان فردا أو جماعة أو حتى دولة تقديم حساب عن ملكيته فهو المدير المسؤول عنها ٠

والسرقة فى الاسلام ليست فى أن يأخذ المرء ما هو بحاجة اليه بل ما لا يكون فى حاجة اليه ٠ والقرآن الكريم لا ينفك يظهر الكراهية بل يلعن الذى يكنز الأموال كقوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده ، يحسب ان ماله أخلده » ٠٠ وقوله : « وأما من بخل واستغنى » ، وقوله : « وجمع فأوعى » ، وقوله : « ويحبون المال حبا جما » ٠٠

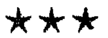
الا أن الاسلام يعترف أيضا بحق الملكية الشخصية المكتسبة بالعمل أو بالارث أو بالهبة ٠ ولكن العمل يلعب دورا رئيسيا فى الملكية وثمة حديث نبوى يقول : ٠٠ « مالك الأرض هو من وضع فيها عمله » ٠ وفى كتابه : دراسة فى الاقتصاد السياسى يقول (شارل جيد) : ان التشريع الاسلامى لا يقر ملكية فردية للأرض الا لمن يكدح فيها ٠ ورغم هذا فان مبدأ المتصوفين الاسلاميين الأساسى أنهم : لا يملكون شيئا ولا شىء يملكهم ٠٠٠ ذلك الذى ذكره أبو الحسن الندوى ٠



واذا اعتبرنا كتاب جارودى هذا ثورة مفكر غربى على مجتمعه الغربى ، ومحاولة لوى عنقه ليرى اسلامنا على حقيقته ، فما أشد حاجتنا نحن الى مفكر اسلامى جديد وحديث ، يثور لنا وباسمنا على كافة تلك المسميات التى ملأت الساحة باسم الانسان ويقدم لنا رؤية يقبلها عقل الانسان منا وقلبه دون أن يجبر نفسه على التخلف فكريا وحضاريا ونفسيا ليقبلها .

أجل ، لقد بدأ الاسلام غريبا ، وأصبح اليوم فى عالمنا الاسلامى الشاسع المترامى أكثر غربة بتلك الدعاوى الشديدة الضيق التى يحاول كل منها أن يمسك بخناق الاسلام الحنيف ويبتره ويجتزئه ويحصره داخل نطاق ضيق شديد الضيق ، ويفرض على الجميع ، بالميكروفونات أحيانا ، وبالهراوات والكرابيج فى أحيان اخرى وبالمشانق والرصاص ، ياللهول ، باسم أعظم دعوة يتلقاها البشر وكان مفروضا أن ينزلها الدعاة والداعون على قلوبهم بردا وسلاما .

يا الهى ... ارحمنا من بعض دعاة الاسلام ، أما أعداء الاسلام فنحن كفيلون بهم .



اسلام نعم .. ولكن !

اشتد قيظ القاهرة منذرا بعيد فطر حار ، ملتهب الحرارة ، قررت قضاء العيد فى الاسكندرية . بلغت الحرارة درجة أننا قطعنا المسافة فى السيارة بالطريق الصحراوى فى خمس ساعات بدلا من ساعتين ونصف أو ثلاث . كانت جوانب الطريق حافلة بالسيارات المعطلة التى تبخر ماؤها أو فرقعت عجلاتها ، والناس فى زحف مزدحم رهيب تجاه الشواطىء لالتقاط نسمة بحر أو فيضة ريح .

كانت شقتنا فى الاسكندرية فى حالة يرثى لها بعد عام كامل لم نزرها فيه وقضينا ليلة عيد مغبسرة معفرة بتراب عمره عام . ولن أستطيع أن أحدثكم عن الجهود المضنية للعثور على من ينظفون الشقة أو يصلحون ما أفسده الشتاء من المواسير والحنفيات فأنا أريد الدخول فى الموضوع مباشرة .والموضوع كان هو الشاب السباك الذى عثرنا عليه أخيرا لاصلاح ما تلف . كان شابا هادئا ليست عليه سيماء (الاسطوات) القدامى ، كان (أسطى) بلديا ، انهمك فى العمل فورا ولاحظت انه ما ان يبدأ حركة من حركات العمل الا ويسمى ويتبرك .

ولم أكن فى حاجة الى ذكاء كثير لأدرك انه اما من الجماعات الاسلامية التى تحفل بها مدينة الاسكندرية بالذات واما من الاخوان المسلمين • وفيما أنا محتار فى أمره وجدته فجأة يسألنى :

ـ يا أستاذ يوسف •• ماذا كنت تقصد بكتابك فقر الفكر وفكر الفقر ؟ والحقيقة انه أخذنى على غرة ، فلم أكن أعتقد انه قد عرفنى من أول وهلة ، وحتى لو كان ـ شكرا للتليفزيون ـ قد عرف شكلى فلم أكن أعتقد ان صنايعيا مثله قد سمع عن كتابى فقر الفكر وفكر الفقر ••• ربما قد عرف بعض قراء الرأى العام بالضجة التى حدثت حول الكتاب حين نشر صحفى من صحفيى الجماعات الاسلامية خبرا فى جريدة الاخبار حول جملة وصف بها فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى باعتبار انه يلجأ الى المبالغة والتمثيل فى أدائه لدروس وعظه وانه ينوم مستمعيه ومشاهديه بطريقة راسبوتينية •

وقامت الدنيا ولم تقعد !

وأنا لى عادة لم أستطع أن أغيرها أبدا •

فأنا لا أقدر على مراجعة (بروفات) كتبى قبل الطبع ، ولهذا أشترط على الناشر أن يكون هو المسؤول عن مراجعة الكتاب على الأصل المصحح سلفا •

وعدت الى الكتاب فوجدت هذه العبارات مذكورة فعلا ومنسوبة الى الشيخ متولى الشعراوى • وحين عدت الى أصول المقالة المذكورة ، والكتاب كان مجموعة مقالات نشرت بالأهرام كلها ، لم أجد فيها تلك العبارات • اذن هو خطأ أو عبث مطبعى لا حيلة لى فيه والكتاب قد أصبح فى السوق وبين أيدى القراء •

ونشرت اعتذارا عن هذا الخطأ المطبعى ، اذ أن الكاتب مسؤول عن كل كلمة فى كتابه حتى لو كان الخطأ فى ايرادها ليس خطأه ٠

وحاول نفر كثير من المهيجين باسم الدين النفخ فى النار واثارة الرأى العام فى مصر وكل بلاد المسلمين ضدى ، وكانت مشكلة كبرى ٠

هذه الاخطاء والفلتات المطبعية خطأ كبير ما في ذلك شك ٠ فحتى لو كان لى بعض الانتقادات الشخصية على الطريقة التى يؤدى بها الشيخ متولى الشعراوى دروسه فان احترامى الكبير للرجل ومراعاتى لشعور مريديه كانا بالقطع يمنعانى من ذكر كلمة نقد واحدة لشخصه ٠ فالمقال فى الحقيقة وان كان موجها اليه ، الا أنه كان يرد (فكريا) على فضيلة الشيخ ، وكان الرد مؤدبا تماما ، ومشبعا بروح الاحترام والتبجيل رغم أنه كان ردا على فضيلة الشيخ لاتهامنا أنا والأستاذين الكبيرين توفيق الحكيم وزكى نجيب محمود بالكفر والاضلال والتضليل ، هكذا ببساطة شديدة أدخلنا فضيلة الشيخ جهنم الكبرى وأحل سفك دمائنا ٠ والسبب ؟!! السبب كما رأى فضيلته هو أننا ندعو لاعمال الفكر للارتقاء بالامة الاسلامية والتسليم بأن الله سبحانه وتعالى منحنا تلك العقول الباهرة لنستخدمها فى تعليم أنفسنا وتحصيل أكبر قدر من العلوم والمعارف غربية وشرقية وجنوبية وشمالية ، واستخدام حصيلة هذا كله فى خلق (تفكير) اسلامى نشط ، يعيد العقل الاسلامى لمكانته ونقف به نتحدى الغزو الغربى الثقافى والتكنولوجى والعسكرى والاقتصادى والسياسى ٠ وكان كل ما ذكرته حول طريقة فضيلة الشيخ متولى الشعراوى فى اعادة شرح القرآن الكريم

من وجهة نظره انه يشرحه كعالم لغة يركز على الجمل والتقديمات والتأخيرات والاعجاز البلاغى فى القرآن الكريم • وهذا فى حد ذاته شىء جميل ورائع ، ولكن أن يقتصر اعجاز القرآن وعظمة الاسلام على معجزة اللغة القرآنية ليس هو كل الاسلام كما أراه ونراه ويراه صاحب كل رأى وبصيرة • فالاسلام رسالة سماوية شاملة ، هبط بها الوحى على نبينا صلى الله عليه وسلم لينشر به (دعوة) اسلامية كبرى تنقذ العرب والبشرية جمعاء من أوضاع وثنية مزرية وتحارب الكفار وتنشىء انسانا مسلما صالحا عطوفا رصينا صادقا شجاعا نبيلا بارا بالناس داعيا الى الحكمة مرتقيا بجيرانه وعشيرته خادما لمصالحهم راعيا لشؤونهم ومضحيا فى سبيلهم ومسؤولا عنهم ، وقبل هذا كله ، انسانا مؤمنا بالله واحد أحد ، لا شريك له ، الخلاق العظيم رحمن رحيم •

اذن كان المقال ايرادا لوجهة نظرى ووجهة نظر كثيرين فى أن الاسلام الحنيف ليس دين طقوس ، وان كانت الطقوس هى مكوناته الخارجية ، انما رسالته الحقيقية رسالة روحية عظمى هدفها بعث المسلم بعثا جديدا والانتقال بالجماعة الاسلامية من الجاهلية الى عصور النور والايمان والعلم والتحضر •

ولكن تربص بعض المتطرفين ممن يعتنقون التطرف فى الدعوة الاسلامية عن مرض وليس صحة أبدا ، بحيث بهذا التطرف يخلعون عن الاسلام كل مكوناته العظمى ويركزون جهودهم على كيف يرتدى المسلم ثيابه وكيف أن كل شىء فى المرأة خطيئة حتى ليبشروا بأن ترتدى النقاب من قمة الرأس الى أخمص القدم ، بل حتى وراء فتحات العيون ترتدى نظارة سوداء ، وقفازات سوداء أيضا حتى لو كانت طبيبة وكأن

الاسلام جاء ليئد المرأة فى ثيابها حية بعدما كانوا يئدونها فى الجاهلية ميتة ، فهذا انحراف خطير فى الدعوة الاسلامية ، ليس انحرافا فقط بل انى لاعتبره خيانة لديننا الحنيف ، فاذا لخصنا الاسلام فى تلك الشكليات ودعونا الى نبذ العلم واعمال العقل والعودة الى الحياة كما كانت عند نزول القرآن، فتلك دعوة لكى ينتصر علينا أعداؤنا ويسحقونا سحقا ، ما دمنا قد نزعنا عن أنفسنا كل أسلحة العصر .. واستسلمنا للبدائية والسطحية بينما هم ماضون فى تقدمهم وانتصاراتهم بالتالى علينا ، عسكريا وعلميا وثقافيا وحتى تحضرا .

مع أن الغرب قد أخذ كل علومه عن عرب أسبانيا المسلمين ، والمسلمون هم الذين ترجموا كل التراث اللاتينى والأغريقى العالمى وعنهم أخذت أوروبا هذا التراث ، حتى كتاب الشعر لأفلاطون كانوا أول من ترجموه ودرسوه . بل انهم ــ هؤلاء المسلمين ــ هم أول من اخترع علم الجبر وطور علم حساب المثلثات وانشأ علوم الفلك ، وانطلقت قوافل بناته تغزو كل أرجاء المعمورة من الصين شرقا الى أقصى الغرب فى شبه جزيرة ايبيريا (أسبانيا والبرتغال الآن) غربا .

وأيضا ليس هذا هو الموضوع .

فالموضوع أكبر بكثير وأخطر بكثير من هذا .

فالعالم العربى والاسلامى كله أصبحت مشكلته الأهم هى هذه المشكلة .

الاسلام .

تصوروا .. مشكلتنا كمسلمين أصبحت هى اسلامنا وكيف يكون ؟ وكأننا نلغى أربعة عشر قرنا من هبوط الرسالة الى يومنا هذا ونبدأ اسلامنا من جديد .

وهكذا جاء كتابى (فقر الفكر وفكر الفقر) ردا على هذه الدعاوى الارتدادية السلفية المطالبة بالغاء العقل والفكر والعودة الى البداوة الأولى باعتبار أن هذا هو ما يريده الاسلام ، وما أراده الله سبحانه وتعالى فى تنزيل رسالته على نبينا الكريم ٠

★★★

أعود الى الفتى (السباك) والنقاش الذى دار بينى وبينه ٠ ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى يدور فيها هذا النقاش ، فالحقيقة اننى حتى وأنا أعتمر منذ حوالى الشهرين وأطوف بالكعبة وأزور قبر الرسول ، كنت ما أكاد ألتقى بأحد المصريين العاملين فى السعودية حتى يبادر بسؤالى : هل صحيح أنك قلت عن الشيخ الشعراوى انه راسبوتين ؟

وهكذا تحولت القضية الأساسية الى مشكلة فرعية لا أساس لها ولا معنى ٠ فأنا كنت أحاول فى تلك السلسلة من المقالات أن أذود عن العقل المسلم العدوان الغاشم الذى يبشر به بعض المتطرفين من الغاء لذلك العقل ٠

ولكن يبدو أننا فى فترة غريبة على حياة المسلمين ٠

وليست تلك أول مرة ينتكس فيها الاسلام والمسلمون ٠

فحين تشرذمت الجذوات الاسلامية فى العصور الوسيطة ، وتفرقت الى جذوات اخشيدية وأيوبية وفاطمية ومملوكية هجم الغرب علينا على هيئة حروب صليبية ضارية كان الهدف منها اخضاع المسلمين الشرقيين للكنيسة البابوية فى روما ، وابادة هذا الدين الحنيف ٠ ولكن هذه الهجمة الشرسة استنفرت فى المسلمين العرب كل ما استطاعوا تجميعه من

قوة ، وتشابكت الجذوات فى نار عنيفة أحرقت خطط ريكاردوس قلب الأسد وفيليب وكل الصليبيين وارتدوا مدحورين على أعقابهم وبقيت القدس بلدا عربيا مكنونة فيه الحرية لكل الأديان والعبادات ٠

أما هذه المرة وبعد أن تحرر العرب المسلمون من الاستعمار القديم جاءتنا الهجمة الشرسة الجديدة رأس رمحها اسرائيل وترسانتها الضارية أميركا ٠ بكل التوحش والهمجية وبأحدث ما وصلت اليه آلات الدمار ٠

وفى الخمسينيات والستينيات جمعنا أنفسنا ، والى حد ما صمدنا ، وفى السبعينيات كدنا ننتصر فى حرب ٧٣ لولا أن العدو استعمل كل ذكائه ، وجند له أعوانا من بيننا وأوقعوا الفرقة بين الشيعة والسنة ، بين الفلسطينيين واللبنانيين ، وسحبوا سورية الى البقاع لتنغرز فى وحل معركة تتأجج لها حرب الطوائف فى لبنان ٠

باختصار ــ قوميا ــ مزقونا تمزيقا ٠

واقتصاديا ــ ذبحونا ذبحا بتروليا لكى ننزف اقتصاديا الى حد الزحف على البطون ٠

وكل هذا كان ممكنا أن نجد له حلولا ٠ وان نفيق من هول الصدمات الضارية المتعاقبة ٠

وان نعود نعى وننتبه ونلتئم ٠

ولكن السلاح الذرى الذى استعملوه ضدنا ، السلاح المبيد ، كانوا يدخرونه طول الوقت للقضاء علينا نهائيا ٠

وتشاء المضحكات أن يكون هذا السلاح هو نفسه أقوى أسلحتنا ، أو كان مفروضا أن يكون أقوى أسلحتنا فى مواجهة هؤلاء الصليبيين الجدد ٠

الاسلام الحنيف ٠

أجل ٠ اخترقوا اسلامنا الحنيف ، اختراقا ذكيا مبتكرا ٠

واخترقوه بعدة وسائل ٠

أولها الطائفية الاسلامية ٠

وقد استعملوها فى ايقاد نيران الحرب بين الحكم الشيعى (المسلم) فى ايران والحكم السنى (المسلم) فى العراق ٠ ودارت ولا تزال تدور حرب طاحنة مهولة ، افجع حرب قامت بين طائفتين أو دولتين ، اسلاميتين فى كل تاريخنا بقديمه وحديثه ٠

وحين نجحت التجربة نجاحا منقطع النظير ، الى الحد الذى تتعاون فيه اسرائيل تسليحيا مع ايران ضد العراق ، مع أن ايران تذكر أنها انما تحارب لتحرر القدس عن طريق اكتساح العراق (الكافرة) ٠٠

حين نجحوا ذلك النجاح المنقطع النظير فى العراق ، وجربوا الطريقة فى لبنان فتمزقت لبنان اربا اربا ٠ وبربكم هذه الحرب الدائرة بين أمل الشيعية المسلمة وبين الفلسطينيين اللاجئين المسلمين ، ما معناها ٠ هل أمر بها أى دين بل دين الاسلام الحنيف مهما كانت طوائفه وطرقه ومدارسه ومذاهبه؟ هل أمر بها أى كتاب أو امام ؟ اذن لا يبقى الا معنى واحد لقيامها، هو تسلل العدو الى الصفوف الاسلامية واثارة الطائفة ضد الأخرى وقد ثبت فى كتب كاتب اسرائيلى منشق ان اسرائيل كانت تغذى المارونيين بالاسلحة ثم تعود اذا قوى المارونيون فتغذى الشيعة أو الدروز ، المهم أن يظل القتال قائما ومشتعلا ، وأيضا بلا سبب ليزداد تقتيل المسلمين بعضهم لبعض ، ويتولون هم بأنفسهم القضاء على أنفسهم ٠ ولكن

الطائفية لم تكن السلاح الوحيد لضرب المسلمين باسم الاسلام ٠

هنا فى مصر أكبر تجمع سكنى اسلامى وعربى فى الشرق بدأت موجة حادة لافحة من التعصب والتطرف الاسلامى الذى يدعو لمحاربة حتى أقباط مصر ووصفهم بأنهم كفرة ٠

واذا عرفنا أن هذا التيار بدأ فى عصر وبتشجيع من السادات وذلك يخدم موضوعيا الاعداء الذين وضعوا هدفهم فصل مصر عن عالمها العربى أولا ثم الاجهاز عليها من الداخل أيضا ، وبنفس السلاح ، اسلامنا الحنيف ٠

من هنا بدأنا نلحظ فى مصر وكأنه نوع من اسلام جديد ينشأ ، اسلام لم نعرفه أو نعهده من قبل ، حملة ضارية من الدعاة تستولى على عقول الشباب وتجرهم وراءها الى فهم أضيق أنواع الفهم للرسالة المحمدية الكبرى ، حتى تنشأ فى مصر ، الفتنة الجهنمية واما أن تتحول الى ايران أخرى تحارب جاراتها العربيات المسلمات واما أن تتحول الى لبنان أخرى يتناحر فيها المسلمون والاقباط فى حرب أهلية ضروس ٠

تلك هى الخطة الموضوعة لمصر ٠ قهرها باسلام مستورد لا علاقة بينه وبين ما درج عليه المسلمون فى مصر من عبادات ومذاهب فقد اختارت مصر الاسلامية المذهب الشافعى ـ أكثر المذاهب اعتدالا بين المذاهب الأربعة وأكثرها وسطية ـ باعتباره يناسب طبيعة المسلم المصرى وحقيقته ، ولكن هذا الاسلام (المستورد) الجديد قائم على التعصب الكامل ضد المسيحيين من ناحية ومن ناحية أخرى ضد كل ما له علاقة بالعمل أو المنطق أو العلم أو التقدم ٠

واستشرى هذا النوع المتطرف استشراء النار فى الهشيم فى بلد حدث فيه فراغ فكرى وعقائدى هـــائل أثناء عصر السادات بتحريم كل تعليمات ودعوات الاخوان المسلمين الذين أعتقد بل وأطالب بان يكون لهم رأيهم وتنظيماتهم وجرائدهم العلنية فلقد عاشرتهم حرا فى الحركة الوطنية قبـل الثورة وسجينا معهم فى أوائل حكم عبد الناصر عقب حادث المنشية وأشهد انهم كانوا من أكثر من رأيت فى حياتى ايمانا وصدقا مع النفس ومع الدين • كانوا ولا يزالون فعـــلا اخـوانا مسلمين •

أما تلك التنظيمات الارهابية التى أوجدهـــا وشجعهـا السادات والآن استشرت الى درجة أخذت تطعن فيها حتى فى صدق اسلامية الاخوان المسلمين ، فهى الشىء المحقون داخـل المجتمع المصرى ، والتى لم تكتف بتجنيد الشباب وعمل غسيل مخ أو تضييق مخ لهم ، وانمـــا أصبح لهم الآن مؤسســات اقتصادية وبنوك وشركات وهدفها الاستيلاء عـلى الحـــكم بالثورة ، وبالقوة الغاشمة اخضاع كافة المصريين **لمفهوماتهـا** ولو سرى الدم أنهارا وأنهارا •

كان (السباك) فعلا مثالا للشباب المسلم •

فلقد ناقشته لبضع ساعات من نهار ثانى أيـام العيد ، فلاحظت حرصه الشديد فى العمل وأمانته التامة فى المحاسبة وشراء الأدوات ، وأدبه الجم فى التعامل مع زملائه ومعنا • حبذا لو أصبح كل الشبان المصريين على شاكلته •

حتى لو حكمنى هذا الشاب فقد اطمـأننت الى الحـديث والحوار مع كثير من أمثاله أن حكمهم سيكون عادلا ، لا تطرف فيه ولا تكفير ، ولا اهدار دماء ولا اذكاء حقد •

وما دام الأمر قد وصل الى هذا الحد ·

وما دامت الحرب قائمة على قدم وساق بين دولتين اسلاميتين · وبين عدة طوائف اسلامية متناحرة وكأن بينها وبين بعضها حقدا وكرها عمره مئات السنين ·

وما دامت عملية الحقن مستمرة بهدف خلق تنظيمات اسلامية متعصبة في مصر تقضى على كل أخضر ويابس فيها ·

وما دامت هذه كلها أمورا لا يمكن أن تحلها كلها دولة اسلامية وحدها ، أو حتى عدة دول فما بالك بكاتب أو مثقف أو بضع كتاب ·

ما دام هذا كله حادثا ، فانى أطالب بعقد مؤتمر فكرى **اسلامى حر حتى لو انعقد المؤتمر فى بلد أوربى أو** مسيحى ، يناقش كل هذه المفهومات للاسلام ، ولتطبيق الشريعة ، وكل تلك الخلافات والتقاتل بين الطوائف الاسلامية ···

فهذا هو أبسط ما يمليه علينا أى عقل أو تعقل ·

اذ لو جمعنا مؤتمر كهذا لا نكشف فيه الموسوسون ·

وظهرت على السطح كل أنواع الانحرافات والتعصبات ·

حينذاك فقط نستطيع ان نضع أيدينا على الداء ، وان نجد له الدواء ·

فالمستحيل هو أن نترك الأمور تجرى فى اعنتها وننام مستريحين الى أن كل شىء سيصير الى ما يرام ·

فكل شىء يصير من سىء الى أسوأ ·

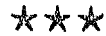
ولا خلاف يحل نفسه بنفسه ·

ولن يحل القتال والتذبيح أى خلاف ·

رحمتك اللهم بمسلميك ···

فنحن ظمأى الى تطبيق شريعتك وقوانينك بنفس الروح التى أمليت على نبيك صلوات الله عليه وسلامه ، وليس أبدا كما هو حادث الآن ، بتحويل دينك الحنيف الى دين تقتيل وعراك وتعصب أعمى لا يرى الشمس فى عز النهار ·

حتى لو كانت شمس ملء الكون تتلظى الأرض بنورها ، ونارها · مثل شمس ذلك اليوم الثانى من أيام عيد الفطر المبارك · اعاده الله علينا ونحن قد أبنا الى سلام ، ليس الى سلام بيننا وبين اعدائنا المتوحشين معاذ الله ، ولكن ، ياالهى، سلام بيننا وبين أنفسنا · انك سميع مجيب الدعوات يا رب العالمين ·



هل الاسلام ضد القومية

أعتذر للقراء أنى مضطر ـ استكمالا للموضـوع ـ أن أضمن هذا الكتاب ، وفى هذا المكان بالذات ، ذلك الموضوع ، موضوع استعمال الاسلام ضد القومية العربية ، فى حين ان هذا الموضوع كان قد نشر فى كتاب (انطباعات مستفزة) الذى صدر عن هذه السلسلة ، والاعتذار هنا بسبب تكـرار النشر ، ولكن ما يغفر لى أن المقال مهم جدا أن تتضمنه هذه السلسلة من المقالات حتى يتكامل الموضوع ٠

لى نظرية خاصة أعتقد أن كثيرين غيرى يشاركوننى اياها نظرية خاصة بتلك الظاهرة التى أصبحت الهم الشاغل لرجال الدين عندنا ، وللوعاظ وللعلماء ، ومنهم تسربت الى جماهير الشعب العربى ٠

ظاهرة الخوف المفاجىء على الاسـلام من أهلـه ومن المسلمين ، والدعوة الحارة الزاعقة للعـودة الى الاسـلام الصحيح ، والى ما كان عليه المسلمون حكاما ورعية فى الصدر الأول للاسلام ، وكأنما ما عندنا مسلمون ، وكأننا كفرنا من زمن ، وكأنما الحل الوحيد والأوحد لكل مشاكلنا النفسيـة

والاجتماعية والاقتصادية والسياسية هى فى التطبيق الفورى للشريعة الاسلامية ، أو بالأصح لقانون الجنايات الاسلامى واخفاء المرأة داخل البيوت باعتبارها جهازا شيطانيا لاغواء الرجل وفتنته والهائه عن دينه ودنياه ٠

أقول ظاهرة الخوف المفاجىء لأننا فى مصر مثلا ، وأعتقد ان الأمر كان ولا يزال كذلك فى كل البلاد العربية والاسلامية ، كنا مسلمين ولا نزال مسلمين ، ولا يزال الفلاح المصرى الأمى يعرف ربه حق المعرفة ، ويؤدى الصلاة فى مواعيدها ، ولا يفوته فرض ولا سنة ولا يفطر لأى سبب ، حتى لو كان مريضا ، يوما واحدا فى رمضان ، واذا توفرت له بعض النقود كان يحج أو يعتمر ، وكان كثيرون يفضلون الحج بطريق البر وتناسى متاعب السفر ، ليزداد الثواب ، جدى شخصيا ، ذهب الى الحج من بلدتنا فى الشرقية سائرا على قدميه ليحج ٠ كنا مسلمين بالفطرة والسليقة والطبيعة السمحاء الدمثة ، نعيش فى بحبوحة من الاحساس القديم بالرغبة فى ارضاء المولى وطلب مغفرته ان اقترفنا خطايا وتجنب عصيانه ٠٠

الى أن بدأت أثناء الاحتلال البريطانى لمصر دعوة الاخوان المسلمين والتى تولى الشيخ حسن البنا مهمة التبشير بها ، وطاف ريف مصر قرية قرية فى مساجدها وسمعته بنفسى وأنا طفل فى مسجد عائلتنا يدعو لانشاء فرع لجماعة الاخوان المسلمين ٠

والحقيقة أن دعوته لاقت كثيرا من النجاح ، وبالذات عند الشباب ، باعتبار أنها دعوة الى مزيد من الاغتراف من بحر الاسلام السمح العريق ، وامعانا فى التطهر والتبتل والتقرب من الله سبحانه ٠ وهكذا أصبحت من رواد ندوات ومحاضرات

الاخوان المسلمين ، ليس فى قريتنا فقط وانما فى كل المدن المصرية التى تنقلت اليها أثناء دراستى الثانوية ، مثلما رحت أيضا أحضر ندوات مصر الفتاة والحزب الوطنى والوفد • كنا جيلا يبحث ليس فقط عن مزيد من الاسلام والتمسك به وانما أيضا عن طريق للخلاص من الاحتلال الجاثم على صدورنا والقصر الذى أصبح يحكم حكما شبه دكتاتورى متجاهلا كل رغبات ومطالب الشعب الأساسية • وكان طبيعيا ان يشارك الاخوان المسلمون كتجمع شبابى رجالى ونسائى اسلامى ضخم فى الحركة الوطنية ، وحين أصبحنا فى الجامعة ، كنا جميعا نعمل معا اخوانا مسلمين ووفديين ويساريين ووطنيين عاديين ، فى تنسيق تام وبلا معارك ، ولكن ازدهار حركة الاخوان المسلمين والروابط القوية التى كانت قائمة بين أعضائها جعلت لهم من جبهة الكفاح الوطنى القدح المعلى ، والأقوى •

وحين قامت ثورة يوليو ، وبدأ الشعب يعارض حكم الجيش ، عارض الاخوان أيضا ، ولكن خوف جمال عبد الناصر من اشتداد بأسهم ، ناهيك عن ادراكه انهم أصبحوا يكونون – تحت الأرض – جناحا عسكريا قتاليا دفعه للتصدى لهم وتصفيتهم على النطاق الذى نعرفه جميعا • تصفية بوليسية ، أسوأ أنواع التصفيات اذ لم يقابلها حوار فكرى واسع ومناقشة يقوم بها العلماء والمثقفون • وهكذا قضى جمال عبد الناصر على الفئة المعتدلة من قادة وقاعدة الاخوان المسلمين ، وبقى يضمر العقيدة ذلك النفر العنيد منهم والذى دفعه فى النهاية الى عملية اعتقالات واسعة أخرى واعدام ستة من قادة الاخوان •

وأيضا لم يقض هذا على الحركة وانما تفرق الاخوان الذين هربوا ملتجئين الى الدول العربية والى غيرها من الدول ،

منظمين لا يزالون أو أشباه منظمين ، ينتظرون الفرصة وقد سقتهم التجربة الجديدة فاحالتهم صلبا ، وفى الداخل كانت حركة اسلامية راديكالية جديدة تنشأ ، تربت على أيدى الجيل الذى استقى التجربة من الجيل الأسبق داخل السجون ·

وبمجىء السادات الى الحكم ، ووقوفه من الناصريين واليساريين ذلك الموقف ، تمهيدا للالتحاق بالركب الاميركى رأى أن سنده الوحيد لن يكون سوى هؤلاء « المسلمين » من الخارج والداخل ، وتولى هو ، مع عثمان أحمد عثمان مستشاره ، أن « اليمين » الذى سيقف بالضرورة معهم ضد الالحاد والشيوعية والناصرية ، وفى هذا الجو الخافى فرخت التنظيمات السرية وازدهرت على أسس جديدة تماما ، فهى لم تعد جماعة سياسية كما كانت جماعة الاخوان المسلمين وانما أصبحت تنظيما استشاريا راديكاليا ، وبدأت تظهر أنيابه ومخالبه باغتيال الشيخ الذهبى على تلك الصورة الرهيبة ، تلك الصورة التى لم تزعج السادات كثيرا وظن انه لا يزال يستطيع ان يلعب لعبة استقطاب المسلمين فى جانب والاقباط فى جانب آخر ، ليسهل حكم الاثنين ، وواكب هذا تحول أجهزة الاعلام المصرية الى الدعوة الاسلامية المبهمة ــ المحطة المتصلة لاذاعة القرآن الكريم والأحاديث الدينية ، اطلاق باع الدعاة فى الاذاعة والتليفزيون ونور على نور ، لاحلال نوع من الدعاية الاسلامية لصنع غطاء يستطيع السادات ان يصطلح به مع اليهود ويسلم مصر ، ومن ثم العرب لاميركا وبالتالى لاسرائيل ·

هذا ما كان من أمر السرد التاريخى للنعرة المفاجئة التى خرجت الى الناس وبالذات بعد مظاهرات ٧٧ أو انتفاضة « الحرامية » كما سماها السادات ، تطالب بالحكم الشرعى

الاسلامى ، وجاءت ثورة الخمينى ، لتثبت للمطالبين انه بالامكان فعلا وعمليا قيام حكومة اسلامية يتولاها المشايخ والوعاظ وأمراء الجماعات الاسلامية السرية ..

ولكن لان له جانب آخر يتصل بأعدائنا ذلك الجانب الذى أشرنا اليه فى الأسبوعيات الماضية ، ذلك الجانب الذى يتعلق بقضية القومية العربية وفكرة الوحدة العربية والعروبة .

ففكرة القومية العربية التى استوحاها جمال عبد الناصر من الأفكار البعثية والتى تجسدت فيه زعيما لها وقائدا ومبشرا . هذه الفكرة كانت تزعج الاستعمار الجديد الذى حل بالمنطقة العربية بعد غروب الاستعمار القديم ، أو بالتحديد الاستعمار الاميركى والاسرائيلى . كانت تزعجه ازعاجا هائلا وعظيما . فهى تارة قائمة على الوحدة الكاملة للأرض العربية والمحافظة عليها ، فى نفس الوقت الذى كانت تلهب فيه عواطف الجماهير العربية المتعطشة للتكتل والاندماج . وليس أخطر على المصالح الاستعمارية فى المنطقة من شعب عربى مترامى الاطراف يبحث عن عقيدته ووحدته ويطالب بأرض كاملة وباستحقاقاته كاملة ، ويملك زمام أمره ونفسه وبتروله وثورته .

ولست أدرى أية عبقرية استعمارية اكتشفت انه لا يكفى محاربة فكرة القومية العربية بحرب الجيوش التقليدية والمواجهات العسكرية ، ولكن بعد وفاة الرئيس عبد الناصر ، وغياب قائد القومية ، بدأت لدى المحافل الاستعمارية تنبت فكرة احلال « الفكرة الاسلامية » ، محل « القومية العربية » خاصة وتجربة أميركا مع بلاد مثل باكستان أثبتت احلال فكرة « الاسلامية » ، محل « القومية العربية » ، خاصة وتجربة أميركا مع بلاد مثل باكستان أثبتت ان العامل مع الفكرة

الاسلامية فى اطار باكستانى أو على شكل باكستانى أو سودانى أو غيرهما يسهل لها معركتها تماما مع العرب والمسلمين ، فالاسلام الاميركى يصبح الانتماء فيه للعقيدة وليس للأرض والمطالب الدنيوية » والعلمية والتكنولوجية اسلام تصبح مشكلة المسلم فيه هى انه هو المخطىء وهو المقصر فى حق ربه وشريعته وان عمله الأوحد والوحيد هو أن « يعود » مسلما ، نقيا ، طاهرا ، وبهذا ، وحده تحل كل مشاكله الدنيوية والأخروية بالضرورة • وقد يستنكر الكثيرون هذا النوع من الافتراض أو التحليل ، ولكن الوقائع التاريخية الثابتة تؤكد ان الاميركان لم يقفوا أبدا ضد قيام حكم اسلامى ايرانى ، بل ان اسرائيل نفسها وجدت فى قيام دولة اسلامية تدعى لحجتها فى قيام دولة يهودية ، وذلك تطبيقا لخطة بعيدة المدى تؤدى الى تغيير الخريطة السياسية للعالم العربى والاسلامى والشرق الاوسط وبدلا من الحكومات الوطنية أو القومية تقوم دول اسلامية سنية أو شيعية أو درزية أو علوية أو مارونية أو قبطية على النمط اليهودى الاسرائيلى الذى ستصبح فيه اسرائيل بالتبعية أهم وأذكى وأخطر تلك الدول الطائفية والنحلية •

من أجل هذا ، ودون فن تكون تحت يدى أية مستندات لو وجدت لهذه المسألة مستندات أصلا ، شجعت أميركا وبالتالى اسرائيل فكرة هذه الغزوة الاسلامية ، أو البعث الاسلامى ، لتتجنب بها فكرة القومية العربية ــ الخطر الحقيقى عليها •

ولكن الأمور لم تمض كما تشتهى أميركا واسرائيل • فجموع المنضمين الى الحركات الاسلامية ، السرية أو العلنية ، هم من الشباب العربى الذى يبحث عن هوية ، ووجد فى الاسلام الجزء الأكبر من هويته ، وكان محتما ان يستكمل

تلك الهوية بالوصول الى هويته القومية والوطنية • هم اذن شبان وطنيون ، مثلما كنا فى الخمسينات والستينات ودخلوا معسكر الحركات الاسلامية ذلك الدخول البرىء الطاهر النقى الذى يقطر تضحية ورغبة عارمة فى الرفعة للأمة الاسلامية ولاعلاء راية الدين الحنيف • وكانت النتيجة المحتمة ان أولئك الذين حاولوا اللعب بالنار ، ووضع الاسلام ضد القومية أو على الأقل بديلا عنها فوجئوا بما لم يكن فى حسبانهم أبدا ، فصحيح ان النعرة الاسلامية أدت الى انقسام المعسكر الاسلامى الى شيعة وسنة والى حرب بين العراق وايران ، حرب خطط لها تماما فى مكاتب مكيفة الهواء ، وبعيدا جدا عن طهران وبغداد ، وصحيح ان هناك احتكاكا مجرم الشكل والمضمون والمحتوى هدفه اهدار دم المسلمين الفلسطينيين على أيدى مسلمى الشيعة اللبنانيين وصحيح ان كل الدلائل تشير الى أن الخطة فى أحلال الاسلام محل القومية قد سارت بنجاح فاق كل تصور ••

ولكنى ••• اعتقد انه نجاح مؤقت تماما ، وان الدم المسلم الأحمر السائل سوف يفيق على لونه وغزارته أولئك السائرون فى المؤامرة دون أن يدروا ـ أو لعل بعضهم يدرى ويتجاهل ـ ويدركوا الى أى كارثة محققة هم سائرون •

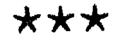
لا خلاف ولا تناقض أبدا بين الاسلام والوطنية والقومية، العكس هو الصحيح فالاسلام مسلمون ، والمسلمون أرض وثروة وعرض والأعداء هم الأعداء سواء أكانوا أعداء ونحن قوميون أو ونحن تنظيمات اسلامية •

كل ما فى الأمر انه ، على مفكرى العالم الاسلامى ، ودعاة القومية ، ان يدركوا وأن يعوا أبعاد الخطر والخطة وان ينتبهوا الى أين هم مساقون كالشياه الى حتفها وهم لا يعلمون •

ان علينا جميعا ، قيادات اسلامية وقومية ، وفكرية وثقافية وكتابية ان نطلق الصيحات تلو الصيحات محذرين من المؤامرة ، وان ندع الاشتباك فيما بيننا الى ان تنتهى معركتنا مع عدونا ، وان نصفى انتماءاتنا وخلافاتنا بعد ان نحسم المعركة مع أعدائنا كلنا ..

فذلك هو العمل الوحيد العاقل الذى على مفكرى وقادة هذه الأمة ان يفعلوه ولا حجة فى التردد أمامه والتعصب القومى ضد الاسلامى أو الاسلامى ضد القومى ، ان هذا هو بالضبط ما يريده الاعداء .

وعلينا ، أن نفسد بالوعى والادراك ما يريدون .



أوجه الصدام بين الاسلام والقومية العربية

اسلامية أم عربية ؟

غريب هذا الأمر ، طوال الفترة الماضية وأنا أكتب فى موضوع واحد ، هو وضعنا العربى الراهن ، لماذا صار الى ما نحن عليه ، وما هى الأسباب الخفية الكامنة وراءه ، وما هو العلاج ؟

ولقد انتهيت ـ كما لا بد يذكر القارىء ـ الى أن ما يحدث لنا ليس صدفة أبدا ، ولكن بناء على خطة محكمة وتدبير موجهين ضدنا ـ كلنا ـ وانه تم بناء على استغلال أعدائنا ، أو بالأخرى أميركا واسرائيل ، لطبيعة النظم العربية التى انتهيت الى أنها كلها نظم قبلية حتى لو كانت ماركسية ، وأن العقلية القبلية التعصبية هى المسيطرة الآن داخل علاقاتنا العربية رهى التى يغذيها ويحركها الأعداء وينفخون فى نيرانها ٠

ولقد أسعدنى حقا ألا أكون وحدى المعنى بالموضوع والمهتم بهذا الأمر وعلى هذا النحو ، ولست أعرف اذا كان

الاستاذ طارق البشرى قد قرأ ما كتبته أم لا • ولكنى فوجئت في عدد من مجلة الشعب التى تصدر فى القاهرة بمقال له عنوانه : الموقف من غير المسلمين والعلمانية •

وليسمح لى الاستاذ الكبير طـــارق البشرى وليسمح لى القراء أن أنقل لهم مقتطفات من هذا المقال الهام ، ليدركوا الى أى مدى نحن لسنا متفقين فقط ولكن لأنهـا الحقيقيـة الموضوعية الواضحة لكل ذى عينين • فأنـا بعيـد تماما عن الاستاذ طارق البشرى ولم يحدث بينى وبينه ــ للأسف ــ لقاء، ولا تناقشنا أبدا حول هذا الموضوع ، ولـكن انظروا ماذا يقول ، وقارنوه بما سبق وكتبته •

هو يبدأ بفكرة الصراع بين القومية أو العروبة على وجه الدقة وبين الاسلامية فيقول : ان الظرف التاريخى قد ألجـأ مسلمى الهند الى نفى القومية نفيا مطلقا ، مما كان مثار نقد مفكرين اسلاميين كبار مثل مالك بن نبى ، والظرف التاريخى أيضا ، أدى بكثير من دعاة العروبة فى الشام الى نفى الجامع الاسلامى « يقصد البان اسلاميز أو الاسلامية » نفيا مطلقا مما آثار نقدا من مفكرين قوميين نظروا الى الاسلام بحسبانه من المقومات الحضارية والعقائدية الأساسيه للمنتمين اليه • ونحن فى ظروفنا التاريخية الراهنة ، ما أحوجنا ان ننظر الى صنعة هؤلاء وهؤلاء « شواما وهنـــودا » فى اطار النسبيـة التاريخية ••

« يجدر بى آن أذكر القارىء هنا انى كتبت مقالات كثيرة حول استعمال العروبة ضد الاسلام والاسلام ضد العروبة بل والعروبة ضد العروبة والاسلام ضد الاسلام » •

ويستطرد الاستاذ طارق البشرى ليقول من الممكن ان نعير التجارب الأخرى ما تستحق من اهتمام حيث انسجم الهـدف

التوحيدى فى كل من الدعوتين العربية والاسلامية ، وجرت الفوارق بينهما فى حدود الخلاف بين العموم والخصوص ولهذا أقام هذا النظر قدرا من الترابط والحيوية بين بعضهما البعض ·

يمكن ان نضرب مثلا مما حدث فى صدر الاسلام بالنسبة للجامع السياسى · لقد قضى الاسلام على العصبية الجاهلية ، وأقام رابطة الانتماء العقيدى للاسلام ، فأقام دولته على هذه الرابطة ·

ولكن ، كيف جرى ذلك ؟ لقد جرى على حساب القبيلة كوحدة سياسية وحيدة تجمع أهلها وتمتنع عن دونهم ، ولكنه لم يجر بطريق ضرب الجماعة القبلية وهدمها هدما تاما ، بل انه أبقى على العنصر الجمعى فيها من حيث هو علاقة نسب وقرابة تضم المئات · ثم نزع عنصر الامتناع الذى اسمى « العصبية الجاهلية » واستطاع بهذا ان يرتب العوامل الجمعية ترتيبا غير متناف ، بل يغذى بعضه بعضا ويقيم بينهما ترابطا وتدرجا من الخصوص الى العموم حتى يصل الى الجماعة الاسلامية الكبرى ووجدنا مثلا فسطاط مصر تنشىء « خططا » أى « أحياء سكنية » لجند كل قبيلة خطة ، يبقون فيها متجاورين غير شائعين فى غيرهم من جند القبائل الأخرى ولكنهم جميعا يحيون ، يجمعهم جهاد واحد فى سبيل نشر دعوة التوحيد ·

هذا أسلوب ومنهج فى التفكير وفى العمل أرجو أن يكون فيه ما يفيد « يقصد يغير حاضرنا العربى الاسلامى » ، وهو ذاته الذى تقوم عليه العلاقة بين عدد من الكيانات الجمعية فى مجتمعنا المعاصر · من الوحدات الاجتماعية الدنيا كالأسرة والعائلة ، والحى ، الى الوحدات الأكبر كالعشيرة حيث توجد

والمهنة وغيرها ، الى الوحدات شبه السياسية كالدويلات والولايات فى اطار علاقاتها بالدولة الأم • الى الوحدات الأوسع كالمنظمات الدولية والاقليمية وغيرها • وللدولة علاقة بكل ذلك •

أفلا نستطيع ايجاد صيغة لهذه العلاقة • وان نتبين عناصر التنافر بينهما لنعمل على ازالتها •

ويرد الاتفاق بين الحركتين من الاحتواء الاسلامى للعروبة من حيث الأغلبية السكانية الغالبة ومن حيث الهيمنة الحضارية والفكرية والتاريخية هيمنة دامت حتى القرن التاسع عشر • فلا تكاد تميز بين ما يعتبر فكرا وحضارة اسلامية ، وبين ما يعتبر منها « عربيا » الا من حيث عموم الأولى وخصوص الثانية •

أما وجوه الاختلاف بين الجامعتين فتتمثل أكثر ما تتمثل فى الاطار العام للدائرة التى ترسمها كل منهما • اذ الجامعة الأولى تدور مع العقيدة وتشمل العرب وغيرهم واذا كان العرب من أكثر الجنسيات الاسلامية فهم لا يمثلون أكثر من سدس المسلمين والجامعة الثانية تدور فى الأساس مع اللسان العربى وتضم المسلمين وغير المسلمين فالدائرتان لا تتطابقان ولا تستوعب احداهما الأخرى استيعابا كاملا وهذا يثير الجدل حول أوضاع المسلمين من العرب وغير العرب من المسلمين ، وفقا لأى من الجامعتين المعنيتين وهو أمر يقتضى جهدا توفيقيا فى جانبين أساسيين :

أولهما : الاطار التنظيمى الذى يحدد العلاقات المتبادلة بين الجامعتين دولة واحدة ، ولايات متحدة ، اتحاد دولى ، جامعة دول ، جامعة شعوب •• الخ » •

وليس ثمة موقف نظرى أو عقدى يحول دون اتخاذ الشكل المناسب لأوضاع الجماعات وأى ظرف تاريخى محدد أو يحول دون ادخال التعديلات المناسبة مع تغيير الأوضاع التاريخية ، والمهم فى ذلك أن ينظر ذوو التوجه الاسلامى الى العروبة بوصفها واحدا من مكونات انتمائهم الأشمل ، ويحسبون ان التوحيد العربى يجرى فى اتجاه متفق مع تحقيق انتمائهم الأشمل • وان ينظر العرب « القوميون » الى الجامع الاسلامى بحسبانه جامع نضال تحريرى وتضامن يجرى بين شعوب ذات تكوين عقدى واحد ، ويتضمن ذاتية تحريرية ونزعة للنهوض • واذا كان العرب الوطنيون لا يعارضون ما يسمى بالتضامن الأفريقى الآسيوى ، ورغم الاختلاف الشاسع فى الموارد الحضارية التى تضم هؤلاء جميعا ، فما أحرى العرب ان يحرصوا على ما يقوم من وشائج بينهم وبين سائر المسلمين ، من حيث التاريخ والتكوين الحضارى ، وما أحراهم من بعد أن ينظروا الى العالم الاسلامى من وجهة النظر المكافحة للاستعمار والقمع الدولى ، وهو عالم يتكون جميعه الآن ممن يسميهم مالك بن نبى : منبوذى القرن العشرين •

وثانى الجانبين متعلق بمبدأ المواطنة أى امكان ايجاد صيغة للمساواة التامة بين المسلمين وغير المسلمين من أبناء الوطن الواحد ، وذلك فى اطار الجامعة الاسلامية • وامكان ايجاد صيغة بين العرب وغير العرب من مواطنى العالم العربى كالاكراد والبربر والزنوج وغيرهم وأتصور ان كلتا الجامعتين يمكن أن تقوم بدور التغذية المتبادلة فى هذا الشأن • ان الانجاز التاريخى للحركة القومية « سواء أكانت الحركة العربية أو حتى الحركة الوحدية الاقليمية فى العشرينات » كان فى أنها وثقت الرباط بين المسلمين وغير المسلمين من

آبناء أوطاننا ، وأوقفت احتمالات المداخلة من الدول الكبرى والقوى الطامحة بين أبناء الوطن الواحد • تلك انجـازات خطيرة يتعين ان نحفظها لصالح العرب والمسـلمين ولصـالح تحريرهم ونهوضهم جميعا •

★★★

الى هنا وأنا مع الاستاذ الكبير طـارق البشرى فى كـل ما قاله ففعلا ، لن نكون مسلمين صالحين الا اذا كنا أولا عربا صالحين ، وعشائر صالحة وأسرا صالحـة ونقطن أوطـانا صالحة • هنا لا تعارض بين الأغلبية وبين عـالمية الاسلام ولا بين القومية والاسلامية •

وهذا رد قوى مفحم على الجماعات الاسلامية التى تنادى بالغاء نظرة العروبة والقومية واحلال الاسـلامية محلهـا • مثلما حدث وسمعت شباب المهندسين فى نقابة المهندسين ذوى التيار الاسلامى يهتفون •• لا قومية •• لا وطنية •• اسلامية •• اسلامية •

انك لا تستطيع ان تبنى الطابق الثانى من البيت قبل ان يرتكز على الطابق الأول ، ولا تستطيع ان تبنى الطابق الأول الا وهو مرتكز على أرض ووطن وانتماء فالمسلم ليس كائنا مطلقا يحيا فى عالم مطلق ، المسلم كائن من أب معين وأم معينة وأسرة معينة وبلد معين ووطن معين • فالخصوصـية فكرة تجعل للعمومية الاسلامية قدرة وقيمة ومهمة • فاللـه سبحانه أورثنا الأرض لنزرعها ونعمرها ونحياها ونمتلكهـا وان نتنازل عن هذا كله لكى نكون مسلمين قلبا وقالبا انما هو عصيان واضح لما خلق الله سبحانه الانسان وأمره به •

النقطة الثانية التى أعجبتنى تماما فى كلمـــة الاستاذ طارق البشرى هو قوله : انه ما دام التوجه واحدا أى محاربة الاستعمار والاعداء فسوف تنتفى التناقضات بين الاسلاميـة والعروبة وتحل الوحدة والاتحـاد والوئام بين الدائرتين • اما أن يكون الهدف من الاسلامية هو محاربة المسلمين لشيع غيرهم من المسلمين وكف المسلم على ذاته يؤنبها وكأنه هــو المذنب وليس عدوه ، أما اقامة الدين على الشعائر الظاهرة فقط وترك جوهره الكفاحى العظيم فذلك اسلام آخر هو أمر محسوب علينا ليفت من عضدنا ، ويفرقنا شيعـــا ، ويهزمنا ويسحقنا •

★★★

أما الشيء الذى لست أبدا مع الاستاذ طارق البشرى فيه هو حين يقول فى نهاية كلمته :

بقيت الاشارة الى وجوه التنافى بين الجامعتين • وأهم هذه الوجوه فى ظنى هو الوضع « العلمـــانى » الذى قامت عليه « عروبة الشام » «ومصرية ١٩١٩»**ويبدو لى ان محك** الصدام بين الاسلام والقومية ، هو فى هذا الجانب العلمانى • والقومية قريبة من الاسلام ما ابتعدت عن العلمانيـة ، بعيدة عنه ما اقتربت منها • فلا تجتمع علمانية واسلام الا بطريق التلفيق وصرف أى منهما على غير حقيقة معناه ، وان الدعوة الاسلامية تقوم أول ما تقوم عــلى مبدأ تطبيــق الشريعـــة الاسلامية واعتبارها الاطـــار المرجعى ومصـــدر الشرعيـة والحاكمية فى المجتمع ، وهذا وجه التنافى للعلمانية معها • واذا كانت العلمانية هى مجال التنافى الأساسى فلا أرى وجها لاعتبارها لصيقة بالحركة القومية ، أو بحركة الوحدة التى تقوم على أساس العروبة • وان التصاق العلمانية بالتصنيف

القومى فى التاريخ الأوروبى لا يجعلها كذلك عند نقلها الى أى سيـــاق تاريخى وحضـــارى مختلف وليس من المقنع ان نفترض تلازما غير منفك بين جامع سياسى يقوم على اللغة والتاريخ وبين نمط للحكم يفصل نظـــام الأرض عن حـــكم السماء • كما انه ليس من المقنع ان نفترض تلازما غير منفك بين التنظيمات الديمقراطية وبين نظرية سيادة الأمة التى تقرر وضعية القوانين وعلمانية النظم • ونحن نزعم أن من الممكن ان نستخلص النموذج التنظيمى سواء النموذج القومى فى تصنيف الجماعات أو النموذج الديمقراطى فى رسم شكل الحكم • نستخلص من ذلك النظريـــات الأوروبيـــة ، وان نستوعبها في اطار نظرية أخرى وقيم حضارية وسياق تاريخى مخالف ، متى كان ذلك ممكنا وهو فى تقديرى ممكن •



لا يا سيدى •••

انى معك تماما ان الاسلام دين ودنيا ، وان الحكم بما جاء به الاسلام هو القاعدة التى لا محيص عنها • ولكن خلافى معك هو هنا فى تعريفك للعلمانية ، فالعلمانية كلمة أوروبية مترجمة هى الضد للثيوقراطية أو حكم الكنيسة • فالثيوقراطية ليست حكم السماء ولكنها حكم رجال الكنيسة وباباواتها • وكذلك العلمانية ، بعض الناس يستعملونها هنا لفصل الدين عن الدولة وانت قد افترضت امكان ذلك ضـــمنا ، ولكن الكارثة الكبرى انها تستعمل عندنا فى مصر على الأقل ، بل ربما على مستوى العالم العربى والاسلامى كله على انها نبذ العلم من ناحية ، ونبذ الطرق الديمقراطية الحـــديثة التى يختار بها الحاكم ، من انتخابات واستفتاءات وترشيحات ،

واتخاذ نظام البيعة الاسلامية وسيلة لايجاد الحاكم المسلم ٠
أما نبذ العلم ففي رأيي انه المؤامرة الكبرى على العقل العربي ، فالدولة الاسلامية في عنفوانها وقوتها قامت على الأخذ بأسباب الدرس والعلم والتجريب والطب والهندسة والجبر والفلك والجغرافيا والتاريخ ولقد تلقنت أوروبا هذا كله ومعه ما ترجمه العرب عن علوم الاغريق وجعلته قاعدة تنطلق منها الى حيث نهضتها الحديثة ٠ وما دمنا نريد لأمتنا الاسلامية التى تعلمت عنها ان تنهض من كبوتها وان تقهر أعداءها ، واعداؤها مسلحون بالعلم والمعرفة فلا بد لنا ان نجعل العلم والتعليم ومعرفة التكنولوجيا الحديثة هدفا أصيلا من أهداف تلك الدولة سواء أكان جامعة عربية أصغر أم جامعة اسلامية أكبر ٠

أما أن نعود الى نظام البيعة واختيار « أمير المؤمنين » بأن يجتمع شعب كالشعب المصرى مثلا فى صحراء مصر الجديدة و « يبايع » هذا أو ذاك أميرا للمؤمنين فهو أمر لم يعد للعصر الحديث فنحن فى مصر مثلا ٥٢ مليونا من البشر بينهم على الأقل ثلاثون مليون ناخب ، فكيف ينتخبون أو على أى أساس يمكن أن يرشح أمير المؤمنين ، وكيف يتم انتخابه وكأننا فى اجتماع سقيفة الذى كان بالكاد يضم طائفتين من طوائف أهل المدينة ٠

ان السر المستتر وراء هذه الدعوة الى تطبيق الشريعة ، فى الحكم ، هو ان يتولى رجال الدين أمر الحكم ، كما تولى من قبلهم فى أوروبا رجال الكنيسة أمر الحكم ٠ ولعلك تعرف جيدا البشاعات التى ارتكبها حكم الكنيسة فى أوروبا فى القرون الوسطى وامامنا الآن مثل واضح وصريح ، الحكم « الاسلامى » الخمينى القائم فى ايران ، هل يملك أحد

محاسبته على اهلاك أرواح المسلمين باسم الاسلام وباسم محاربة الكفرة ..

انها دعوة مكشوفة لاجتثاث الحكومات المدنية الحديثة وركوب الدعاة كراسى الحكم وتطبيق الحدود بحق أو بغير حق وهذا وحده كفيل بان يفكك أى جامعة اسلامية أو عربية أو حتى قومية ضيقة .

اننا محتاجون من هذه الجامعة الاسلامية الكبرى التى نتحدث عنها ، والجامعة العربية الصغرى الى تنظيم أسس علمية ، مستفيدين بما حققته أوروبا من بضاعتنا التى أخذتها منها ، والى اختيار حكامنا أيضا على أسس ديمقراطية اذ هى وحدها الكفيلة بايجاد ليس فقط الحاكم الواحد الصالح ولكن المجالس الشورية والنيابية والوزراء والقضاة الصالحين .

ان القضية أكثر بكثير من أن تكون صراعا بين العلمانية والحكم الاسلامى فلا تناقض فى رأيى بينهما مطلقا ، ان الحكم الاسلامى الذى لا يعترف بالعلم وبالديمقراطية وبالحرية « اطلبوا العلم ولو فى الصين .. متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ... لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى » .. انه لا يعلن له برنامج مفصل نرى فيه كيف سيحكم ومن الذى سيحكم وبأى القوانين « غير قطع اليد واقامة الحد » سيحكم ..

كل ما فى الأمر انهم يريدون « هؤلاء الدعاة والمدعية الاستيلاء على الحكم » وبعدها يفعل الله سبحانه ما يشاء .

والحديث الشريف الذى يقول أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ترجمته الواضحة هى التفكير والتخطيط للمستقبل

ودراسة ما نحن مقبلون عليه وهل هو شر كله أم خير كلـه أم من المستحب مناقشته مناقشة جادة وخطيرة والوصول به الى أقصى ما يستطيع عقلنا البشرى المسلم من حلول لمشاكل حاضرنا ومستقبلنا ·



لاتلطموا الخدود !

كنا مجموعة من الكتاب والمثقفين فى جلسة شبه خاصة مع احد كبار الحكام العرب ، وفوجئنا بالرجل يقول بعد مقدمات التحايا والترحيب وبوادر طرق الموضوعات ، فوجئنا به يقول : الحقيقة ان السياسة العربية وصلت الى طريق مسدود ، ولم يعد للسياسيين دور ملموس يستطيع ان يلعبوه ، ولم يعد لنا ثمة أمل الا بأن يقوم المثقفون والكتاب العرب ، هم وليس غيرهم ، بدورهم فى توحيد كلمة العرب ، واعادة النبض الى الجسد العربى الذى كاد يتوقف عن النبض ٠

والحقيقة ان كلامه كان مفاجأة ، لكنه لم يكن مفاجأة كاملة ، فالحقيقة الواضحة ترى لكل ذى عينين ، وحتى للذى بلا عينين ، ان لم يعد دور واضح للسياسة العربية على خريطة السياسة العالمية ، فهم على خريطة العالم موزعون بين الدولتين العظميين وهم على خريطتهم الخاصة تكاد كل دولة تسلك سياستها الخاصة بها دون أى تنسيق أو تعاون بينها وبين أية دولة أخرى ، واذا كان فى الشرق العربى قد تكون مجلس التعاون الخليجى ، وهو بالفعل فى المجال الاقتصادى والثقافى

والصحى واضح الدور ، وان كان قد تكون ما يشبه التعاون بين دول المغرب العربى رغم الخلافات الرهيبة بين ليبيا وتونس والجزائر والمغرب حول البوليزاريو ، والمغرب وموريتانيا ، واذا كان عزل مصر لم يضعف قوة التأثير العربية الجماعية فقط وانما ـ وهذا هو الادهى ـ قد كون ما يشبه الحائط العازل بين الشرق والغرب العربيين ٠

واذا كان هذا كله قد حدث ، فماذا يكون قد تبقى من القوة أو الفاعلية العربية ، بل حتى داخل الدولة الواحدة ، كما فى لبنان ، اليمن الجنوبى والسودان ، كما فى داخل منظمة التحرير الفلسطينية يوجد هذا التمزق والتشرذم والانقسام الذى يمنع قوة القرار الواحد والارادة الواحدة ٠

للرجل حق كل الحق فى قوله ان السياسة العربية ، بما فيها وعلى رأسها الجامعة العربية قد أصبحت غير ذات فاعلية ، تكاد تكون تامة ٠

أما الجزء المضحك الآخر من الحديث ، هو الذى يتعلق بان يقوم المثقفون العرب ، بقيادة الأمة العربية سياسيا ، توحيد كلمتها ، ورأب الصدع بين أطرافها المتنازعة ، فانه لشىء جميل جدا أن يحدث وأن يكون ، ولكن المثقفين العرب ، على مستوى الوطن العربى ، وحتى داخل بلادهم يكاد نفوذهم وقدرتهم تنحصر فى كتابة مقالة تذهب مع الريح فى الغالب ، أو تقديم نصيحة لا يأخذ بها أحد ، أو يتقوقع داخل ذاته ويكتب قصة أو رواية يضمنها همومه وكأن القراء والمشاهدين سيتلقفون تلك القصة أو الرواية أو القصيدة وتصبح بالنسبة اليهم راية يلتف حولها الشعب العربى وتجبر حكوماته على العمل بموجبها ٠

ذلك هو الجانب المضحك فى الموضوع ، فالمثقفون فى كل مكان من العالم لهم كلمتهم المسموعة والمدوية والمغيرة لكثير من أمور حياة ذلك البلد أو ذاك • اذكر انى كنت فى انجلترا مرة ، وشاهدت لقاء تلفزيونيا مع الكاتب الروسى المنشق سولجنتسين ، وفوجئت فى اليوم التالى بنائب حزب العمال البريطانى يستقيل من منصبه فى الحزب متأثرا بأقوال سولجنتسين ، أما نحن هنا فاذا جئنا بالمتنبى ، وشكسبير معا وفرضناهما فرضا على مشاهدى التليفزيون ومستمعى الاذاعة وقارئى الجرائد ، وكتبا ما شاءت لهما قرائحهما ان يكتبا ، ونقدا الأوضاع العربية المتردية ما شاء لهما من نقد ، فانى لا أعتقد ان هذا الجهد كله سينتج عنه ان يستقيل سياسى عربى واحد أو حتى موظف ادارى من موظفى أى حزب أو دولة •• لذلك أسباب كثيرة جدا أهمها فى رأيى ان هناك ، فى عالمنا العربى انفصالا أو انفصاما كاملا بين الفعل والقول ، فبينما فى الغرب القول نوع فعال جدا من الفعل وليس أبدا بديلا عن فعل ، القول عندنا هنا لا علاقة له بالفعل بل يكاد يكون القول شىء والفعل شىء آخر ، والثقافة عندنا بالتالى لا يوجد لها أى أثر سياسى أو اجتماعى ، فما سمعنا عن ثورة قامت اثر كتابة رواية أو قصيدة مثلما فعلت قصة « كوخ العم توم » التى أشعلت ثورة الزنوج فى أميركا ، وينضم محمود درويش أو ادونيس أو البياتى أو نزار قبانى من أعمق أعماقه ويكتب ما شاء من هوامش على دفاتر النكسة أو استثارة للحمية والحماسة ولا حياة لمن ينادون ، فنحن نأخذ الشعر على انه فن القول الجميل ، والكتابة على انها حرفة صناعة القصة أو المسرحية الجيدة ، نهتز طربا للبيت اذا احببنا البيت واذا انتهى الشاعر من قراءة قصيدته ذهب كل الى حاله وكأنه لم يسمع شيئا •

★★★

هذا عن وضع المثقفين كمبدعين ، أما وضعهم كتنظيمات واتحادات هو أكثر أثارة للضحك بكثير ، فمؤتمرات الأدب العربى مهازل من النوع الثقيل الدم ، ترسل كل حكومة عربية وفدا يمثلها ، ولا يفعل هذا الوفد الا ان يردد كالمنوم مغناطيسيا مونولوج حكومته أو نظامه ، ثم تكتب التوصيات التى هى هى نفسها منذ حضرت أول مؤتمر للأدباء العرب عام ١٩٥٦ ، وينفض الجمع وكان الله يحب المحسنين ، فكيف بمجموعة هذه حالها ، وبافراد مثقفين تلك هى قدراتهم ، وفاعليتهم ان يقوموا نيابة عن السياسيين بتوحيد العالم العربى وجمع شمل كلمته .

بالطبع هذا شىء يبدو كالمستحيل . والمستحيل الآخر ان تستطيع الحكومات العربية بوضعها الحالى ان تفعل شيئا هى الأخرى فهى من الحقيقة لم تعد فاعلا وان أصبحت مفعولا بها ، والفاعل ليس مجهولا ، الفاعل هو الغرب الأوروبى الاسرائيلى الاميركى ، والهدف واضح وصريح هو القضاء نهائيا على فكرة القومية العربية واجتثاثها من جذورها وليس فقط على الشعب الفلسطينى أو العراقى .

ذلك أن أخطر فكرة أو دعوة تفتقت فى العالم العربى بعد الحرب ، فكرة القومية العربية التى أصبح عبد الناصر رمزا لها وتجسيدا لرسالتها وهى ان تقوم أمة عربية واحدة من المحيط الى الخليج تتكامل سياسيا وعسكريا واقتصاديا وثقافيا وتصبح الدولة الكبرى الثالثة فى العالم . لم تكن أول مرة فى التاريخ تنشأ هذه الفكرة فمنذ أيام الحروب الصليبية وقيادة صلاح الدين التاريخية ومنذ أيام محمد على ومحاولته التى كادت أن تنجح والغرب يضمر لما يسميه الشرق ولما أصبح اسمه الحديث الأمة العربية العداء الشديد ، ذلك

انه يعلم تمام العلم ان أمة بهذا الحجم ، وفى هذا الموقع ، وبما تملك من ثروات طبيعية وبشرية ، ومن طموحات كفيلة بانهاء نفوذه تماما فى تلك المنطقة ، ليس هذا فقط ، بل هى كفيلة أيضا بالوقوف حائلا بينه وبين السيطرة على أجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا ٠

ولذلك كان لا بد أولا من اغتيال رمز الفكرة ، عبد الناصر ، تبريرا للهزيمة الساحقة للجيشين المصرى والسورى فى عام ٦٧ ٠ ثم كان لا بد من استقطاب بعض الدول العربية من هذه الناحية ، وبعضها فى الناحية الأخرى، مع اشراك القوة العظمى الثانية الاتحاد السوفياتي في اللعبة ٠ على شرط أن يقتصر نفوذه على بلاد متباعدة قليلة العدد ، قليلة الكادر البشرى على درجات متفاوتة من التخلف ٠ أما البلاد الغنية بالموارد الطبيعية فقد وضعتها الولايات المتحدة تحت ابطها تماما ، واعتبرتها من محمياتها الاستراتيجية وانشأت من أجلها قوة انتشار سريع وبطىء وأسطولا ضاربا من البحرين الأبيض والأحمر والمحيط الهندى ٠

أما العراق فقد كان على ايران ان تتكفل به ، وأما سورية فلتتغرز في لبنان الى النخاع ولتتشاجر مع الفلسطينيين والاردنيين أو تصطلح فهذا كله سيبعدها عن أن تكون ذات فاعلية فيما يسمى بالجبهة الشرقية المناوئة لاسرائيل ٠ أما مصر فقد كان لا بد من استئصالها من الجسد العربى بعملية جراحية قام بها « الصديقان » كيسنجر والسادات ، والأدهى انها لاقت ولا تزال تلاقى ترحيبا من بعض القوى العربية التى تطمح الى زعامة الأمة العربية والاسلامية بعد زوال مصر ٠

أما المغرب العربى فقد كـان لا بد من خلق عدة مشاكل تلهيه ليس فقط عن العروبة ولكن عن المشرق العربى نفسه بتشـاد والبوليزاريو ، والصراع الحـاد الوطيس بين المغرب والجزائر أو تونس وليبيـا أو بين الجميع ، وعلى أى شىء لا أحد يدرى ، وكـأن قطعـة من الصحراء تسـتحق هذا العدد الرهيب من الشهداء المغاربـة والجزائريين والبوليزاريين ٠

★★★

هذا على مستوى الدول العربية ٠

أما على المستوى العقائدى ، فقد كان لا بد من اختلاق دعاوى اسلامية تبعد الاسلام عن رسالته الحقيقية فى محاربة الكفرة والاعداء «واسمهم الحديث هو الاستعمار والصهيونية» وتحويله الى طقوس ميكانيكية تبعده عن مضمونه الحقيقى ، أى اختلاق اسلام يحارب الاسلام الحقيقى ، ورسالته ويشرذم المسلمين الى نحل وملل شـيعية وسـنية وعلويـة ودرزيـة وخومينية واخوان مسلمين وجماعات اسلامية ، وتكفيـر وهجرة ، وتنظيمات جهاد ، وكل منها تعارض الأخرى وتسن الحراب والسكاكين ٠

أما العروبة فقد كان لا بد من محوها محوا تاما أو باظهار الفكرة الاسلامية وكأنها مضادة تماما للفـكرة الوطنيـة والقومية والعربية ، وبأذنى سمعت وكنت مارا أمام نقابـة المهندسين فى القاهرة يوم الانتخابات شباب المهندسين وهـم يهتفون : لا قومية ٠٠ ولا وطنية ٠٠ اسلامية ٠٠اسلامية ٠٠ وتبدو هذه الدعوات مغرية وجذابة الى حد لا يقبل النقاش ، فالاسلام ديننا الحنيف جميعا حقيقة ــ لا مراء فيها ولا شك ــ ولكن لكى تكون مسلما حقا فلابد أن يكون لك اسم وأبوان ،

وبلدة ، ووطن ، فلا تعارض مطلقا بين الدفاع عن الوطن والقومية والأهل والعرض وبين ان تكون مسلما حقا وصدقا، بل ان الاسلام يدعو لهذا ويكرر في عشرات السور هذا المعنى ولكن أعداء الاسلام اختلقوا هذه الدعوات اختلاقا . لفكرة خبيثة تماما ، وهى ان يكون الاسلام مجرد « دين » لا علاقة له بالأرض أو الحدود أو القومية ، ولهذا فحين تحارب اسرائيل انت لا تحاربهم لانهم اغتصبوا أرضا ولكن لانهم غير مسلمين، فاذا اعترفوا باسلامك وناصروه فالأرض حينئذ تصبح غير مهمة ما دام دينك سليما معافى . كيف يكون دينك سليما معافى وانت يحتلك كفرة وأعداء ولصوص ذلك هو الذى لا يجادل فيه هؤلاء الذين يهتفون : لا قومية . لا وطنية .. اسلامية اسلامية .

الأوضاع العربية وحتى الاسلامية الحقيقية متردية اذن ، ليس بالصدفة ، ولا للتشرذم أو الضعف العربى ، ولا بسبب القذافى أو الأسد أو عدن أو الحرب العراقية الايرانية ، انها متردية بناء على خطة كبرى مدروسة بعناية ، استولى فيها الاميركان والاسرائيليون على وثائق الخارجية البريطانية ودرسوها جيدا ورسموا خطتهم بناء على خبرة الانجليز فى تمزيق الفكرة العربية والأمة الواحدة وابقائها أسيرة أوضاع متردية قد تطول لعشرات السنين المقبلة .

فلنكف اذن عن لطم الخدود وشق الأثواب وتعذيب أنفسنا ونقدها ، فنحن ضحايا خطة علمية مدروسة جيدا ، لا يمكن التغلب عليها الا بخطة من عندنا علمية أيضا مدروسة جيدا ، ولا تستطيع دولة عربية واحدة ان تقبل هذا ، ولا حتى مؤتمر قمة عربى تطرقع فيه القبلات تمهيدا لاستلال الخناجر . ولكن المؤتمر التمهيدى لهذه الخطة قد ينجح اذا استطعنا ان

نجمع الحكام العرب والمثقفين العرب والمعارضين العرب من كل الملل والنحل ، فى مؤتمر دراسة متأنية هادئة نرى فيهـا الى أى حد وصلت الأمور ، وما هو الطريق لحلها ، وقد وضعت المثقفين والمعارضين عن عمد فى هذا المؤتمر ليكونوا أقوال الصراحة والحق بدل كلمات المجاملة التى تتم بين الرؤساء ·

أجل أيها الناس ·· ان المأساة التى نحياها وتمت بخطة ولن نخرج منها الا بخطة والا بأعمال لأقصى ما نستطيع من ذكاء وثورة وقوة وتفكير ·



البحث عن التراب الخماسيني

نتذكر ـ بسرعة ـ أننا كنا قد توسعنا فى الحديث حول :
لماذا فشل الملوك والرؤساء العرب فى عقد مؤتمر قمة (استثنائى) لمناقشة العدوان الوحشى الصارخ الذى تتعرض له أمتنا العربية ، فى الحرب العراقية الايرانية ، وفى لبنان وفى هذا الأخير الذى تعرضت له الجماهيرية الليبية عيانا جهارا وبكل سبق اصرار وترصد ، قالها ريغان ، سأضرب ، وضرب ، واعترضت على ضربه كل أمم العالم ما عدا بريطانيا واسرائيل بالطبع ، والذى على آثره دعا العقيد القذافى الى عقد مؤتمر قمة عاجل ، وتولى العاهل المغربى مسؤولية الدعوة ، واجتمع وزراء الخارجية العرب ليتفقوا على جدول أعمال وفعاليات مؤتمر القمة الوشيك الحدوث ، ولكن العجيب ـ ويبدو أن لا شىء هناك أصبح عجيبا ـ ان الوزراء أو بالأحرى رؤساءهم ، فشلوا في الاتفاق على جدول الأعمال، وبالتالى فشل الاجتماع ، والأعجب أن يكون الفشل بسبب موقف ليبيا نفسها ، أو العقيد القذافى ، الذى تمسك برأيه فى ضرورة أن ينعقد المؤتمر القمى فى طرابلس باعتبار ليبيا هى أحدث الدول المعتدى عليها ، وباعتبار ان العدوان

جرى من قبل دولة عظمى ضد دولة تعدادها ٣ مليون كلهم من العرب المسلمين ، وكان العدوان الايرانى على العراق واحتلال أراضيه قد قدم العهد به ، أى أصبح مزمنا ، لا يشكل ألما حادا أو حالة عاجلة ، أو الحرب اللبنانية راحت عليها وقلنا ، كالعادة كتابا ومحللين وسياسيين رحنا ننهال على أنفسنا تقريعا ، ونتحدث عن الفشل العربى والتشرذم العربى والمأساة العربية ، وكأنها مأساة تحدث لقوم آخرين ، وليس لنا نحن بالتحديد ، وان هذه الطريقة ـ طريقة تأنيب النفس ولطم الخدود وشق الجيوب وتمزيق الصدور على طريقة الشيعة ، ليست هى الوسيلة لا المثلى ولا حتى الغبية لمواجهة ما حدث ٠

فما حدث كان بناء على خطة خبيثة مبيتة للعدوان على الأمة العربية كلها وحتى مدخلة فى اعتبارها رد الفعل العربى الذى لن يتعدى تقريع الذات ، وازدياد سخط العرب على أنفسهم ، وهو بالضبط رد الفعل المطلوب ، لتزداد الخطى العربية تعثرا وفشلا ، فالذى يلوم نفسه بشدة على شىء لا يكرر فعله ٠ والأم اذا ظلت تتهم ابنها بالجبن أو بالغباء أو الخيبة سيستحيل بكثرة التأنيب الى جبان أو غبى أو خائب ما بعده خائب ٠ وقلنا أيضا انه ، ما دام الأمر خطة موضوعة ، فلا بد ان نواجهه بخطة أيضا ، فلا يواجه الفكر الخبيث الا بفكر خبيث أو أشد خبثا ، ولا يواجه التخطيط المعادى الا بتخطيط يرد العدوان ٠

وهكذا بدأنا فى البحث عن أسباب فشلنا وخيبتنا حتى فى الاجتماع أو عقد مؤتمر ، وذلك بالاجابة على السؤال الأول : هل السبب فى اختلافاتنا وتمزقنا وتشرذمنا وعدم قابليتنا للالتقاء أو الالتفاف حول هدف أو وسيلة هو القبلية أو العشائرية السائدة الآن ومنذ زمن بعيد فى الأمة العربية ٠

ووجدنا ــ فى محاولتنا للاجابة ــ انها تشـكل الأساس الحقيقى للخلافات العربية ، فبعد استعراضنا لمختلف الأنظمة من أقصى اليسار الماركسى الذى يحـكم عـدن ، الى مصر الديمقراطية البعد كامبديفيدية ــ الى الجـزيرة الى الشمال الأفريقى • النظم لها اسماء مختلفة هذا صحيح ، ولكن حقيقة تكوينها علميا حقيقة واحدة •

وعلى ذلك الأساس اعتبرنا الخلاف بين الانظمة العربية أو بين الحكام العرب على وجه الدقة ليس خـلافا حـول (مبادىء) أو (برامج) أو تقدمية أو سلفية ، وانما هى فى حقيقة أمرها خلافات بين هذه القبيلة وتلك أو بالأصح خلافات بين رئيس هذه القبيلة ورئيس القبيلة الأخرى ، اذ هو أبدا ليس خلافا حول الصالح العربى العام ، اذ كل يزعم انه انما باختلافه عن الآخرين ونشوزه عنهم لا ينشـد الا الصـالح العربى العام ، فى حين أن الصالح العربى العام ــ لو كان هو الهدف حقا ــ لوجب ان يتنازل هذا الأمير أو الحاكم أو الرئيس عن بعض مصالحه أو مصالح قبيلته فى سبيل المصلحة القومية العليا ، أما التضحية بالمصلحة القومية العربية العليا لسبب ذاتى محض سواء أكانت الذات قبيلة حاكمة أو فئـة متكافلة متكاتفة •• فتلك مسألة أخرى ••

تلك مسألة تستوجب ان نعرى المواقف العربيـة تمامـا ، ونعرى الحكم العربى فى كل مكان ، لنصل الى هيكله العظمى الحقيقى الحاكم ، وحينذاك فقط ، وحين تتعرى تلك الانظمة سنصل الى الحقيقة وهى آن جميع المزاعم التى يزعمها بعض الأنظمة بدعوى الحرص على القضية العربية ، والفلسطينية بشكل خاص ، انما هو كذب ومحض افتـراء ، فالشـعوب العربية كلها ، لا خلاف بينها حول المطالب القومية العليا ،

والمصلحة القومية الواحدة ، كل الشعوب العربية متفقة تماما ولا خلاف بينها ، وقد ضربت وسأضرب المثل على هذا ، كنا فى بلد عربى ، مجموعة من كتاب وشعراء وفنانى الدول العربية قاطبة ، وكنت تضرب كفا على كف وانت ترى الانسجام الكامل ، حتى فى الآراء والتوجهات السياسية ، بين الفنانين العراقيين والسوريين مثلا ، أو بين الليبيين والتونسيين ، وبين هؤلاء جميعا وبين المصريين والسودانيين والاردنيين والفلسطينيين • الكل عارف تماما بأدق دقائق الموقف ، وتاريخ كل حاكم يحكمه ، وعيوبه قبل مزاياه ، ولكنا ، فقط ، فى المواقف الرسمية ، وخوفا من عيون الرقباء وعسس الأنظمة المنبثة فى هذا الجمع الفنى بالضرورة ، كنا فقط (نبوز) فى أوجه بعضنا البعض ، ونضع اقنعة الانظمة ، ونؤيد أو نعارض ما خططه لنا واختطه لنا وآمرنا به كل نظام من أنظمتنا •

اذن الخلاف هو بين رؤساء حكوماتنا وقادتها يدخلوننا فيه رغم أنوفنا ، ويجعلوننا نحارب بعضنا بعضا ، بل ويقتل بعضنا بعضا (بأمر) هذا النظام أو ذاك ، وليس بسبب أن السورى يكن للعراقى حقدا ، أى نوع من أنواع الحقد ، وليس بسبب ان اليمنى الشمالى يختلف فى عواطفه أو انفعالاته عن المواطن أو الكاتب أو الشاعر من اليمن الجنوبى •

اذن هى تراجيديا عربية ، كل ما فى الأمر انها لا تدور على مسرح ، ولا يسقط فيها الضحايا تمثيلا أو ادعاء ، وانما يسقطون صرعى فعلا ، مقتولين فعلا قتلهم صاحب عربى مثلهم بأمر نظامه ، قتلا لا يحمل أى احساس حقيقى بالغل أو الحقد أو الايمان •



وكما يقولون – غنى عن البيان – ان هذا الوضع يثلج قلوب عدونا تماما · وكم نزفت ولا أقـــول كتبت ، وكتب غيرى مقالات ونداءات وصرخات تهيب بحكامنا ومسؤولينا ونقول ، فى أعقاب هزيمة ٦٧ ، ان الخطة الجهنمية الكبرى للعدو هو أن يحيل الصراع العربى – الاسرائيلى الاميركى – الى صراع عربى – عربى أو فلسطينى – فلسطينى ، أو عربى – فلسطينى ، ولكن أحدا لم يسمع ، أو ان كان قد سمع فان العمى القبلى المتحكم فى أعصابه أو آذانه وعيونه أعماه عن أن يرى الا أن هذا العربى الجار أو زميل الحزب أو الرفيق هو عدوه اللدود الذى لا بد من قتله أولا ، تصفيته (جسديا)قبل ان يوجه مسدسه الى العدو الحقيقى ·

وهكذا لم يكن غريبا ان ينشـــأ الصراع بين السوريين والمنظمة حول – التحرير – تحرير ؟ أى تحرير هـذا الذى تحاربون أنفسكم فيه حربا أبشع هوادة من حربكم للعدو · أو أن يدخل الصراع دائرة الاسلام ذاته ، وان ينشأ نظـام الخومينى ويقـوم وعلى رأســه يرفـــع رايــة أن الطريق الاسرائيلى لا بد معــه من اجتيــاح كـامل للبصرة وللعراق ولبغداد ، أى حصد للجبهة العربية الشرقية كلها أو معظمها فى سبيل الوصول ، فقط الوصول الى حدود اسرائيل ، ومن يدرى ماذا سوف يحدث عند تلك الحدود ، لربما ، وهذا هو الأرجح أن يعتبر خومينى أن التحرير قد تم ، وان اسرائيل لم تعد مشكلة ···

وقد يبدو ما أقول لغوا ، ولكن ماذا أفعل ونحن نحيا فعلا فى عصر اللغو · مصر بأكملها لم يكن لها من شاغل طـوال فترة طويلة الا الصراع الـهيب حول – ليت الاسلام أو مصالح المسلمين أو أى شىء يمت الى العقل بصلة – ولكن حول ان : هل من حق الفتاة المسلمة ان تذهب الى كلية الطب وتكشف

على المرضى وتمتحن وهى (منقبة) أى لا يظهر منها ســوى عينيها ، ترتدى الأسود فى الأسود ، وحتى يديها تدسهما فى قفاز أسود ، أم أن هذا ليس من الاسلام فى شىء ؟

وهل من حق عميد كلية الطب ان يتأكـــد من شخصية الطبيبة التى تدخل الامتحان عن طريق انزال النقـــاب عن وجهها والتحقق من شخصيتها المصورة كاشفة الوجه فى بطاقة الكلية والامتحان أم أن هذا عدوان ما بعده عدوان على الدين والدنيا وعلى الاسلام والمسلمين • وهكذا تظاهر آلاف الطلبة الذين يدينون بالولاء للجماعات الاســلامية وهتفوا بسقوط العميد واهدار دمه ••• و •• واسلاماه ••• الدين فى خطر •• والدنيا ستقوم لو كشفت الفتاة عن وجهها ليتأكدوا من شخصيتها •

ان التيار الدينى فى الجامعات ليس وليد اليوم • كنــا ونحن طلبة فى الجامعة لدينا تنظيمات للاخـــوان المسلمين ، ولكنهم لم يكونوا يتظاهرون لأن طالبة أظهرت بضع شعرات من حجابها ، كانوا يتظاهرون ضد الانجليز والسراى ، كانوا يشكلون ويكونون كتائب فدائيين لمحاربـة الانجـــليز وفى القنال ، وهذا هو الاسلام الحقيقى، وهذا هو الدفاع الحقيقى عن الاسلام ، أما أن يكونوا جيشا رهيبا من الحناجر التى تزأر مطالبة بأن (تنقب) طالبة الطب نفسها ، وتهدر دم العميد اذا حاول ان يكون علميا وجامعيا واسلاميا حقيقيا ، فذلك هو نوع الكفاح الدينى الذى استوردته مصر (من أين لست أدرى) ، ذلك النوع القشرى الشكلى من الاسلام الذى يترك روح الاسلام ومنهجه ، اذ الاسلام نزل على النبى صلى عليه عليه وسلم وعلى المسلمين ليحضهم فى ثلاثة ارباعه على مقاتلة الكفار (الاستعماريين ، والصـــهيونيين بلغة العصر

الحديث) دخل الاسلام فى الخطة الجهنميـة الكبرى لتفتيت العرب والمسلمين • سلبوا منه روح القتال والنضال ضـد العدو • وتركوا لنا مهمة ان نتعارك وأن نتناقش وان يطعن بعضنا بعضا بالاتهام بالكفر أحيانا ، وبالضرب الجسدى أو القتل أحيانا أخرى فى سبيل قشور لا تقـدم أو تؤخر فى حقيقة الرسالة المحمدية الاسلامية التوحيدية الكبرى •

اذن العروبة أصبحت مزادات ومزايـدات عربية بين مدعى قيادة العرب والامناء على القومية العربية ، وأدخلت الشعوب العربية رغم أنفها فى تلك المـزايدات والصراعات (قادة) العرب ، وأولى الأمر منهم •

والاسلام ذلك الدين الذى جاء ليبشر باله واحد أحد ، وبمسلمين وحيدين لا فرق بين مسلم فيهم ومسلم الا بالتقوى، شرذموه أيضا ، وجعلوه اسلام شيعة واسلام سنة واسلام دروز واسلام علويين وقذافيين وجماعات جهاد وحزب الله ، الجميع يقرون ان الاسلام بنى على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واقامة الصلاة وصوم رمضان وايتاء الزكاة وحج البيت من استطاع اليه سبيلا • بمعنى ان كل من نطق وآمن وفعل هذا فهو مسلم شاء أى فقيه أم أبى ، رضى شيخ الأزهر أم اعترض ، اذ هذا وحده هو المقياس الوحيد للمسلم ، وهو فى نفس الوقت الشعار الجامع بين كل المسلمين ليجعل منهم شعبا واحدا متحدا كالبنيان المرصـوص يشـد بعضه بعضا ، ولكن •• هل يتركون الاسلام ليؤدى رسـالته التوحيدية التحررية الكبرى هكذا ويصير قـوة تتزلزل لهـا جبال الكذب والظلم والبهتان ؟ مستحيل ! فليكن اسلاما واحدا وشعارا واحدا ولكن فلينقسم مصنفوه ودعاته الى كل تلـك التقسيمات التى ذكرناها ، ولا يكفى هذا ، بـل يجب ان

تتنازع تلك التقسيمات وتدعى كل منها ان ما تقـوله هـو الاسلام الحق ولا اسلام سواه • بل لا يكفى هذا بل لا بد ان تتقاتل تلك التقسيمات قتالا مرا أشـــد مرارة مما تقاتل به العدو (مسلمو ايران التى تستورد السلاح من اسرائيل لتبيد به مسلمى العراق) • وكتائب أمل (التابعة لدمشق) تشن الهجمات على كتائب (حزب الله) التابع لايران ••• مولد ••• وهيصة ••• وفوضى افشـــاها العدو فى قلب اسلامنا الواحد حتى أصبح أن يعادى المسلم المسلم مثل عداوته للوثنى أو الصهيونى مسألة لا غرابة فيها بـل الغـريب الا يفعل !

الوضع القبلى اذن ، لم ينته بمجىء الاسلام وعلى يديه ، ولكنه ، ابان مقاومتنا للغزوة الصليبية الصهيونية ، الثانية الكبرى استطاعوا ان يتسللوا اليه هو الآخر ويجعلوا منه عونا على القبلية الجديدة ، ويجعلوا من جيشه المفروض أن يكون واحدا متحدا صفوفا متفرقة ، وانى لأتصور المشهد في الآخرة، وأتصور ايرانيا مسلما يقف بين يدى المولى ويقول : سقطت شهيدا يا الهى دفاعا عن الاسلام • وعراقيا يقف بين يدى المولى ويقول : لقد مت شهيدا فى سبيل الاسلام • فأى اسلام هذا الذى يقتل به الشهيد شهيدا ، ويستشهد من أجلـه القاتـل والمقتول معا ؟ أى اسلام ؟! انهم اليهود والامركيون يعبثون بنا معا ، ويسخرون باستشهادنا معا ، وهم أيضا قتلتنا نحن الاثنين ولا قاتل سواهم !



اذن •• بذرة قبلية قديمة •• أعيد النفخ فيها •• وتولى أبالسة جدد اذكاءها فى نفوس حكامنا وأولى الأمر فينا حتى

غارت في عروبتنا ، وفي اسلامنا ، وفي وجودنا كله تفرض نفسها فرضا ، وتجعل تفرقنا أمرا واقعا ، وتجبرنا على أن تتهم كل قبيلة القبيلة الأخرى بانها السبب ولا سبب غيرها في هزيمة القبيلة ، بل في هزيمتنا كلنا ٠

حتى أصبح تبادل الاتهامات شيمة من شيم وجودنا العربي الحالي ، أرني دولة عربية واحدة لا تتهم دولة غيرها باسداء وأحط التهم ٠ ائتني بزعيم عربي واحد لم تكن الخيانة والدكتاتورية أو الرجعية أو على أقل القليل التهاون واللعب بالقضية واحدة من كثير مما أصابه ويصيبه من اتهامات ٠

بل ائتني بدولة عربية أو بنظام عربي ليس في نظر الجميع متهما بتهمة خطيرة ما ٠

ماذا تفعل تلك الاتهامات ؟!

انها بالضبط كمشاعل الايدروجين التي يلحمون بها الحديد ، كل ما في الأمر انها تفعل هنا العكس تماما ، انها تصهر الروابط الأزلية الحديدية بين الدول والأنظمة وتفككها قطعا قطعا ومعسكرات معسكرات ، حتى داخل المعسكر الواحد تقطعه اربا حتى تصبح في النهاية ، بدلا من هيكل دولة عظمى واحد كبير ومرعب ورهيب « كما حدث ابان حرب رمضان » تحيلها الى مجرد كومة من الحديد الخردة ، حتى لا تتمتع بشكل أو كيان واحد ، مهما بلغت درجة وحدته ، فقد كان شكلا اسمه الجامعة العربية ، حتى تلك الجامعة التي جنحت على الشط التونسي أصبحت « كهفة » تتغذى وتحيا فيها أعشاب البحر وطفيلياته ٠

★★★

والكارثة اننا لا نرى هذا كله !

نعانى منه جميعا ونشكو ونجأر منه ، ولا نراه •

وتلك هى الكارثة •

لقد نجح المخطط الاميركى الاسرائيلى فى خلق زوبعة رملية كالطوز أو كرياح الخماسين ، أعمت عيوننا عن أن نرى ، بالكاد أصبح الوضع لا يسمح لأى منا ان يرى الا ما تحت قدميه ، والا ما يجب عليه ان يؤديه غدا •

أعمت عيون الأمة •

حتى عيون مثقفيها وشعرائها وكتابها •

أولئك الذين كان مفروضا ان يعتلوا صارى المركب ، وبمناظيرهم الحدسية والقصرية الثاقبة يرون الى أين يتجه المركب ، وأى الصخور فى سبيله لان يرتطم به ، أعماق البحر من اليابسة ، طريق الضياع من طريق السلام •

هؤلاء أيضا •

أعماهم غبار العاصفة ، فلم يعودوا يبصرون ، الا أن يصرخوا انهم لا يبصرون ، وان العمى قد أصابهم ، وان الرياح شديدة ، وان الجو عاصف ، وان الدنيا قد أظلمت •• لا عمل لهم الآن فى قصائدهم وأعمالهم وكتاباتهم الا الصراخ كالأطفال ، ورثاء النفس كالموتى حين يرثون أنفسهم أحياء ، واما الترحم على ما فات ، أو التبشير بالظلم والظلام القادم •

ومن أجل هذا •

فان أى كتابة يتصدى بها الانسان ليدرس أسباب ما نحن فيه ، وأى مؤتمر أو حوار ينعقد لينقب فى حياتنا ليعثر على أين ثقبت السفينة وكيف أصبح هو الآخر آمرا صعبا ، وكيف

لمكفوفين أن يروا الباب حتى لو كان مفتوحـا على مصراعيه أمامهم ؟

ولست أقول هذا يائسا ، لست أقوله لأجد لنفسى أو لغيرى العذر ، انما أقوله لندرك جميعا اننا أيضا فى سبيل البحث عن النجاة ، وفى سبيل عبور هذه الحقبة والخـروج منها سالمين ، فى حاجة الى أناس ينظفـون أبصارهم وبصـيرتهم جيدا ، ويهزون رؤوسهم هزا عنيفا ليسقطوا عنها الأفكـار الصدئة والعفن والتى لم تعد تصلح للحقبة ٠

فى حاجة اما آن نعود نرى جيدا ومن جديد ٠

واما أن نيأس حقا ونكتب على جـدران الزمن وصـية للأجيال القادمة من يعبر منا ، نقول لهم فيها : الى هنا توقفت رؤيتنا ، ووصلنا الى حافة كوننا العربى المظلمة ، وحل علينا الليل ، و حللنا نحن على الليل ، وانتم يا جيلنا القادم سيحل عليكم الصباح و ستكونون انتم الصـباح ، وسـترون أكثر وأبعد وأعمق ، ومن فشـلنا تستفيـدون ، ومن هـزيمتنا تستمدون أسباب الانتصار ــ القادم على أيديكم لا بد ٠

★★★

أم كان ــ وهو فى الحقيقة ــ نعمة ؟!
اذن لماذا تحول ــ على أيدينا طبعا الى نقمة ٠

مونوثا وريحونا

★ فى لندن : اعتقلت السلطات البريطانيــــة ١٦٠ متظاهرا من بين أكثر من ألفى متظاهر تجمعــوا أمام مقــر رئيسة الحكومة البريطانية ونظم بعضهم اعتصــاما خــارج المقر ٠

وقد أعلنت تاتشر انها وضعت جميع المنشآت العسكرية والحكومية البريطانية فى حالة تأهب استعدادا لأية عمليات ارهابية ٠

وأكد نبيل كينوك زعيم المعارضـــة العمالية فى مجلس العموم البريطانى ادانته لموقف حكومة تاتشر ٠

★ وفى روما : اتهم بنيتو كراكسى رئيس وزراء ايطاليا الولايات المتحدة بعدم احترام المبادىء التى تحكم تحالفها مع أوروبا الغربية وذلك بالقيام بغاراتها الجوية عــلى ليبيا ـ وقال ان حكومته لم تتلق أية اشارة مسبقة بخطط الهجوم ٠

★ وفى برلين الغربية : قامت عشرات المظاهرات أمس فى انحاء ألمانيا الغربية احتجاجا على العــدوان الاميركى ،

واشتبك المتظاهرون مع البوليس مما أدى لاصابة كثير منهم بجراح ٠

وقد انتقدت المعارضة الديمقراطية الاشتراكية العدوان الاميركى ٠

★ وفى مدريد : اندلعت موجة من المظاهرات فى العاصمة الاسبانية بمدينة برشلونة احتجاجا على العدوان الاميركى وقام نحو ألفى شخص بالتظاهر أمام السفارة الاميركية ووضعت القوات البحرية والجوية الاسبانية فى حالة تأهب تام ٠

★ وفى باريس : أكد رولان دوما وزير الخارجية الفرنسى السابق أن الهجوم الاميركى ضد ليبيا يهدد الأمن والاستقرار فى منطقة البحر الأبيض المتوسط وانه سيؤدى الى تصعيد حدة التوتر والأعمال الارهابية فى العالم ٠

★ وفى واشنطن : أصدرت الحكومة الاميركية أوامرها بتشديد اجراءات الأمن على رحلات الطائرات الاميركية فى المطارات الأجنبية وصرح « برنارد كالب » المتحدث باسم الخارجية الاميركية بان على الأمريكيين المسافرين الى الخارج التزام الحذر فى الفترة المقبلة ٠

★★★

أوروبا الغربية كلها ، حليفة أميركا ، قامت للعدوان الاميركى على هذا الشعب العربى المسلم الصغير ، ليس فقط من أجل انه صغير اعتدت عليه دولة كبرى عيانا جهارا وفى وضح النهار وبكل ما يمكن ان يشكل ارهابا من نوع جديد تقوم به دولة كبرى دون أن تراعى الرأى العام العالمى أو حتى تقاليد الدول فى قليل أو كثير ، مما يشكل مرحلة جديدة

فى تاريخ العالم هى مرحلة القوة الاميركية الريغانية الغاشمة ، التى لا بد ان تقف الانسانية كلها ، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ضدها ، ولكن لان هذه الدول الأوروبية نفسها ـ اذا ساد هذا القانون ـ قد تقع ضحية لنفس ما تتعرض له ليبيا اذا هى احتدت فى خلافها السياسى مع أميركا أو الوقوف ضد مشاريعها العدوانية • وتعالوا بنا الآن نرى ردود فعل العدوان الاميركى المجرم على الشعب الليبى فى عالمنا العربى •

★ فى الرباط : ادانت المغرب رسميا العدوان الاميركى وأعلن الملك الحسن الثانى فى برقية بعث بها للعقيد الليبى معمر القذافى عن مساندة المغرب وتضامنه مع الشعب الليبى •

★ وفى عمان : عززت سلطات الاردن قوات البوليس الخاصة بمكافحة الشغب ـ بقوات من الجيش لحماية المصالح والمنشآت الاميركية والبريطانية •

★ وفى أبو ظبى : أعلنت دولة الامارات العربية عن الغاء اجتماع وزارى مشترك كان مقررا عقده اليوم مع بريطانيا لتنمية وتطوير العلاقات بين الدولتين وذلك احتجاجا على موافقة بريطانيا على استخدام واشنطن لقواعدها لضرب ليبيا •

★ وفى تونس : اعلنت منظمة التحرير الفلسطينية ادانتها الكاملة للعدوان الاميركى ووقوفها الى جانب الشعب الليبى ـ كما أعربت عن اندهاشها لموقف بريطانيا من الحادث •

★ وفي الكويت أعلن الشيخ صباح الأحمد وزير الخارجية تأييد الكويت لعقد قمة عربية لبحث الغارة •

★ وفى الظهران عقد مجلس الوزراء السعودى اجتماعا طارئا برياسة جلالة الملك فهد ملك السعودية لبحث آخر تطورات الغارة الاميركية على ليبيا • وكانت السعودية قد أدانت العدوان الاميركى على الشعب الليبى وأعربت عن أسفها لهذه الأساليب التى تتعارض مع كافة الاتفاقات الدولية •

★ وفى الخرطوم ذكرت وكالة الأنباء السودانية ان السودان قد قررت استدعاء صلاح أحمد محمد صلاح سفيرها فى واشنطن للتشاور عقب الغارة الاميركية على ليبيا • واضافت أن حوالى عشرة آلاف من المتظاهرين قاموا صباح أمس بتسليم مذكرة الى الحكومة يطالبونها بقطع العلاقات الديبلوماسية مع أميركا •

★ وأخيرا فى القاهرة : عرضت الحكومة المصرية على السلطات الليبية مساعدات طبية لعلاج الجرحى بعد ان كان قد صرح وزير الاعلام عقب اجتماع مجلس الوزراء باستنكار الحكومة المصرية للغارة على الشعب الليبى الشقيق •

شجب • استنكار • بحث • استنفار القوات لحماية السفارات الأميركية والبريطانية • اقتراح لعقد مؤتمر قمة « لبحث » الوضع •

وكأن ما حدث كان مفاجأة هبطت على العالم العربى كما يحدث الرعد فجأة وكأن أميركا لم تضرب منشآت خليج سرت منذ أيام ، وتحدثت منذ ذلك التاريخ عن انها لن تكف عن غاراتها على ليبيا • وكأن العالم كله ، بما فيه المواطنون العاديون فى العالم العربى ، لم يكونوا يتحدثون عن الوضع ، وعما يمكن عمله •

أما المضحك حقا فانه فى وسط هذه المعمعة التى يتعرض

لها الشعب الليبى ان يقيم مجلس الشعب المصرى محاكمة جنائية صارخة لابراهيم شكرى رئيس حزب العمل ، لانه فى وسط المعمعة قام بزيارة ليبيا ومقابلة القذافى لابلاغه وقوف جماهير حزب العمل الاشتراكى مع الشعب الليبى فى معركته ضد الامبريالية العالمية المجرمة ·

اعتقد أنه من استعراضنا لتلك البرقيات التى أوردتها وكالات الأنباء العالمية ونشرتها صحف العالم بما فيها الصحف العربية ، نستطيع ان ندرك بلا أى اعمال للذكاء اننا من جراء حكامنا والطريقة التى نحكم بها ــ فى قضية كبرى لا يعلم مداها سوى الله ·

لا هم ينسقون عسكريا فيما بينهم ولو حتى لاستعراض القوة ولا هم يتركون شعوبهم لتقوم بواجب المؤازرة وتخويف هذا الغول الأحمق المدعو أميركا ·

ولا هم يتحسبون لكل أمر حسابه قبل ان يقع ، فيتباحثون قبل ان يقع ، ويقلبون الأمر على وجوهه قبل أن يقع ، ويتخذون القرارات وبدائل القرارات ، قبل ان يقع ، ولكنهم ينتظرون الى أن يقع ما يقع ، ليوقعونا نحن فى حيرة ، ماذا نستطيع أو يستطيعون أن يفعلوا تجاه هذا الأمر (المفاجىء) الذى لم يكن فى حسبانهم على انه كان فى حسبان العالم أجمع ·

★★★

ان الهجوم الاميركى على ليبيا والهجوم الاميركى على الطائرة المصرية والهجوم الاميركى الاسرائيلى على لبنان ، والهجوم الايرانى على العراق وهجوم بعض الفلسطينيين على منظمة التحرير وهجوم سورية عليها وعلى لبنان ، وهجوم جنوب السودان على شمال السودان ، وهجوم الحبشة على

اريتيريا ، وهجوم اليمن على اليمن ، كل تلك أعمال عنف ، بمعنى أن باستطاعة كل دولة عربية ، أو كل قبيلة أو طائفة ان تستعمل الاسلحة وتجيش الجيوش وتهاجم ، ولكن تهاجم من ؟ تلك هى المشكلة • انها بارعة شديدة البراعة والكفاءة فى الهجوم على جارتها العربية ، أو طائفتها المشاركة لها فى نفس الوطن ، أما الهجوم على العدو الحقيقى اسرائيل واسرائيل الكبرى (أميركا) فهو أمر غير وارد ، وحتى اذا حدث الهجوم منهما فالتصدى له غير وارد أيضا الا بالشجب والدراسة ، ورفع سارية اجتماع القمة الذى لا يجتمع أبدا، باختصار ، التصدى له يكون تصدى المهزوم المسحوق ، الخائف المرتعش ، بينما الاستشهاد والعنترة لا تكون الا ضد العرب المساكين من أمثالهم ومن بنى جلدتهم •

بصراحة أكتب هذه الكلمات وأنا فى حالة غثيان بالغ ، فمنذ وعيي بعروبتى وأنا أعتز بها وأشمخ ، وأدافع حتى عن بعض أخطائها ، ومنذ وعيى بعروبتى وأنا أحلم لها ولها أكتب ، وقريحتى تعمل من أجلها ، وطموحى هو جزء لا يتجزأ من طموحها ، انتصاراتها انتصاراتى وهزائمها هى أمراضى ونكساتى • وقد كنت وأنا أرى الأحوال تتدهور ، والأمة بشعوبها وحكوماتها المختلفة تنحدر الى أسفل وأسفل ، أطمئن النفس ، وأقول ، ان هى الا سحابة صيف ستمر ، وان هى الا عثرة الشاطر سيقوم بعدها وتنتصب قامته ••

ولكن العكس كان يحدث تماما ، فسحابة الصيف تتغامق حتى تسود السماء ، والعثرة تتحول الى سقطة فى حاجة الى كل روافع العالم لانتشالنا منها •

وما حزنى فقط على ما جرى ويجرى لشعب ليبيا ، فتاريخ الأمة العربية الحديث منذ الخمسينات الى الآن حافل

بالعدوان تلو العدوان والحرب تلو الحرب ، وسقوط مئات الآلاف من الشهداء وتخريب المدن والمصانع والمدارس والمستشفيات • وما حدث ويحدث وسوف يحدث لليبيا انما هو اضافة لقائمة طويلة من المآسى والنكبات أصيبت بها الأمة ولا تزال •

كل ما فى الأمر أن الشعوب لا تسكت على هزائمها أبدا ، فبعد هزيمة ٦٧ بدأت مصر وسورية فى الاستعداد لرد العدوان في حرب ٧٣ ، ولبنان لم يسكت على الاحتلال الاميركى واجتثه اجتثاثا ولا يزال فى حرب طاحنة مع اسرائيل لولا الطائفية البغيضة التى تفت فى عضده وتشل بمعظم قواه وعضلاته • والغريب انى لا زلت لم أفقد الأمل ، لا زلت أعتقد اننا نستطيع ان نحزم أمورنا ونجمع شملنا ونقف فى شجاعة الرجال نصون أرضنا وعرضنا وعروبتنا واسلامنا •

فهل هو مجرد حلم آخر من أحلام اليقظة ؟

اللهم ان كان الأمر كذلك فانى سأفعل كما فعل الشاعر اسماعيل الحبروك ، حين قال أيام الاحتلال البريطانى :

سأنام حتى لا أرى بلدى تباع وتشترى

أو كما قال الشاعر الشعبى مأمون الشناوى :

ياتبلشفونا ••• ترسملونا •• ياتموتونا وتريحونا

ملعون أبوكم على أبونا

وآسف للغة الشوارع التى أنهيت بها القصيدة ، فلم يعد أمامنا سوى استعمال أبشع الكلمات ، للتعبير عن أبشع الأوضاع التى صارت اليها أمتنا ، بفضل سياسة حكامها الأماجد والاشاوس •

على هامش الحرائق النفطية

حين فاجأتنا محطات الاذاعة والصحف بأنباء الحريق الذى حدث فى محطات البترول فى الكويت ، وأحسسنا هنا فى القاهرة وكأن الحريق قد شب فى صدر كل منا • فالحريق كان من الواضح انه بفعل فاعل ، وفاعل ممن تأويهم الكويت وتمنحهم العمل ولقمة العيش والوجود • وليس فى القاهرة وحدها ، اعتقد أن كل عربى من المحيط الى الخليج قد شعر بغصة فى حلقه ، فالمال مال العرب جميعا ، حتى وان كانوا بعيدين عن مصادره ، والكارثة اذا أصابت بلدا عربيا انما فى حقيقة أمرها تصيب الأمة جمعاء •

اننا أمة مستهدفة محسودة •

فى زياراتى الكثيرة حتى لاميركا، كنت أحس بالاميركان وهم يتحدثون عن العرب وبترول العرب بنبرة حسد واستكثار لا تخطئها العين فهم يستكثرون علينا هذه الثروة ، ويستكثرون على بلادنا أن يتفجر من صحراواتها أكسير العصر ، مصدر الطاقة ، الذى يعتمد عليه فى كل أمر من أمور حياتهم •

واذا كان هذا شعور الغرب ، فالكويت أيضا محسودة من قبل بعض الأنظمة العربية والاسلامية ·

ليس على بترولها فقط ·

وعلى طريقتها شبه الاشتراكية فى توزيع عوائد النفط، بحيث نستطيع القول ان الشعب الكويتى كله بطريقة أو بأخرى قد ناله حظ وافر من عائدات البترول ·

ولكن الحسد الأكبر سببه أن هذه العوائد البترولية الضخمة لم يصاحبها قيام حكومات دكتاتورية غاشمة تستولى على العائد وتتولى انفاقه كما يحلو لها ، أو أحيانا كما يحلو لرئيسها ، وانما صاحب ذلك النماء المطرد فى الثروة نماء مطرد أيضا فى الديمقراطية ، وفى اشراك الشعب فى كل أمر من أمور حياته الى درجة أن يصل فيها الأمر حد أن يسحب مجلس الأمة الكويتى الثقة من وزير ويقيله وهو الأمر الذى لم يحدث فى بلد عربى أثناء كل الحقبة الأخيرة من هذا القرن · يقيله رئيس الدولة أو يعينه ، يطرده أو يبقيه ، يرفعه الى أعلى عليين أو يهوى به الى أسفل سافلين ، هذا كله يصنعه رئيس الدولة ، أما أن يتولى نواب الشعب هذا فهو أمر يضع الحكم والنظام الكويتى فى درجة رفيعة من الحياة الديمقراطية ·

وأعتقد أن هذه الدرجة هى المسؤولة الأولى عن ضربة الحريق ، وقبلها ضربة محاولة اغتيال سمو الأمير ، والقنابل والمفرقعات · انهم يريدون ليس ضرب الثروة فقط ، وانما يريدون أولا ضرب النظام الذى يجيد ويحسن استغلال الثروة ، ويجيد ويحسن حكم المواطنين ويرعاهم ويسمح لهم بحريات سياسية واسعة تكاد تصل الى نفس الحريات التى يتمتع بها المواطن فى أرض الدول الأوروبية ذات التقاليد العريقة فى تاريخ ديمقراطيتها ·

ذلك لانه ، من خلال هـذه الديمقراطيـة الحـاكمة ، استطاعت الكويت ان تتخذ مواقف أصيلة جديرة بشـعبها ، لا تتخذها عن خوف من اغتيال أو عبث أعـوان ومخابرات وانما تتخذها لانها الواجب والأصح وعين الصواب ·

والهدف من كل هذا التخريب ، كما هو واضح لكل ذى عينين ، ان تغير الكويت من سياستها ، وطالما نظامها هـذا باق فسياسته لا بد باقية ، ولذلك فالهدف فى النهاية هـو ضرب النظام الـكويتى وارعـاب الـكويتيين حتى يؤثرون السلامة ، ويسيرون ــ كما نقول فى مصر ــ بجوار الحائط ·

وهذا شىء أستطيع أن أؤكده ــ وأنا بعيد عن مجريـات الحوادث والأمور ــ أنه بالتأكيد لن يحدث طـالما بقى فى الكويت رجل أو امرأة ·

فالذى يذوق طعم العزة لا يمكن أن يستسلم للقهر ·

والذى يذوق طعم الارادة الحرة لا يمكن أن يرضى بقيود العبد ·

ولن يرضى أى كويتى عن نظامـه وعن الطريقـة التى اختارها لحياته بديلا · لقد جعلتنى الظروف أتعرف الى كثير من اخوانى الكويتيين ، رجال أعمال ، ومثقفين ، وفنانين ، وأطباء ومهندسين وتجار ، وحتى سائقين وعمال ·

وكان يعجبنى فى أى منهم ، مهما كان مركـزه ، ومهما كان وضعه الاجتماعى ، ذلـك الاعتزاز العظيم بكويتيته ، وذلك الانتماء الأكبر لقوميته العربية ، ولعـالمه الاسلامى الكبير ، شعب من خيرة أبناء هـذه الأمـة · ولهـذا فهم مستهدفون · وقد حسب هؤلاء الذين يفكرون كالأطفـال الاشرار ، وأحيانا كالمتعصبين المجانين أو متخلفى العقول ، أن

بضع قنابل هنا ، أو بضع حرائق هناك كفيلة بأن تغير مجرى النهر العظيم الذى يشكل شعب الكويت، وأنا لا أستطيع أن أرثى لهم لانهم مجانين وأطفال متخلفو العقول ، ولكننى أستطيع أن أؤكد أن دوام الحال من المحال ، وان الكويت ، والأمة كلها لن تبقى مستهدفة وساكنة الى أبد الآبدين ، فان الضربات التى لا تقتل تقوى وتشدد من عزيمة الاحياء ،وهذه الضربات الموجهة الى الكويت والى الفلسطينيين ، والى كثير من مناطق العالم العربى ، لن تجعل أيا منهم يركع ، انما هو سيتلقى ، وبتلقيه سيقوى ، الى أن يحين الحين وننقض جميعا على أس البلاء والشر ، وتكون ضربتنا هى القاضية • ذلك لاننا شعب كبير لن تفنيه الضربات مهما كانت قوتها ، قد توجعه قليلا ولكنها أبدا أبدا لن تفنيه ، بل هى التى ستنبهه دائما الى مكامن الخطر ، وتشحذ أسلحته للمقاومة ، وتهيئه لكى يقف ويتحرك حركة رجل واحد ويضرب ، وضربة الشعوب قاصمة لا تبقى ولا تذر • وستكون ضربة شعبنا باذن الله قاصمة لا تبقى ولا تذر •

فيا اخواننا وأصدقاءنا فى الكويت • لا يحزننكم هذا الحريق أو غيره فمعناه الأوحد أن الكويت على حق ، وانها هى وليس أعداؤها ، على صواب ، وصمود الشعب الكويتى وحكامه على هذا البلاء العابر ، الدليل ، أقوى دليل على أن هذه الأحداث تقويه ولا تضعفه وتجعله أكثر اصرارا على طريقه وطريقته ولا تنحرف به أو تجعله يتردد أو يؤثر جانب السلامة والاستسلام •

اننا جميعا معكم ، صحيح لا نملك لكم ـ الآن على الأقل ـ الا قلوبنا نضعها بجوار قلوبكم ، ولكن هذا وضع أبدا لن يدوم ، فللظالم جولة وهذه جولته •

وغدا ستكون جولتنا •

وهذا ليس كلام انشاء وأدب · انه الحقيقة التى يعلمنا التاريخ أياها فدولة الظلم ساعة ودولة العـــدل الى قيـــام الساعة ، وهذا أيضا ليس تلاعبا بالألفاظ انه حكمة الجنس البشرى صاغها فى قانون · ولن يهرب أعــداؤنا أبدا من قوانين التاريخ ·

فقوانين التاريخ لا ترحم ·

★★★

تيبس المفاصل الفكرية والارادية :

لا أعرف ما هو سر ذلك الدقيق أو الغبار المثبط الذى يتسلل داخل وحول خلايا جسد الانسان ومخه فى بلادنا • قضيت معظم العام الماضى مسافرا خارج مصر ، وكنت أثناء السفر وأنا أنظر من نافذة الطائرة أو العربة أو القطار ، وأنا سائر أحث الخطى فى قلب شوارع لندن أو لوس أنجلوس أو وارسو أو حتى قرية أوروبية نائية ومتواضعة • كنت وأنا أرى الغابة أو النهر الصغير ، وأنا أرى الشاب والفتاة والرجل والطفل والمرأة أو حتى العجوز سائرين ، نشيطين ، مسرعين فى الشارع ، كنت أحس بعقلى ينشط ويعمل هو الآخر بكل ما يملك من أحصنة وكأنه تحول الى معمل أفكار مزدحم ، تتوالد فيه الأفكار بمعدل فكرة فى كل دقيقة ، وترتطم ، وتتناغم ، ثم فى أحيان كثيرة أخرج باستنتاج أو بفكرة رائعة هائلة • كنت أحس أن الموحيات والأفكار وكأنها طيور النورس قادمة فى أفواج تلو أفواج لبحيرة عقلى المليئة بالسمك والطعام تصفق بأجنحتها فرحا • وتهفهف ، وتصطخب ، تزغرد وتلهو ، وتتعابث وتتلاقح ، تصعد وأصعد معها الى السماء ثم تنقض على الهدف فى سرعة انقضاض البرق •

أكثر من عشرة أفكار قصص تعن لى فى اليوم الواحد ، مشاريع تغير مجرى الحياة تماما ، مغامرات فكرية ونفسية تتفجر فى أعماقى ، اقبال على الحياة منقطع النظير • خطط لآماد بعيدة وقريبة ، تجميع لكل ما مر بى من ماض ليصبح حاضرا وواقعا أراه ، استحضار لكل آفاق المستقبل ، ليلتقى الماضى والحاضر والآتى عند النقطة التى تركز وتقطر العمر ، وتحصل منه على ثمرة ، أو تراجع موقعه من الكون والحياة • حركة دائبة فى اتجاه التحقيق الفورى لكل ما أراه يصلح من أفكار أو من مشاريع ، اقدام لا حد له ، اندفاع ، أعقل اندفاع مجنون فى اتجاه المستقبل وتحقيق الذات ، وتطوير النزوة لتصبح اكتشافا وخطة •• باختصار حياة مليئة كاملة ، أضرب فيها بأذرعى لتصل الى أقصى المعمورة ، وأحلق فيها بأفكارى لتشمل (مجرتنا) كلها وتغوص أقدامى الى أعمق أعماق تاريخ العالم وترتفع لتحلق فى القرن الخامس والعشرين وربما الثلاثين •

هكذا أكون وأنا مسافر ، وأنا فى الخارج ، وأنا بعيد ، وأعود ، وبقوة الاندفاع الذاتى أبقى هكذا للأيام الثلاثة الأولى أو ربما للأسبوع الأول ، مسافرا لا أزال فى الاكوان الخاصة والعامة ، خلاقا ، قادرا على تحقيق كل ما يجول فى الخاطر •

ثم يبدأ الدقيق الناعم ، الرمل الخفى الأصفر ، التراب الذرى المنطفىء ، يبدأ يتسرب •• فى العادة كنت لا أحس ولا أعى بمقدمه ، ان هو الا هبوط تدريجى يبدأ يصيب الهمة ، تأتى الفكرة فأؤجلها الى أن (يروق المزاج) فى الليل ، وفى الليل لا بد يأتى ما يؤجل روقان المزاج ، يعن لى المشروع فأقول : هذا ليس بمشروع عاجل ، أو هذا ممكن تأجيله ، وما فائدة أن يبدأ الانسان شيئا (مجنونا) كهذا ، الحياة

سائرة وكل شيء ممكن أن يمضى هكذا سائرا وحده الى الابد، يبدأ الغبار يفعل فعله ، ويبدأ الانسان (يطمئن) الى الواقع، ثم (يركن) اليه ، ثم (يتلاءم) معه ، ويفقد الطموح ، الى تغييره أو الاطاحة به • تبدأ الأفكار تقل ثم تندر ثم تتلاشى، وقوة الخلق تتضاءل والكتابة التى كانت مبهجـــة ورائعـــة ومتلألئه ، كالهدف الساطع الجميل ، تصبح عبئا ، ويووه •• لسه ح اقعد على المكتب لأربع أو خمس ساعات !!

ويؤوب الانسان فى النهاية الى حالة (الموت ـ الحياة) ، تلك التى نحياها جميعا •

★★★

كنت أظن أن هذه حالتى الخاصة ، ولكن وجدتها الظاهرة العامة المستشرية ، هناك شيء ما ، حقيقى ومروع وخطير ، ولكنه غير مرئى أو مسموع وقاتم فى حيـــاتنا ، بيننا ، ونزفره ، ونعدى به بعضنا بعضا • نرتديه ونركبه ونلبسه ونطعمه • شيء ما لست أدرى كنهه ، ولكنى أعـــرف تماما مفعوله ، شيء مثبط أو كاسر للهمـــة ، ومخمـــد للطموح ، ومضيع للهدف ، وخانق لكل فكرة ومشروع ومشل لأى ارادة، قائم وماثل فى حياتنا • وهو ليس ـ كما يتصور البعض ـ خاص بمصر وحدها ، ولكنه الجو العام فى مشرقنا العربى وغير العربى كله ، شيء وكأنه (الانزيم) المضـــاد للنشاط ، وكانه الطعم الواقى من العمل والتفكير ، وكانه قد أصبح الخاصية القومية التى تميز مرحلتنا (المجيدة) الحالية •

ما هو ذلك الشيء ؟

أهو فقدان الهمة الفكرية القيادية الموحدة ؟

أهو هذه الاعداد الهائلة من البشر التى معها يحب المواطن منها الانسانية مجردة ولكنه بالتأكيد يكره (الانسان) ، أو

يكره هذه الكتل المتراصة من الانسان · تخيل ذلك الكائن الراقى النادر · أرقى وأعظم وأجمل ما فى الوجود ، حين يتحول الى مجرد رقم عشرى تكتم أنفاسه ملايين من أرقام عشرية أخرى ، حبذا لو اختفى معظمها ، أو اختصر أو اندثر ليبقى للتفرد البشرى قيمته وروعته ومجده ·

أهى الشمس الحامية الساطعة التى تجعل الواقع شديد الاضاءة بكل ما فيه من بشاعة وقبح ، بحيث ينعدم الجمال تماما أمام العين ، وحين لا يرى الانسان الوجود جميلا ، أو يراه قبيحا ، يتولى القبح أو انعدام الجمال اخماد حاسة الهمة والنزوة الخالقة لدى الانسان ؟ أهو الكسل الجماعى المسيطر ، يعدى ، كالانفلونزا الآسيوية ، وحين ترى الناس جميعا كسالى أو متكاسلين ، فأى مبادرة منك لابد مصيرها الاختناق والاهمال ·

والكسل الجماعى هذا فى رأيى نقطة هامة ·· فاذا كان بعض الناس يعتنقون التفسير الاقتصادى ، أو الاجتماعى أو السياسى للتاريخ فأنا شخصيا أفسر مرحلتنا التاريخية الحالية بما يمكن أن أسميه « التفسير الكسلى للتاريخ » وللواقع أيضا كل شىء ممكن أن نفسره بالكسل ، حتى استلقاء متفرجنا فى مسرح أو سينما أو أمام التليفزيون (ليتفرج) على عمل فنى عبيط يقهقه له قهقهات حنجرية جوفاء ، سببه الكسل ، كسلا عن أن يقرأ كتابا أو يشهد عملا يضطر معه أن (يعمل) عقله فيه ···

بل حتى تسليم المرأة لنفسها أو تسليم المرأة للرجل ، أحيانا كثيرة لا يكون عن تحلل أو انحلال وانما عن كسل أن يقاوم المرء أو المرأة ، فيرتكب الزلل كسلا ···

أم يكون السبب اننا مطحونون تقديريا ، سواء التقدير

المادى أو الأدبى ، بحيث يتساوى من يعمل بمن لا يعمل ، وبحيث أن من يعمل ويعرق فعلا ينال الفتات ؛ أما من يرشو أو يرتشى أو يتاجر حراما فهو ـ بكسل ـ يكسب الملايين • فتلك هى أكسل وليست فقط أحرم الوسائل للحصول على نفوذ • حتى كبار أغنيائنا لا يشكلون طبقة رأسمالية نشطة تبنى صناعة أو تقيم مشاريع ضخمة تحتاج الدراسة والجهد، وانما هى رأسمالية كسولة هدفها الربح من أكسل طريق ، أى أحرم طريق •

أم هى المشاكل الصغيرة الصغيرة التى تستحيل كل منها الى مشكلة كبيرة كبيرة حين لا تستطيع أن تجد لها حلا ، وتتولى ، كذرات الدقيق أو الرمال الناعمة الترسب فى مفاصلك الفكرية والنفسية لتحيلك فى النهاية الى ذلك الكائن المقعد اراديا أو الفاقد للارادة كلية ، الموكل الى العناية الالهية أن تحل لك المشاكل ، فى حين أن الله سبحانه قال : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » • والحديث الشريف يقول : اعقلها وتوكل • أى افعل الواجب عليك من عمل أولا ثم اترك الباقى للمولى • بل كثيرا ما نستعمل كلمة (الصبر) لنخفى بها الكسل ، فنقول : أصبر على الشىء وكل شىء سيكون عال العال • آه من ذلك الصبر الذى يحفل به تراثنا الفكرى والشعبى • انه ذلك العدو القاتل للارادة وللعزيمة • الصبر • ذلك الاستسلام المروض البغيض للمشاكل حتى يموت طموحك لحلها • ذلك الاعتماد المتهافت على (الزمن) لكى يحلها أو يحلك أنت وتحلل معه عزيمتك •

أفى تراث أى شعب فى الدنيا مثل يقول : الكسل أحلى مذاقا من العسل • الا ذلك التراث العظيم •• تراثنا •

أم هذا كله ، مرة واحدة ، ومعا ، يكون ذلك الدقيق

الرملى الناعم الذى يتسلل داخل وخارج وحول خلايا مخك وارادتك وجسدك ويحيلنا الى تلك (الاجـــولة) البشرية السمينة تتحرك فى بــطء قاتــل اللا هـــدف واللا خطــة واللا عجلة لتصنع فى النهاية ٠٠ لا شىء ٠٠ وحياتك ، لا شىء مطلقا تصنع ٠



خريف البطريرك ٠٠ وصيفنا

على (بلاج) البحر اصطحبت (ماركيز) ٠ ليس أروع من القراءة على صوت الموسيقى الهادئة الهادرة المتصلة بالبحر وهو يلامس فى عناق عنيف رمال الشاطىء ٠ هناك تستطيع أن تقرأ وبين الحين والحين ترفع رأسك وترمق الأفق البعيد ثم تمسح سطح البحر بعينيك متراجعا الى أن تصل الى حيث المستحمين ، وصراخ الأطفال السعيد ، والشماسى ٠ ثم لا بد أن ترفع عينيك فورا بعد هذا والا اصطكت بجماعات المكدسين من متوسطى العمر وكبارهم المكومة المتزاحمة على رمـــال الشاطىء تحت الشماسى ٠ فان منظرهم ، فى الحقيقة ، يغم ٠ ان فكرة عناق الطبيعة والذهاب الى الشـــواطىء والغابات وصمود الجبال ، أخذناها من أوروبـــا ، وأوروبـــا نفسها اعتنقتها بعدما بشر بها فيلسوف فرنسى لا أذكر اسمه الآن ، بناء على نظرية فلسفية عميقة تقول ان الانســـان هــو ابن لصيق للطبيعة ، وان الحياة الحديثة (ولم تكن أبدا حديثة فى ذلك الوقت اذ كان هذا فى أواخر القرن السابع عشر على ما أذكر) تلك الحياة أخذت الانسان من قلب أمه الأرض بكل تضاريسها ومياهها وجبالها وأودعته علبا يسمونها بيوتا أو

شققا ، وخنقته فى شوارع ضيقة وحارات وأزقة • وان لابد للانسان لكى يستعيد توازنه أن يخلع عن نفسه هذا كله ويعود مرة أخرى ابنا للطبيعة البكر ، يذهب الى البحر والمحيط ويسبح أو يتمشى ويصعد الجبال ، يبيت فى الغابات • وان زاد هذا التغير فى المحيط يغير فى النفس البشرية ويجلو عنها صدأ الحياة المملة الراكدة الرتيبة المحترقة في الحجرات • كان شعار ذلك الفيلسوف هو (العودة للطبيعة) كأثر حتمى لاعادة توازن النفس البشرية •

وكمقلدين للغرب باستمرار ، أخذنا هذا المبدأ عنهم ، ولكننا أخذناه كما نأخذ (المودة) فى كثير من الأحيان ، لا عن فهم حقيقى لما تعنيه (المودة) والسبب فى ظهورها ، وانما عن رغبة فى التقليد ليس الا •

ولكن انظر الى (بلاجاتنا) واعجب ما شاء لك العجب ، فالأسرة مكومة لا يتحرك أفرادها تحت الشمسية • قد استعدت لفلسفة الارتماء فى أحضان الطبيعة بكميات وافرة من المشروبات والمأكولات حتى المحشى ، تجده معهم • جالسين طوال اليوم بلا أدنى حركة ، قد غطوا أجسادهم حتى لا تراها أى شمس ، أو تلحقها أى نسمة هواء ، وحين انتشرت مودة (الحجاب) ، صرنا نرى النساء محجبات وأثوابهن طويلة طولا لا حد له ، بل انى رأيت بعض المنقبات فى بلاجات الاسكندرية • مع أن أصل اللجوء الى أحضان البحر أو الطبيعة أن ينفض الانسان عن نفسه كل ما يستطيعه من أردية مصنوعة ومصطنعة ، وان يتعرى جسده أو معظمه لا عن استعراض ودنس للأجساد وانما عن رغبة حقيقية فى تعريض جسده الأصفر الشاحب الى أشعة الشمس والهواء النقى حتى تعود مسام جسده تتنفس ، فى حرية ، وحتى تتطهر رئتاه من الادخنة والشوائب ويعود لجلده لونه وصحته •

للأسف أخذنا قشرة الفكرة ولم نأخذ محتواها الحقيقي ، وهكذا تحولت بلاجاتنا الى مآكل ومشارب ، في الحقيقة تضر الصحة ولا تنفعها ، وحسبنا ان نرى الماء وكأن مجرد رؤيته تجعلنا نحس اننا نستحم فيه ونعوم ، وحسبنا أن نرى الشمس ، وكأن مجرد رؤيتها سيكسبنا الصحة والعافية ٠ (وبالمناسبة فكرة اللجوء الى أحضان الطبيعة ليست غريبة علينا نحن العرب ، فأنا أعرف عادة أهل الجزيرة العربية كلها من الطلوع الى البر) كما نقول والبيات فيه ٠ وهي نفسها بالضبط مبنية على الأسس الفلسفية للخروج الى الطبيعة البكر أو بالأصح العودة اليها ٠

★★★

نعود الى (ماركيز)

أو بالأصح جابرييل جارثيا ماركيز أنبغ كتاب أميركا اللاتينية والحاصل في العام قبل الماضي على جائزة نوبل للأدب عن روايته الرائعة (مائة عام من الوحدة) ، أو بالمعنى الأدق كثيرا (مائة عام من العزلة) ٠

قرأت هذه الرواية قبيل حصول ماركيز على جائزة نوبل وقرأتها بالانجليزية وكانت سمعة ماركيز قد بدأت تستشرى في العواصم الأوروبية فسمعت عنه في باريس ولندن واستوكهلم ، واشتريت كتابه ومجموعة قصص له ، وبدأت بقراءة الرواية ، وفي الحقيقة حين انتهيت من قراءة الصفحات الخمسين الأولى كنت منبهورا أشد الانبهار فها هو كاتب من عالمنا الثالث ، يغوص في قاعه وفولكلوره ويخرج لنا بطريقة جديدة تماما في كتابة الرواية ، جديدة على العالم الغربي هذا صحيح ، ولكنك كقارىء عربي تحس فيها أصداء من ألف ليلة وليلة وأثارا عربية كثيرة أخرى في طريقة

القص ، وفى حياة الأبطال ، تجعلك تكشف أن آثار العرب على الأسبان ، وعلى البرتغال ، كان قويا جدا ، الى الدرجة التى انطبعت فيها تلك الآثار على حياتهم بطريقة لا تمحى • مازلت أذكر مثلا ما نسميها فى محافظة الشرقية (محافظتنا بالمناسبة) بـ (السحارة) أو ذلك الصندوق المبرقش بألوانه الزاهية والذى يعتبر جزءا لا يتجزأ من جهاز أى عروس ، ففيه (قبل كل فكرة الدولاب) تضع العروس وتحفظ ملابسها ومصاغها ، وكل مقتنياتها الغالية • أنا شخصيا لازلت أذكر (سحارة) جدتى أو بالأصح أم جدتى التى ربتنى صغيرا وعاشت الى أن جاوزت المائة عام • وكان محظورا عليها شرب القهوة وكانت ابنتها (جدتى) شديدة الصرامة معها في هذا ، وشديدة الصرامة معى أيضا • وكنا نحن الاثنين أنا وأمها نتآمر عليها ، فكنت أسرق لها البن والسكر من (مجامع) جدتى التى كانت تحتفظ بها فيما نسميه (الصفة) أو الشيء القديم المقابل لدولاب المطبخ أو حتى الفريجيدير اذ كان يحتفظ فيه باللبن والبن والسكر والزبدة والجبن ••• الخ • كنت أسرق لها البن والسكر •• واستعير لها قليلا من « المضغة » من جدى ، وكان طيبيا وانسانا ومتسامحا مع أن جدتى كانت تبخل عليه بثمن هذا الدخان الذى يمضغ • وكانت أم جدتى تجازينى عن هذا كله بأروع وأجمل جزاء فقد كانت تحكى لى عن تاريخ عائلتنا ، وعن فرحها ، وعن التقاليد القديمة التى انحدرت الينا مع أصولنا العربية اذ أن عائلة أمى أصلها من الجزيرة العربية • وكانت أحيانا يروق لها تماما حين تتذكر الأيام الخوالى فتبدأ تغنى الأغانى القديمة التى زفت بها ، والغريب اننى سمعت نفس هذه الأغانى يغنيها بعض أهل البادية فى الكويت والسعودية ، باختلاف قليل فى اللهجة ، اذ كان ممتزجا بطريقة الغناء الكنسى ، القبطى كما سمعته فى زفاف نجل أحد أصدقائى

الاقباط يغنى فى حفل اكليله • وهو غناء يبدو لك وكأنه خيط طويل متصل •• ولكنى الآن أستطيع وأنا أسترجع تلك الأغانى أن أعتز فيها على أصالة التعبير الغنائى العربى ، فالغناء الشرقى هو فى حقيقة أمره غناء تركى يختلط بغناء ايرانى • أما الغناء العربى فانك لا بد واجـــده فى بعض أجزاء متناثرة من الجزيرة العربية أو كما وجدته أنـــا فى آغانى جدتى •

جعلنى ماركيز ــ سامحه الله ــ أسرح مع عائلتى وجدتى وأم جدتى فالحقيقة أنه عن عمد أكتشف ان الاصـــالة ليست كلمة ولكنهـــا غوص حقيقى فى التراث الشعبى والاغـــانى الشعبيـــة والتقـــاليد الشعبية ، مع رفعهـــا الى درجة الحداثة التكنيكية أو لغة العصر السائد فى الدنيا كلها الآن • وهى معـــادلة • الغريب انهـــا لم تراود (ماركيز) فقط ولكنهـــا راودتنا هنا قبله بكثير ، فحين بدأت كتابة القصة القصيرة فى الخمسينات ، كان هذا هو هدفى الذى لم أحد عنه وان كنت دائم التطوير له • ونفس الشيء بشرت به فى عام ١٩٦٣ فى مقالاتى نحو مسرح مصرى ــ نحو مسرح عربى ، والتى على أساسها كتبت مسرحية (الفرافير) مستمدة من صميم تراثنا المسرحى الشعبى • اذن نحن كنا ــ عفوا يا ماركيز ــ قبلك بكثير ، نضمر هذا ونكتبه •

ولكن براعة ماركيز انه كتب بهذه الطريقة الروائية • فى حين أن روايتنـــا العربيـــة لا تزال ســـائرة على الـــدرب الأوروبى سواء درب بلزاك والتسجيليين كما كتبه كتـــاب القرن التاسع عشر أو كتاب الرواية الحديثة التى تأثر بهـــا الروائيون الجدد مثل الان روب جرييه وناتالى ساروت •

ماركيز أخرج الرواية تماما من ثوبها الأوروبى وكساها ثوبا أميركيا جنوبيا أسبانى الأصل • فالأسبان الأول حـــين

هاجروا واحتلوا أميركا الوسطى والجنوبية من المكسيك الى أقصى طرف في الجنوب الاميركى • حملوا معهم كل ما التقطته الشخصية الأسبانية من الغرب • ولم يلبسها الثوب الاميركى الجنوبى ولكن بالتحديد الثوب الكاريبى • ولقد ذكر لى أكبر الناشرين فى أميركا وانجلترا أن أعظم أدبين معاصرين هما الأدب الكاريبى المعاصر والأدب العربى المعاصر • كل ما فى الأمر أن الأدب الكاريبى حظه أحسن ، لانه يكتب بالأسبانية ، وهناك آلاف من الانجليز والاميركيين والفرنسيين والألمان يتقنون اللغة الاسبانية ولذلك ، تمت ترجمة ذلك الأدب وانتشر بشدة فى العالم الغربى بالذات •

والحقيقة أن هذا ليس السبب فى انتشار الأدب الكاريبى فقد أخذ الكتاب الكاريبيون فى كولومبيا (بلد ماركيز) وجواتيمالا وكوبا وغيرها يطورون من فكرة الأصالة حتى توج ماركيز ذلك البحث باكتشاف طريقة كاريبية حقيقية لكتابة الرواية • والرواية هى الفن الكتابى الأول فى العالم الغربى ، ذلك أن القصة القصيرة لا توجد الا حيث يولد كاتب قصة قصيرة موهوب موهبة نادرة ، فلا شىء اسمه (حركة) القصة القصيرة فى العالم العربى أو الغربى ، دائما توجد فلتات موهبة لكتابة القصة القصيرة على مدى التاريخ الانسانى كله • فبينما هناك العشرات والمئات من كتاب الرواية على طول التاريخ الانسانى فكتاب القصة القصيرة ، وكتاب المسرح ، عددهم قليل جدا • ففى التاريخ الغربى الحديث كله لا يوجد الا كتاب نبغوا فى كتابة القصة القصيرة وطوروها بوكاشيو الايطالى ، ثم موباسان الفرنسى ، ثم ادجار لان بو الاميركى ، ثم تشيكوف الروسى ، وتستطيع بصعوبة بالغة ان تحشر معهم وليم سارويان الاسبانى الاميركى ، وكاتب هندى آخر اشتهر لانه يكتب بالانجليزية •

بعد الصفحات الخمسين التى انتهيت منهـا ، عـاودت القراءة فى اليوم التالى ووجدت أنى بعد أقل من عشر صفحات أعانى صعوبة بالغـة فى استمرار القراءة ، ذلـك أن الذى روعنى فى مبدأ الأمر كان هو جدة الطريقة وروعتها ولكن لكتاب الرواية قدرا غريبا على الصبر ، وأنا بطبيعتى ملول لا أحتمل الصبر ، اذ يصبر كتاب الرواية ويستطيعـون أن يكدحوا بالكتابة يوميا وفى دأب شديد ويغرقـوا أنفسـهم وقراءهم فى تفاصيل كثيرة جدا وشخصيات حتى أنى كتبت جدولا بأسماء شخصيات ماركيز وأوصافهم لأتعرف عليهم كلما ورد ذكرهم فى ثنايا الرواية •

وكدت أدع الرواية جانبا ولا أكملها وقد مللت • وكنا فى الشهر الثامن فعلا والدنيا صيف لا تزال ، لم أستطـع اكمالها ، وركنتها جانبا ، ولكن فى الشهر التاسـع أعلنت جائزة نوبل فاذا بماركيز يفوز بها • وكان على أن أعود الى الرواية لاكمالها • وأقول لكم الحق ــ وليقـل عـلى النقاد ما يشاءون ــ انى أكملتها بصعوبة بالغة • فلماركيز طريقة فى الكتابة تحتاج لصبر كثير لمتابعتها ، فهو دائما يعود ويكرر ما قاله دائما بطريقة مختلفة قليلا أو كثيرا عن المرة السابقة ، ولا أزال أتذكر أنه فى روايته (مائة عام من العزلة) سمى أبطاله نفس الأسماء فكان يقول جابرييل الثانى عشر أو رامون الخامس ، وهكذا ، ويختلط عليك الأمر ، وترجـع للجدول الذى كتبته وبالكاد تستطيع أن تتابع ما جرى عـلى رامون العاشر ليصبح رامون الحادى عشر •

واكتشفت فى النهاية أن ماركيز يقصد بهذا أن يقول ان الأشخاص هم نفس الأشخاص رغم توالى وفاتهم وميلادهم • ذلك أنه كان يتحدث عن الفئة الحاكمة فى أميركـا الوسطى

والجنوبية ، وهم في الغالب جنرالات اذ أن أميركا الجنوبية تحيا منذ أكثر من مائة عام على الانقلابات العسكرية ٠

وفي روايتـه التي (فرغت) من قراءتهـا (خـريف البطريرك) وهي مترجمة ترجمة (شامية) الى العربيـة أو بالأصح ترجمة لبنانية ٠ وأنا في الحقيقـة مع احترامي للمترجمين اللبنانيين الا أن طريقتهم في استعمال اللغـة العربية مختلفة تماما عن طريقتنا في مصر أو في أي مكان آخر من الوطن العربي ، حتى أني لأول مرة أعود للقاموس المحيط لمعرفة بعض معاني الكلمات التي أوردهـا الاستاذ المترجم ، وخاصة ان الطيور والأشجار في هذه الروايـة (خريف البطريرك) التي هي في حقيقتها لوحة هجاء طولها يقارب الثلاثمائة صفحـة للدكتاتوريين العسكريين الذين يحكمون معظم بلدان أميركـا اللاتينية ــ واذا كانت وسطى أم جنوبية ، لم اقرأ في حياتي هجاء بهذا الطول والاحكام والروعة ٠

ان ماركيز يتحدث عن البطريرك الذي كان باستطاعته أن يغير الوقت فقد صحا ذات يوم على أثر أرق وكانت الساعة الثالثة صباحا فقرر في التو أنهاالثامنة صباحا فأصـدر مرسوما جمهوريا بذلك ، وكانت النتيجة أن سلم الشعب بهذا الهذيان ورسموا الشمس طالعة على الجدران وصحوا من النوم وزاولوا نشاطهم وكأنهم في الثامنة صباحا فعلا ٠ وقد تكون هذه مبالغة ولكنها مبالغة تشبه ذلك القـول المـأثور من ان الكلام الهزل الذي يحوي كثيرا من الحقيقة ٠ فقد كان يحكم مصر ذات عام من مئات الأعوام الحاكم بأمر الله الذي أصدر قرارا بأن يعمل الناس ليلا في مصر وينامون بالنهار ، لان النهار حار ، والليل جوه لطيف يغري بالعمل ٠ وأصدر أمرا

كذلك بمنع أكل (الملوخية) ونفذ الشعب القرار وأشرفت الشرطة على تنفيذه ٠

بطريرك ماركيز أوقف الشمس مرة ، وأمر بمرور النجم المذنب فمر ، وسأل مرة حاشيته عن كم الساعة ، فقالوا له : الساعة التى تريدها يا فخامة الرئيس ٠ ماذا تريدها بالضبط لتكون ٠ يمسك ماركيز بتلابيب هـذا البطريرك العكوى ويرسم حياته بمسمار جدارى رفيع النهاية كالابرة ، ينحت به لوحات اثر لوحات ، لوحـات مبالـغ فيهـا ، سيرياليـة ، وواقعيـة جـدا ، وانطباعيـة ، وتكعيبيـة ، وتخريفية ، ومهووسة وفاجرة وداعرة ومتطرفة ـ يا الهى ـ لكم أورد ماركيز من الأوصاف المقرفة حقا ٠

فى روايته ما يدفعك للقىء ، ولا يتوانى عن استخـدام ألفاظ تقشعر لها أبدان القراء فى عالمنا العربى لو ذكرت ، ألفاظ (قبيحة) ومكشوفة ويكتب أحيانا بروث البهـائم ، وأحيانا بروث الآدميين ، أو بمؤخراتهم ، ولا يهم الطريقة لو فعلها أى كاتب منا فى عالمنا العربى لصلب وجلد ورجم ودمغ الى الابد ٠ كل الخرافات الشعبية عن الجنس هنـاك والذى لا بد كانت جدودها وجداتها عنده حواديت ألف ليلة وليلة وكتاب رجوع الشيخ الى صباه والكامار سوتزا الهندى٠

يختلط فى روايته الجد بالهزل بالسخرية بالمبالغـات بالخرافات بالحقائق انه كتب بعض أجزاء هـذه الروايـة بجسده كله ، بركلاته ، بقبضاته ، ببصاقه أحيانا ، وكأنـه طفل مجنون أطلق له العنان ليفعل بالقارىء ما يشاء ٠ ويقول ويكتب أى شىء أعود وأقول أى شىء يخطر له عن البطل أو عن غيره من شخصيات الرواية ، فى حرية ، بل الأصح من انطلاق لا يحده حاجز من لغة أو تقاليد أو قيم أو دين أو حتى عقيدة، أى عقيدة ٠

كان هذا هو انطباعي لدى قراءتي للخمسين صفحة الأولى أيضا ، كما حدث لي مع روايته ، مائة عام من العزلة • ثم وجدت كل شيء بعد هذا لدى ماركيز يكرر نفسه عود على بدء • صور ورؤى اخرى ترفعك الى منتهى الشاعرية وتنحط بك ــ لا مؤاخذة ــ الى أسفل سافلين من اللفظ أو الصورة أو المعنى •

وكففت عن القراءة ، فلم يعد جديدا فى الرواية ، انما هو افتعال وتجديد لنفس ونفس الطريقة بصور أخرى وبشخصيات خانعة للدكتاتور العظيم جديدة ولكنها فى نفس الوقت مكررة •

ان كتابة ماركيز تشبه سلسلة من الدوائر المتداخلة ، فهو فى صفحاته الأولى يرسم الرواية كلها • (وهنا قصة البطريرك من بداية قلبه لنظام الحكم السابق الى حالة الشيخوخة التى انتابته بعد مائتى عام من العمر والشيخوخة المقرفة المجوجة الصارخة القبح) ، يرسم الرواية كلها فى صفحة أو بضع صفحات ، ثم يعود يرسمها فى دائرة حول الدائرة الأولى دائما أكبر ، ثم يعود يرسمها فى دائرة ثالثة أكبر وأكبر ، وهكذا لا بد حين تقرؤه ان توطن نفسك على أن تظل تدور وتدور وحين تنغلق دائرة تجد نفسك فى الصفحة التالية فى محيط نفس الدائرة ، ودائما على اتساع أكبر وهكذا •

وهذه طريقة (ماركيزية) تماما فى الكتابة ، يخيل الى انها خاصة بماركيز وحده ، وأنا شخصيا لا تهمنى طريقة الكاتب ، فلكل شيخ أو كاتب طريقته ، ان ما يهمنى حقيقة هو كم ما أحصل عليه سواء من متعة مضمون أو متعة شرح • والحقيقة أن متعتى بروايه خريف البطريرك ، وقد تابعت قراءتها بصعوبة بالغة وقد وصلت روحى في أحيان الى الحلقوم

من كثرة تكرار التفاصيل والأسماء والوقائع ، تابعت قراءتها لشغفى بكل ما أورده ماركيز عن الحياة في أميركا الوسطى ، تلك البلاد ذات المناخ الرطب الممطر الحار ، الحافلة بالبراكين والخرافات ، خرافات البر والبحر والغابات والأساطير ، فيها كل ما في الجو الاستوائى من اختناق ، وكل ما في الناس من حيوية وطيبة وفقر وذل ، نتيجة للحكام العسكريين الذين تدعمهم ــ كما يقول ماركيز في روايته ــ ثلاث سفن من حاملات (المارينز) أو جنود الاسطول الاميركى ٠

بلاد غريبة عنا تماما وقريبة بالدم منا جدا ٠

والمصادفة المحضة هى التى جعلتنى أقرأ (خريف البطريرك) وأتشبع وجدانيا بها ، فى نفس الوقت الذى أتابع فيه مباريات كأس العالم المذاعة من المكسيك ، التى وان كانت تمت الى الجزء الشمالى من أميركا الا أن أصلها الأسبانى الهندى الأحمر قريب الصلة جدا بأميركا الوسطى والجنوبية ٠

جولة فى عقول القراء

جولة خطيرة داخل العقـــل المصرى وفى أحيـان كثيرة العربى ، وجدتنى غارقا فيها • جاءت الخطـــابات ردا على محاورتى التى بدأتها مع الاستاذ خالد محمد خالد حـــول مفهومه الأخير عن الحكم الاسلامى وتطبيق الشريعة • والتى اجابنى عنها وتدخل الدكتور فرج فودة مشكورا ثم أخيرا الاستاذ الكبير الدكتور فؤاد زكريا •

جولة خطيرة لاننى لأول مرة أتلقى هذا العدد الرهيب من الخطابات حول موضوع واحـد وتجيئنى خطـــابات من مختلف قطاعات الشعب بـــدءا من كبـــار رجـال القضـــاء والسياسيين والقادة الى تلامذة المـــدارس الثانويـــة وحتى الاعدادية الى العمال والحرفيين وبعض الفلاحين والمزارعين • وكم كان بودى ـ ولا يزال هذا قصدى ـ أن أهـــدى تلـك الرسائل الى قادة الأحزاب السياسية • وبالـــذات الى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام والجامعات لانها بمثابة كشف بالاشعة على الوجدان والعقل المصريين وأخـذ فكرة مهمة عن محتوياته ومكوناته • تلك التى لا يتاح لنا رؤيتها فى معظم الأحيان • ولندع الموضوع جانبا فسنأتى له

حالا ، ونتعرف أولا على شكل تلك الخطابات • فقد لاحظت ارتقاء غريبا فى أسلوب الحوار • سواء معى أو ضـدى • ومنطقا هادئا فى أحيان • مشتعل الجذوة فى أحيان أخرى • ولكن دائما هناك (منطق) ما وأساس حوار • وهـذا شىء مفرح حقا • فقد كانت المعارضة للرأى تتخذ شكل السباب والاتهامات فى معظم الأحيان • أما هذه المـرة فشىء غريب الا أجد خطاب سباب واحد • ليس هذا فقط بل ان الجميع ، حتى من يعارضون يفترضون حسن النية فى الكاتب وصدقه فى الايمان بما يقول وأقصى تأنيب يرد هو دعوة الله سبحانه (لهدايته) •

نحن فعلا ـ مهما نقدنا أنفسنا • شعب متحضر حقا • ولهذا فانى أعتقد ان كل الدعاوى الداعية الى التطرف دعاوى تزرع أو تستزرع فى أرض مصر • ولكنها دائما وابدا تبقى بلا جذور فان طبيعة شعبنا تكره من أعماق قلبهـا التعصب الأعمى المقيت • فـما بالـك بالعنف المتعصب أو التعصب العنيف • انها موجات • تثور أحيانا ـ ربما لأسباب لا علاقة لها البتة بالقضية أو العقيدة أو الدين ولكن سرعان ما يؤوب الشعب أو طائفته الى الحكمة وتغلب عليه طبيعته المتحضرة • ليس عبثا اذن أننا أقدم أو من أقدم الشعوب الموجودة عـلى سطح الأرض • والقدم هنا هو العراقة البشرية • وتراكم الخبرات والمعارف والثقافات • بحيث تترسب طبقات التحضر بعضها فوق بعض • وتؤدى فى النهاية الى انساننا اليوم • ذلك الانسان الذى ما ذهبت الى بلد أوروبى أو غير أوروبى وسألت الشخص أو الأشخاص الذين زاروا مصر عـن أحسن ما أعجبهم فيها ولدهشتى كنت لا أسمع كلمة الأهرام أو أبى الهول أو المتحف أو أسوان الجميلة ولكن الاجماع على أن الشعب المصرى ودماثة طبعه وحلو معشره ورغبته المستمرة

فى محاولة مساعدة الغير والشهامة فى معاملـــة الغريب ٠ الاجماع على أن الشعب المصرى هو أجمل ما فى مصر ٠ وحتى حين حاولت مرة أن أختبر حماس كاتب سويسرى زار القاهرة ومكث فيها شهرا وقلت له : ان النظافة فى القاهرة سيئة كما لا بد أن لاحظت ٠ اجابنى اجابة غريبة قائلا : ان القذارة فى القاهرة موجودة فى الشارع والحارة ٠ ولكن الشوارع هنا (يقصد سويسرا) نظيفة جدا كما تـــرى فى حين أن القذارة موجودة داخل العقول ٠ أما شعبكم فعقوله من الداخل أنظف بكثير من أية سويسرا ٠

وأستطيع أن أقسم تلك الخطابات تقســيما رئيســيا وأقول : ان ستين فى المائة منها تصـور انى ضـد تطبيق الشرع الالهى وأخذ يسوق حججـه (لاقناعى) عـلى هـذا الأساس ٠ بالتفصيل والتحديد وأحيانا فى خطـابات من خمسين صفحة ٠

أما الذى دهشت له حقا فهو ان هناك نسبة كبيرة جـدا فهمت تماما ما أعنيه وأيـدتنى فيمـا ذهبت اليه وراحت بدورها تسوق حججها للدولة على رأيها وكأن كلا منهم يكتب مقالة أو يتصور ان خطابه سينشر ٠ وكم كان بودى ان أفعل مع هؤلاء وهؤلاء ولكن العملية مستحيلة تماما ٠ فالكم هائل والاستحالة مؤكدة ٠ أجل أدهشنى ان عددا كبيرا جدا من الناس أفرج هذا الحوار الذى دار بين الاستاذ خالد محمـد خالد وبينى قد أفرج عن آرائهم التى كانوا يحبسونها امـا خوفا واما ترددا ولا مبالاة واما عدم ادراك لخطورة المشكلة وأبعادها ٠ هؤلاء أسعدهم كسر هذا (التابو) أو المحرم الذى كان يحول بين الانسان وبين مناقشة ــ مجرد مناقشة ــ قضية تتعلق ليس فقط بمجتمعه الحاضر وحياته بل به هو شخصيا وبعائلته وأولاده ومستقبل بلادنا القادم كله ٠ كيف يمكن

لقضية كهذه ان توضع موضع التحريم بحيث يعتبر أى متصد لها كافرا أو ملحدا أو زنديقا • وكأن بعض الناس قد أقاموا من أنفسهم أوصياء على المصريين يفكرون لهم ويشرعون ويفرضون الرأى بالقوة أو بالكثرة غير عابثين مطلقا بأن هناك مواطنين آخرين • مخلصين مثلهم تماما • ومؤمنين مثلهم تماما ولهم نفس الحق فى قول الرأى أو مناقشة الرأى اذا قيل • بل مناقشة حق هؤلاء الناس فى (فرض) الرأى • واتهام من يعارضه بالخروج من جنة الدين وسماحة الاسلام •

وبالمناسبة أقول : ان هذا التطرف فى فرض الوصاية والتعصب على المسلمين يقابله فى الناحية الأخرى تعصب من بعض المتطرفين الاقباط • وهذا ، وان بدا طبيعيا ، الا انه فى النهاية لا يقل سوءا عن التطرف فى الناحية الاسلامية •

★★★

أما الذى لفت نظرى حقا فهو أن معظم الخطابات التى شابها التشنج والعصبية جاءت من بعض المصريين الذين يعملون فى دولة بترولية عربية وبعض مواطنى تلك الدولة • وهذا شيء فى نظرى لا غرابة فيه بالمرة فان الطريقة التى يطبق بها الاسلام وينادى بتطبيقه فى تلك الدولة طريقة متشنجة متعصبة لا تأخذ من الاسلام سوى قشرته الظاهرية من لباس أو قناع وتترك روحه ورسالته الانسانية الحضارية الكبرى جانبا • لأن الاسلام لو طبق تطبيقا حقيقيا سليما لتقوضت أنظمة كثيرة ترفع راية القشرة الاسلامية وتتجاهل عن عمد جوهره العظيم •

ومن « أمثلة » تلك الخطابات عدد منها يسائلنى باستنكار

كبير : كيف أجادل فى تطبيق شريعة الله وأنادى بتطبيق تلك القوانين الوضعية التى يضعها البشر .

وهذا هو لب الموضوع فان أحدا لا ينادى أبدا بعدم تطبيق الشريعة الالهية الاسلامية . انه يكون مجنونا لو فعل . فالشرائع السماوية كلها وعلى رأسها الاسلام فوق انها أمر الله سبحانه وتعالى الا انها لم تأت الا لتقيم العدل بين البشر . العدل السياسى بمبدأ الشورى . والعدل الاقتصادى بمبدأ الزكاة . والعدل الاجتماعى بالمساواة التامة بين البشر . من هو المجنون الذى يعترض على شريعة الله معاذ الله . انما المشكلة ايها الاخوان العاملون هناك ان الشريعة حقا وصدقا شريعة الله ولكن من يطبق تلك الشريعة ؟ . مرة أخرى أتساءل من سيطبق أو يطبق تلك الشريعة ؟ أليسوا هم البشر ؟ . أليس هم اناس مثلى ومثلك حتى لو كانوا من فطاحل الفقهاء . اذن الشريعة شريعة الله ولكن التطبيق يبقى دائما وأبدا من صنع البشر ومن أفعالهم ومن آرائهم وبهذا لا يكون للمطبق نفس قداسة الشريعة . فالشريعة سماوية والمطبق بشر . عرضة لأخطاء البشر وأهواء البشر .

ودعونا نأخذ مثلا طازجا وأخيرا .. الاستاذ الكبير خالد محمد خالد .. وهو من هو ممن لا نشك لحظة فى صدق دعواه واجتهاداته ، يقول : ان تطبيق الشريعة لا بد ان يحتوى على أن تكون الأمة مصدر السلطات . وان المسلمين يختارون ممثليهم وحاكمهم بالانتخاب الحر المباشر ، وان الحقوق الديمقراطية الكاملة مشروعة وواجبة للمواطن المسلم وغير المسلم ، مثل حق ابداء الرأى وحرية العقيدة الى آخر ما يغطى ما يسمى بالحقوق الديمقراطية للمواطن كافة فى العالم المتحضر الآن . ويجىء شيخنا الكبير الاستاذ عمر التلمسانى ليعطى تفسيرا مختلفا تماما لتطبيق الشريعة .

باعتبار ان فكرة الديمقراطية نفسها فكرة غير اسلامية وله مقال في جريدة الشعب حول هذا الموضوع ، لا يتناقض فقط مع آراء الاستاذ خالد محمد خالد ولكنه يكاد يعارضها تماما جملة وتفصيلا .. ثم تقرأ للاستاذ الدكتور عمر عبد الرحمن كتابا يقول شيئا ثالثا مختلفا تماما مع الاستاذين الجليلين . وعماد هذا القول ان الأمة ليست مصدر السلطات ولكن الله سبحانه وتعالى هو مصدر السلطات بمعنى ان القرآن الكريم هو مصدر السلطات . ولكن الدكتور عمر لم يخبرنا عمن سيفسر لنا ما ورد في القرآن الكريم من أحكام . حتى لو كان هو المفسر . أليس هو بشرا ، أليس هو مواطنا مصريا . أليس هو واحدا من شعب كبير له نفس الحق ان يختار من يحكمه وان يلزم الحاكم بالشورى ويحاسبه . أم ان الحاكم سيكتسب — في رأى الدكتور عمر عبد الرحمن — سلطات الهيبة بحيث لا يمكن محاسبته وهو الأمر الذى لم يزعمه أبدا خلفاء النبي صلى الله عليه وسلم الذين قالوا وهم أحباء النبي وأصدقاؤه والأعمدة التي قام عليها الاسلام نفسه : ان رأيتم فينا اعوجاجا فقومونا . اذن هم لم يأتوا باسم حق الهى ان يحكموا المسلمين وانما جاءوا نتيجة ترشيح من الأمة أو من أمير المؤمنين الأسبق ولم يصبحوا خلفاء وأمراء للمؤمنين الا ببيعة (أو انتخاب حر مباشر) قام به كل مسلم في المدينة آنذاك .

من هذا الاختلاف ترون أيها الاخوة ان القضية ليست شريعة الله . فهذا أمر لا خلاف عليه . انما القضية الحقيقية هي التفسير البشرى والتطبيق البشرى لتلك الشريعة السمحاء واختلاف البشر لانهم بشر ولكونهم بشرا في اجتهاداتهم لتطبيق تلك الشريعة .

وهذا هو عين ما تساءلت عنه في مقالى الأول للاستاذ

خالد محمد خالد : شريعة من نطبقها ؟ لم يكن تساؤلا حول المبدأ الالهى الذى لا نقاش فيه وانما عن الاجتهادات والاهواء البشرية فى تطبيق تلك الشريعة · فجعفر نميرى (طبق) الشريعة وأرغم السودانيين أو بعضهم على الأقل بان يبايعوه (اماما) لمسلمي السودان مدى الحياة · وفرح كثير من الدعاة المصريين ان نميرى قد هداه اللــه وطبق شريعته ولــكن تقويض حكم نميرى لم يوقفه هذا التمسح والتسربل بالدين ذلك أن الدين ليس تكأة للطغاة الحاكمين يتسترون وراءه ويعيثون بعد هذا فى الأرض فسادا · الدين العقيدة هــو أسمى ما يفعله الناس بحياتهم ولا يمكن ان يكون وسيلــة طاغ أوديكتاتور ·

فى سياحتى تلك داخل عقول كثير من القــراء ادركت واكتشفت ان ثمة غسل مخ خطيرا قد حدث ويحدث للانسان المصرى والعربى وان هذا الغسل قد قام به بعض الدعاة الذين تربعوا على عرش وســائل الاعــلام · ورغــم استنكــارهم للحضارة الغربية ومساوئها فان نفس وسائل تلك الحضارة وعلى رأسها التليفزيون هى التى اتخذوها وسيلة لغسل مخ المواطنين الطيبين البسطاء الذين يعبدون الله عن حب وليس عن رهبة · وعن رغبة فى طاعته وليس خوفا من داعية أو تنظيم ·

ان التليفزيون فى عصرنا الحاضر قد أصبح هو صانــع عقل المواطن وتفكيره · فالخطابات التى جاءتنى كان معظمها يردد كالببغاء ما ألقى فى عقلــــه من مفهومات من خــلال التليفزيون · والمشكلة هى ان تليفزيوننا مثله مثل بقيــة التليفزيونات العربية لا يتيح الفرصة للرأى الآخر · أو حتى للمناقشة أو حتى الاستفسار · انه يجعل الناس تجلس هكذا كالمسلوبة العقل والارادة تستمع لما يلقى عليها ويحفظ لها

(بتشديد الفاء) وكأنهم أطفال فى كتاب · وهكذا يتعود عقل المواطن على أن يستقبل فقط ويردد فقط ويكف عن التفكير تماما انتظارا للداعية ان يفكر له وان يعطيه الأوامر · انها مأساة حقيقية صنعتها وسائل الاعلام والنقود المنصبة على الالسنة والاقلام والهدف فى النهاية · أقولها لكم وأهتف بها : تقويض مصر ، مصر الايمان ومصر العقل· مصر العلم ومصر الثقافة ، ليتيح لهذه الدولة أو تلك ان تحتل مكانتها فى قيادة العالم العربى والاسلامى · ولكن ·· عبثا ما يحاولون · فالزبد سيذهب جفاء وما ينفع الناس سيبقى ـ ان شاء الله ـ فى الأرض · أرض مصر العامرة يا تابعى وزارات الاعلام فى بعض الدول التى تهب رياحها الشرقية تحمل لنا التخلف والجمود وتريد ان ترجع بنا القهقرى عسانا نتأخر وتتقدم هى · فلننتبه الى ما يراد بنا وللأسف على أيدى بعض المصريين · مرة أخرى أكتفى بالاشارة هنا فالمسألة قد زادت على حدها · وتدخل تلك الدولة للعبث بالايمان المسلم المصرى والعقل المصرى قد زاد على حده · ولا بد معه من وقفة صريحة واضحة نضع فيها النقط فوق الحروف · ونخرج النقود من الجيوب ونتفحصها لنعرف فى أى بلد صكت ·

اننا مسلمون أبا عن جد ، مسلمون بالميلاد ومسلمون بالاختيار ولا نريد العبث بايماننا هذا ، ونرفض هذا العبث وندينه والمسألة فى حاجة الى صرامة مطلقة نعالج بها هذا الخطر القادم من الشرق ··

الجائزة رقم ٤٠ مليون

وصلني هذا الخطاب ، من خطابات كثيرة ، جعلني أفكر فعلا في تبني بريد القراء وأن أتولى مسئوليته • وقلت هذا الخاطر للاصدقاء وللزملاء فكان محل دهشتهم ، ذلك ان باب البريد في أى جريدة أو مجلة يعهد به في معظم الأحيان الى محرر ناشىء أو ربما تحت التمرين ، باعتبار أن ليس عليه سوى أن يختار بعض الخطابات ، أو مقتطفات منها وينشرها ، وتلك مهمة لا تستدعى أية موهبة خاصة أو خبرة أو محرر أو كاتب كبير من كتاب المجلة أو الجريدة •

أنا شخصيا كنت أرى العكس تماما ، وكنت ولا أزال أعتقد ان بريد القراء هو أهم أبواب المجلة ، اذا نظر اليه من زاوية تفعل كالمنشور الزجاجي وتحلل عوامله ومكوناته ، وطالما تمنيت أن أتولى الاشراف على هذا الباب رغم ادراكى انه ، بالطريقة التى آراه بها ، عبء شاق كبير على أن أحمله فوق كتفى ••

ذلك انه ، في مجمله ، رجع الصدى ، والاشارات ، الخافتة في أحيان كثيرة التى ترد من الطرف الآخر للكون

وتقول ما معناه : نحن هنا •• ونحن نرى كذا أو كذا ، ونحن نتفق معكم فى كذا ونختلف اختلافا جذريا فى هذه النقطة أو تلك •

فصحافتنا ، مثل معظم وسائل اعلامنا ، ان لم تكن كلها ، هى محطات ارسال تمسك فيها بالميكروفون أو بالقلم وهات يا كلام أو هات يا كتابة ••

أما ردود أفعال تلك الكلمات أو الكتابات فهى أشياء غير مهمة بالمرة لدى وسائل اعلامنا • يكفى أن المكتوب أو المذاع شىء يرضى عنه كاتبه أو قائله أو أحيانا ترضى عنه السلطة أو أصحاب الجريدة ، أما القارىء فهو يأتى فى آخر قائمة المهتم بأمرهم •

وعلى طول السنين وكثرتها ، وشيوع الطريقة وذيوعها ، خلق اعلامنا نوعا جديدا غريبا من القراء والمستمعين والمشاهدين ، ذلك النوع الذى لا عمل له الا التلقى ، وهو فى حالة سلبية كاملة ، ما يقال له أو يشاهده • يسترخى أمام الشاشة الصغيرة أو الكبيرة ، يمسك بالجريدة أو المجلة أو الكتاب ، تتدفق الكلمات أو المشاهد متتالية فى عقله المستسلم تماما لها ، هو قابل لها ، لا يناقش ، لا يتشكك ، لا يجادل ، قد يقتنع أو لا يقتنع ، ليس هذا هو المهم ، المهم انه حتى لو لم يقتنع ، يفعل هذا بسلبية المستسلم المغلوب على أمره •

بمعنى آخر ان وسائل اعلامنا ، باستمرارها طول الأربع والعشرين ساعة وبكافة الأنواع والأحجام والمواد تحيل مواطننا فى النهاية ، أو بمعنى أدق تحيل عقله الى جهاز كسول ، لا يعمل ، ولا يهمه أن يعمل ، لا يكدح طلبا للمعرفة أو لتقصى الحقيقة ، ولكنه راض تماما بدوره هذا الذى لا يكلفه أى عناء • وهكذا حين يتطلب الأمر أو تتطلب أوضاع

الوطن ردود أفعال ايجابية ، غالبا ما نفتقدها ، فنحن بالتنويم الاعلامى من طرف واحد ، خلقنا مواطنا غير مطلوب منه أى رد فعل • باعتبار أن السلطة فى الوطن العربى تعتبر أن أى رد فعل للمواطن سيكون ضدها ، لماذا ؟ لا تسلنى ، بل سل هذه العقلية السلطوية التى تريد أن تمـــلأ كل قـــطر من أقطارها ، باقفاص أرانب ، تأكل ، وتتفرج على التليفزيون وتتناسل بمعدل مولود كل ثانية •

ولهذا اخترت أن أحرر هذا الباب • فمجلتنا تلك مجلة جديدة ، ولأول مرة يتاح لى أن أختار ما أفعله ، وهى ليست جديدة من باب الصدور الجديد فقط ولكن نريدها فعلا أن تكون جديدة من حيث دورها •

باختصار نحن نصدرها لنغير من دور المجـــلة أو دور الصحافة فى عالمنا العربى • ولست أزعم أنى أعرف كـــل المعرفة كيف سيمكننا هذا ، أو اذا كنا سنطبق أصلا ، ولكن تلك هى نيتى ، ونية الأصدقاء والزملاء الذين تجمعهم تلك المجلة •

★★★

ولانها جديدة ، فان بريدهـــا لم يأت بعد • وأنـــا فى انتظاره • ولهذا سأستخرج من بريدى السابق خطابا احتفظ به فى درج مكتبى فى مكان خاص منذ عدة شهور • ان أنواعا وأكداسا من الخطابات ترد ، ولكن هذا الخطاب بالذات أثر فى بطريقة صممت على الاحتفاظ به ، لماذا ، لست أدرى ، ربما لانه كان مقدرا له أن أفتتح به هذا الباب فى مجلتنـــا العزيزة تلك •

ولم أفعل هذا لأن الخطاب يحتوى أشياء خطيرة أو مشاكل

عويصة أو أى شيء ، الحقيقة أن الخطاب لا يوجد به أى مشكلة بالمرة ، ولا يطالب بحل ، ولا يهيب بالمسئولين عن كذا أن يفعلوا كذا ، ولا يصرخ بظلم وقع عليه .. لا شيء من هذا أبدا ..

اليكم نص الخطاب ، وبعده لنا كلام :

أهديك التحية والحقيقة أنا مرتبكة تماما وأنا أكتب لك ، فتلك أول مرة أفكر فيها أن أكتب خطابا لانسان لا أعرفه ، فما بالك اذا كان هذا الانسان كاتبا معروفا مثلك .

قرأت مقالك الأخير الذى تتحدث فيه عن مشاكل القاهرة ، وازدحام شوارعها الخانق ، وارتباك المرور ، و (الزبالة) التى تحتل أماكن كثيرة دون أدنى عناية بحملها وتنظيف الشوارع منها . قرأت تعجبك من ازدحام الاوتوبيسات وعدم انتظام مواعيدها ، وعطل التليفونات . قرأت هذا كله وأنا أحس بالغيظ ليس من المشاكل التى ذكرتها ، ولكن منكم انتم يا سكان القاهرة . أحس بالغيظ والحسد لان لديكم هذه المشاكل كلها ، ومشغولون بها وبحلولها . ولا بد انك ستسألنى لماذا أحس بالغيظ والحسد منكم والاجابة انى أحيا فى مجتمع بلا مشاكل على الاطلاق . أنا من مدينة (...) ووالدى يعمل موظفا فى تلك المدينة ، ولى شقيقان وشقيقة أخرى ، وأنا أكبر الجميع وقد انهيت فترة تعليمى الجامعى فأجلسنى أبى فى البيت انتظر العريس . وهانذا جالسة انتظر العريس ، أصحو من النوم ولا أعرف لماذا أصحو ، كل ما فى الأمر أن الصباح قد جاء ، والناس يصحون فى الصباح ، ولكن الناس فى البلاد التى فيها مشاكل مثلكم يصحون ويرتدون ثيابهم ويخرجون ويفعلون هذا بحماس

لان لديهم ما يفعلونه • أنا أصحو وليس أمامى أى هدف ، ولا أنتظر أن ينكشف النهار عن مفاجأة ما ، فأنا أعرف بالضبط ما سيحدث اليوم لان مثله قد حدث بالأمس، مساعدة أمى فى اعداد الافطار وترتيب البيت ، ثم التمدد لقراءة ما يجود به علينا أبونا من جرائد ومجلات فهو لا يريد لنا أن نقرأ المجلات الفاضحة ، تلك التى تنشر قصص الحب وأخبار النجوم المنحلات ، وأنتهى من المجلات بعد ساعة ثم أجلس أو أتمدد أو أنام ، سيان ، حتى ان مضى الوقت لا يهمنى ، فأنا أعرف ما سيأتى به الوقت ففى الثالثة سيأتى أبى لنكون أنا وأمى وبقية اخوتى قد حضرنا الغذاء ، وسنجلس جميعا حوله ، وسيحدثنا أبونا عن مشاكله مع رئيسه المشاكس فى العمل ومع زميله الجبان الخسيس ومقالبه ، وينتهى الغذاء لينام أبى قيلولته ، وتتمدد بجواره أمى غير نائمة ولكن هكذا تعودت ، وفى الغالب أبقى أنا الوحيدة المستيقظة • حتى اذا ما جاء بعد الظهر وبدأنا فتح التليفزيون راجع أبى البرامج بدقة واختارها بعناية حتى لا يكون فيها فيلم لسعاد حسنى أو حسين فهمى بالذات لانه يعرف اننا مولعون به ، وينتهى التليفزيون وآوى الى فراشى، بجسد كسول غير متعب ، وعيون تريد أن تنام ولكن العقل صاح ، وبعد صراع طويل أنام ، أنام وأنا أعرف أن الغد لن يأتى بجديد ، واننى سأصحو لاجد يوما طويلا مملا آخر أحياه •

اننى يا سيدى تعيسة جدا بهذه الحياة ، ولا أعرف ماذا أستطيع أن أفعل لأخفف من تعاستى • ذات مرة دفعتنى حالتى تلك الى الموافقة على الزواج من انسان أبله يمتلك منزلا من ثلاثة أدوار رشحه لى أبى ، ولكن أمى هى التى رفضت وأصرت على الرفض • أحس أبى بالارادة • وبلا هدف • حية ميتة

أو ميته حية · ماذا تفعل شابة مثلى فى الواحدة والعشرين من عمرها يتفجر جسدها بالشباب والحيوية ، بينما هى تحيا حياة الموتى أو المشلولين أو العجوزات فى بيوت العجائز والمسنين ·

هل أهرب ؟
هل أجن واتزوج أول من يتقدم لى ؟
هل أبدا أزاول حياة سرية مثل غيرى من صديقاتى ؟
بالله عليك ـ قل لى ·· ماذا أفعل ··
ملحوظة : أرجوك لا تنشر اسم المدينة التى أنا منها ·

الحائرة : س· ع
(·····)

★★★

هذا هو الخطاب الذى أرقنى فى مرقده بدرج مكتبى لعدة أشهر ، ولا يزال فالحالة التى تتحدث عنها تلك (الحائرة) ليست حالتها وحدها ، انها تشكل حوالى ٩٠٪ من حالات البنات والشابات فى مجتمعنا · أولئك اللاتى تعلمن أو لم يتعلمن ولكن فرض عليهن البقاء فى البيت فى ظل أحكام عرفية أبوية أو أحيانا أموية أو كليهما معا ، فى انتظار ابن الحلال أو ابن الحرام (هى وحظها) الذى سيأتى وينقذها من الحياة الموت أو الموت الحياة تلك ·

والغريب فى الأمر أن الأهل ، سواء كان الأب أو الأم ، أو الأخ الأكبر لا ينتبه أبدا الى هذه المشكلة ويعتبر أن عمله الأول والأساسى والوحيد أن يوفر للاولاد وللبنات الطعام والشراب وعليهم لقاء هذا ، أن يخضعوا لأوامره خضوعا مطلقا والا قامت القيامة ·

ان المجتمعات الغربية (برأسماليتها واشتراكيتها) قد حلت تلك المشكلة بايجاد نواد للشباب من الجنسين ، أحيانا متصلة وفى معظم الأحيان مختلطة ، يزاولون فيها مختلف أنواع الرياضة والمسابقات والهوايات ٠

قلدنا هذا فى بعض النوادى فى القاهرة أو الاسكندرية أو بغداد أو دمشق ٠ ولكن الأغلبية العظمى من فتيات الطبقة المتوسطة لا يذهبن الى أى ناد ولا يقمن بأى نشاط بل يكاد الأمر يصل الى حد منع البنت عن زيارة صديقتها ٠

وهذا الأمر نطبقه على البنات وحدهن ، فنحن نثق بالأولاد تمام الثقة ونعطيهم الحرية كاملة ومطلقة بما فيها حرية الاختلاط وحرية السهر وحتى حرية المجون أحيانا ما يباهى الأب سرا بها ٠

وكأننا نتصور أن هؤلاء الفتيات كتلا من اللحم والشحم لا روح لها ولا أحلام ولا تطلعات ولا رغبات تتجاوز كثيرا حدود الطعام وملء الفم ٠ هؤلاء البنات كائنات رقيقة بالغة الحساسية ، يعين كل شىء ، ويدركن كل شىء ، ولكنهن يخضعن للأب سواء أكان طاغية أم رحبا لأنهن بنات عرب مؤدبات ، لأننا مجتمع نصنعه وتحكمه الأم ، وهى أم ذات باع وتاريخ طويلين فى الاتصال الحضارى وتوارث المأثورات الثقافية الشعبية ٠

يا فتاتى الحائرة نصيحتى لك آن تصارحى والدتك أولا بهذه المشكلة وتحاولى أن تفهميها انها ليست تافهة كما تبدو ، ثم عليكن بعد هذا أن تصارحن الأب ، وعليه هو مثلما يجد الحلول للمسكن والمأكل والملبس أن يجد الحل لتلك الأزمة الروحية ، مثل أن تجتمع فتيات الأسر معا ، أو

يحدث نوع من التلاقى والاحتفالات الاجتماعية حتى لو اقتصرت على الجنس الواحد ·

فالانسان ــ رجلا أم امرأة ــ كائن اجتماعى ، والمجتمع بالنسبة لذلك الكائن مثل الماء بالنسبة للسمك ، لا يستطيع أن يحيا بدونه أو على الأكثر بأقل القليل منه ·



التلوث الذممى

هناك أشيــاء أصبحت تســترعى انتبــاهى فى الفتــرة الأخيرة · وقد أجد لها بعض التفسير هنا أو هناك · ولكن تفسيرها ، كظاهرة · لا يزال يجل الآن عن الوصف ·

زمان ، حيث بدأت أعمل فى الحكومة ، فى المستشفيات الجامعية ، وصحة مصر ، و (حكيمباشى) المحافظة ، وطبيب الترسانة ، وما كان يسمى وقتها النظافة والتنظيم ، أى كنت أعمل داخل تلك الأجهزة الحكومية · بكل ما تراكم فيها من لوائح وقوانين ، وفساد فى بعض الأحيــان ، ولــكن الشيء المؤكد والذى أذكره تماما ، هو أن الموظــفين والرؤســـاء القائمين على هذه المصالح ، لم يكونوا مجرد منفذين للوائح والقوانين ، كان كل منهم فى مكانه يمثل قيمة ، أبسطها قيمة العدل مثلا ، فلم تكن تجد الا فى النادر ، موظفا يظلم مواطنا عن عمد أو يؤذيه عن عمد . ولم تكن تجد مصلحة حكومية مثلا تجور على حق أحد من موظفيها أو على حق من حقــوق المواطنين ، كانت أجهزة حكم هذا حقيقى · ولكنها فى نفس الوقت أجهزة (عدالة) أيضا ، ولست أدرى بالضبط كنــه

ما حدث لنا وبنا ، لكنى بدأت ألاحظ كثرة القضـايا التى يرفعها المواطنون لاسترداد حقوقهم التى جارت عليها بعض الأجهزة فى أحيان أو نهبتها • كثرة القضايا التى يرفعهـا موظفون تخطتهم الترقية أو العلاوة ، أو رقى فوقهم من هو دونهم منزلة وقدرة وكفاءة ، كان عمل كهذا كفيلا بأن يقيم الدنيا ويقعدها • لان أحدا لم يكن يتصور ان يقوم بالظلم جهاز حكومى ، فمادام هو جهاز حكومى فهو بالضرورة جهاز عادل تماما فى قراراته ونادرا نادرا ما يظلم •

وليس هذا فقط هو كل ما كنت قد بدأت ألاحظه •

بدأت ألاحظ ، ومنذ أوائل السبعينات الى الآن • ان بعض الموظفين المفروض آن يكونوا حامين للعدل وللقانون، حراس الحق ، هم أنفسهم بدأوا يصبحون المخالفين للقانون، المتحايلين عليه ، المستغلين وظائفهم فى السمسرة أو الاثراء غير المشروع أو الرشوة •

وليسوا موظفين من صغارهم الذين تدفعهم حاجتهم ورقة حالهم الى ارتكاب مثل هذه الأعمال • وأذكر فى هذا المجال انى كنت مفتش أحد مكاتب الصحة الكائنة فى حى شعبى كثير السكان • وان بعض الحانونية وصبيانهم جاءونى يقولون ان الكاتب الثانى في المكتب يفرض على أهالى المتوفين اتاوة قدرها اثنان من الجنيـهات يأخذهمـا باسمى أى باسـم الطبيب ، وأحضرت الكاتب الثانى وسألته عن الواقعة فكان صريحا جدا ولم ينكر ، اذ ذكر لى انه يسكن فى أحد أحواش الموتى ، وان لديه سبعة أولاد وبنات • وان ماهيته لا تتعدى الأحد عشر جنيها ، ولهذا هو مضطر ان يفرض هذه الضريبة على أهـل الموتى وعلى شهادات الميلاد •• وحين سألته ولماذا يفرضهـا باسمى أنا وليس باسمه ، قال : لاننى لو قلت لهم انها لى

فسوف لا يعطونى أكثر من بريزة أو ربع جنيه ، أما اذا قلت لهم انها للطبيب فلن يعطونى أقل من جنيهين اثنين ٠

ورغم اشفاقى على الشاب وعائلته الا انى نبهت عليه تنبيها قاطعا بان لا يأخذ نقودا لا من أهل مولود ولا من أهل متوف ، على الأقل لا يأخذها باسمى أنا ، هو حر أن يطلب منهم بقشيشا ولكن أن يأخذ باسمى ، جريمة فى حقى ، اذا عرفت انه قام بها مرة أخرى ، سأبلغ فيه النيابة فورا ٠

ووعدنى انه لن يفعل ٠٠

ولكن الحانوتية جاءونى بعد هذا وذكروا لى انه لا يزال يتقاضى اثنين جنيه عن كل ميت باسمى والا أجل اصدار تصريح الدفن لليوم التالى ٠ وكانت العادة قد جرت فى مكاتب الصحة ان لا يكشف الطبيب الا على المتوفين المشكوك فى سبب وفاتهم ، مثل أن يكون صغيرا فى السن ، أو مات فجأة بدون مرض سابق ، أما لو قدم أهل المتوفى روشتات علاج أو كان المتوفى فوق السبعين مثلا ، فالعادة جرت ان يعطيهم الكاتب التصريح بالدفن ، ثم أمضى أنا التصريح فى اليوم التالى ٠

وحين عرفت أن الكاتب الثانى لا يزال يفرض الاتاوة باسمى أحضرته الى المكتب ٠ وقلت له فى مواجهته : لقد نبهت عليك قبل الآن ان لا تتناول اتاوات باسمى ٠ وقد وعدتنى بأن لا تفعل ، وما دمت قد عدت الى تكرارها ، فسأبلغ عنك النيابة ٠

فاذا به يبتسم ابتسامة معوجة ويقول لى : سيبك من حكاية النيابة دى فانت لا تستطيع ان تبلغ عنى ٠٠

وحين سألته مندهشا لماذا ؟

قال : لاننى جعلتك توقع على تصريح دفن ، دسسته بين تصريحات الدفن التى توقعها فى اليوم التالى ، وهذا التصريح لرجل فى كامل صحته وهو حى يرزق ، فلن تستطيع أن تبلغ النيابة .

وغضبت تماما وقلت له : أتكون مرتشيا وتهددنى أيضا .

وأمسكت سماعة التليفون وأبلغت وكيل نيابة الدرب الأحمر ..

المضحك في الموضوع ان السيد وكيل النيابة ترك عملية التزوير (اذ كانت البيانات الأولى مكتوبة بخط الكاتب ، وكانت معلومات عن جاره ، بمعنى انه كان يعرف انه حى يرزق) ترك هذا كله وأخذ يحقق معى فى كيف انى لم أكشف على المتوفى وصرحت بدفنه باعتباره فوق السبعين وباعتباره (شيخوخة بدون جنون) .

وكان جزائى أكبر من جزاء الكاتب ، ومن يومها قررت ان استقيل من صحة مصر وأبحث لى عن عمل آخر ليس فيه أتاوات أو رشاوى أو شبهات .

★★★

أتذكر هذا كله لأوضح ان حكاية تقاضى رشوة أو عمولة كانت في الخمسينات جريمة كبرى، حتى لو صدرت عن موظف صغير ، فما بالك وقد أصبحت اليوم ضريبة على صاحب الحاجة سواء أكانت تصريحا أو ورقا أو جمارك أو رد نقود أو أى شىء يخطر على البال . على صاحب الحاجة أن يقوم بدفعها عينى عينك والا توقف ورقه ، وأيضا ليس هذا هو اللافت للنظر ، فاللافت للنظر حقا أن الذين أصبحوا يختلسون أو يرتشون أو يسمسرون أناس فى قمة السلم

الوظيفى والاجتماعى ، أناس مبسوطون ، ولا يرتشون ليأكلوا أو ليعلموا أولادهم أو يكسوهم ، وانما يرتشون بمئات الآلاف أو الملايين •

ولا يفعل هذا الجهلاء منهم فقط • وانما يفعلها الكبار، بل وبعض العلماء وأساتذة جامعات ، ووكلاء وزارات ، ووزراء ، وموظفون كبار جدا ، وهو شئ كان مستحيل الحدوث فى الخمسينات أو الستينات ، وبدأ على استحياء فى أوائل السبعينات ثم استفحل حتى وجدنا أستاذا جامعيا وعالما وغنيا يزرع الخشخاش الذى يستخرج منه الأفيون والهيروين وسلسلة طويلة أخرى من المخدرات • وانه وهو صاحب الملايين كان يكسب من الزرعة الواحدة ملايين أكثر •

هنا لا بد نتوقف •• ونتوقف طويلا •• فالمسألة ليست مسألة نزوة عابرة أو ضعفا بشريا يعترى هذا المواطن أو المسئول أو الثرى •

وأن توجد فى مجالات الاقتصاد والصناعة والجمارك والعلوم ، معناها انها على وجه التقريب موجودة فى كل مصالح الدولة التى لها احتكاك بالجمهور وحتى تلك التى ليس لها أى احتكاك •

من أول بيوت الخبرة الى شراء الطائرات الى اقامة المشاريع الى صرف الاعتمادات •

المسألة أصبحت ما يسمونه (ظاهرة) •••

بمعنى ان الضمير العام قد استنام اليها ولم يعد يرى فيها جريمة كبرى ، وانما اخترع لها اسماء غريبة مثل : فتح مخك ، ما ترش يا أخى شخشخ جيبك ، وهكذا ••

وحتى لو وجد الأمر على هذا الوضع ، لما شكل خطرا ، طالما الضمير العام للمجتمع ككـــل لا يزال ينظـــر الى تلك الأعمال والجرائم على انها فضائح اذا وقعت من آحـد ومن (وقع) تكشر السكاكين التى تنهال عليه حتى تسيل كل دمائه ٠

ان ما اعتقد انه قد حدث ، ان ثمة تلوثا قيميا ، بالضبط مثل التلوث الجوى والمائى ، قد حدث فى فترة الانفلات التام السبعينية ، بحيث انه ، حتى أولئك الناس النظيفين تماما ، أصحاب الضمائر الحية تماما ، لم يعودوا ينظرون بالاستنكار المفجع الواجب الى حدوث شىء كهذا ٠

وأصبح النموذج الأمثل للاغتناء هـــو أن (تضرب) من موقعك الوظيفى أو غير الوظيفى (ضربة) تصبح بعدهـــا مليونيرا وتكون هى الضربة ٠٠ والخطوة التالية ان تهرب نتائج تلك الضربة الى الخارج على هيئة عملة صعبة ثم اذا وجدت الأمور قد تأزمت تهرب انت نفسك ، ولو كان ثمة حكم قد صدر عليك فى صباح يوم الهروب (فالفلوس) تمشى كل حاجة ، وتزور لك أى جواز وأى تأشيرة ٠ كل ما فى الأمر ان ليس عليك سوى (تفتيح مخك) الفتحة المناسبة ، وكما ذكر لى مرة احد كبار أثرياء مصر ، ان لكل انسان فى العالم مهما بدا مستقيما شريفا ، ثمنا ، وتفتيح المخ الرشوة والاختلاس والاتجار فى المخدرات والأعمال غير المشروعة الى حد ما ٠

والطريقة الوحيدة لازالة هذا التلوث الذممى ، هو ســل سيف القانون ، ينال وبالعقوبات المشددة التى لا رحمة فيها ليس الا عملية التقدير المناسب لهــذا الثمن ٠ بحيث حين يذكر ، يشل مراكز التردد أو الخوف فى النفس البشريـــة

ويجعل صاحبها يقدم على العمل الخاطيء وكأنه لا غبار عليه طالما سيدر كل تلك الكمية من النقود ٠

أجـل ٠٠

حدث لنا نوع من التلوث الذممى ٠٠

ولم ينقذنا منه سوى مجيء مبارك الى الحـكم ، وعـدد من القضايا الهامة التى تم فيها كشف ديناصورات الرشـوة والعمولة واختلاسات المال العام ٠

هذه القضايا قد هبطت حدة حمى جرائم ولا هوادة ، كل من يقع تحت طائلته ، وحتى كل من لا يقع تحت طائلته ٠ واذا كنت شخصيا لا أحبذ أى اجراءات استثنائية يقضى بها دون محاكمة فالاجراءات الاستثنائية الوحيدة التى لا تزعجنى أبدا هى تلك التى يقوم بها المدعى الاشتراكى ويصـادر بها الأموال الحرام التى يصعب اثبات مصدها الملوث ٠

ولنلتف جميعا حول القانون والقضاة ، بكل حمـاسنا نؤيده ونحميه ، فهو يحمينا وحمايته لنا هى حمايـة ليس فقط لأجيالنا الحالية التى تلوثت ذمم كثيرة منها ، وانمـا وهذا هو الأهم ، لأجيالنا الشابة الصاعدة على سلالم ملوثة، لا تستنكر ان تلوث أو تتلوث ، وبدلا من أن يكون شعار كل شاب أنا (وقرشينى) ومن بعدنا الطوفان ٠ يعـود الوطن ومصلحته العليا ، وتعود الغيرية والوطنية ، ويعـود الانتماء الى بلد يعرف الشاب تماما انها لن تسرقه ، ولن تفرط فى حقه ، وسترعاه ، وسـترعى أولاده من بعده فجزء كبير من عدم الانتماء السائد لدى الشباب سببه أن هؤلاء الشباب يتصورون أن مصر ليست ملكهم انما هى ملك

من يحكمون أجهزتها ويأخذون أموالها ، فمالهم هم بعد هذا ببلد لا يملكونه ولا يعاقب فيه القائمون على اختلاسه وبعثرة نقوده .

اننا يجب ان نضع قضية التلوث الذممى الذى حدث لنا فى أخطر موقع من اهتماماتنا ، لاننا اذا نقينا بالعدالة والقانون جونا الذممى . فسوف تصبح شوارعنا نفسها أكثر نظافة ، ومشاريعنا أكثر عائدا ، وانساننا أكثرة قدرة على التضحية من أجل يومنا وغدنا .



باب الخلق وباب العدالة

الداخل الى محكمة باب الخلق ، كالخارج منها ، مذهول مذهول مذهول ، أعتقد انى أكتب لقراء معظمهم لم يدخل ، بعد ، وأرجو ان لا يدخل ، محكمة ، فالدخول الى المحاكم ، ظالما أو مظلوما ، شاكيا أو مشكوا فى حقه ، مقبوضا عليه أو طالب قبض على أحد ، الدخول فى حد ذاته ، محنة ، فالمبنى ، مبنى المحكمة ، كمضمونها ، سيرة العدالة المصرية الشديدة الازدحام ، القادمة اذا قدمت ، ببطء القطار القشاش ، الذى يقف على كل محطة لها اسم ، وحتى على كل محطة بلا اسم ، أو فى النوبة القادمة عبر السنين الآتية الطويلة أن يطلق عليها اسم ، الدخول الى المحكمة فى حد ذاته محنة ، تكاد تذهب ، خاصة فى حقائقها الأولى ، أى عقل ..

هكذا دخلت ...

مروعا ، زائغ العينين ، أنظر الى ذات اليمين فأجد أجساد نساء مكومة فى قضايا آداب ، والى ذات اليسار أجساد رجال موغلة فى قيدها مع أجساد رجال ، الأصوات

عالية بحيث انك لو أردت حتى أن تهمس الى نفسك أو رجالك ، صرخت أو لا بد ان تصرخ فهنا ، ليس فقط مكان المحاكمة العلن ، انما هو أيضا ، مكان الحقيقة الصارخة العلن ، والاتهام الزاعق الوضوح ، والدفاع ـ ان وجد ـ الموغل فى الاستغاثة ٠

ايه يا محكمة باب الخلق ٠٠

فعلا كانت أول مرة أدخلها ، أو على الاطلاق أدخل أية محكمة ، فحتى حين قبض على عام ١٩٥٤ بتهمة محاولة قلب نظام الحكم (ولا محاولة ولا هباب ، كل ما فى الأمر كانت هى الطريق الشرعى الوحيد للاعتقال) ٠

اعتقلت من الباب الى الباب ، باب بيتنا فى شارع سعد زغلول آنذاك الى باب معتقل القلعة ، دون المرور بأية محاكمة أو محاكم ، كل ما فى الأمر انى ، مرة أو مرتين ، جىء بى والحديد فى يدى وحدى مرة ، ومرة ثانية فى صحبة الكاتب « الشاب » أيامها الاستاذ عبد الله الطوخى ، وكان مجرد مرور شكلى لا بد منه ، ليفكوا (الكلابش) من كلينا فاذهب أنا فى نيابة أمن الدولة ، ويذهب هو كالشاطر لمحكمة الجنايات لكى ينذب خمس سنوات أو لا أدرى كم ، وأتوجه أنا كالجدع محكوما على باعتقال لا أدرى مداه ٠

فعلا ، أول مرة بارادتى المطلقة وخبرتى أدخل محكمة باب الخلق ، زبونا عاديا طالب حق ، رافعا قضية على وزير الثقافة ، مطالبا بنصف مليون جنيه تعويضا ٠

وكائنا ما كنت ، ظالما أو طالب تعويض ، شاكيا أم مشكوا فى حقه ، فالمحكمة هى المحكمة ، قديمة قدم الظلم فى مصر ، مزدحمة تتكوم فيها الأجساد ازدحام الحياة فى القاهرة ، مكانا تكرهه وتحس انه هو الآخر يكرهك ، وأهم

وأسرع شيء تفكر ان تفعله اذا دخلته ، ان تخرج ، سالما اذا أمكن ، بأسرع مما دخلت ، معاهدا نفسـك ألف مرة ومقسما أغلظ الأيمان انك ، في حياتك ، لن تعود .

طوال العام الماضي بأكمله ، كان أول دخول لى لتلـك المحكمة ، وكان أول تردد وكانت جلسات الدائرة ، تعقد دائما يوم الخميس ومنذ أن رفعت القضية كان كل خميس تعقد فيه الجلسة ، يمثل يوما هاما في حياتى ، وفي حياة بضعة أشخاص قريبين لى جدا وبضعة أصدقاء ... ذلك أنى كنت قد قامرت بكل ما أملك ، على تلك القضية ، فلم تكن مجرد قضية تعويض رفعتها على وزير أهاننى علنا وفي مقال مكتوب ، وانما كانت تمثل بالنسبة لى ، قضـية أكون أو لا أكون بالمرة ، ان أكتب في مصر أو أتركها تماما وأمضى الى بلاد الله لخلق الله ، وكنت في كل جلسة أحضرهـا أو لا أحضرها ، أتوقع ، لا أن يتحدد فيها مستقبل كل ما هـو قادم في حياتى ، وانما ، على الأقل ، كنت متوقعا ، بعد طول اجراءات ، انه ذات خميس ، بعد أو اقترب ، أن سيتحدد ، بطريقة ما ، هذا المصير .

أجل ، فهى لم تكن قضية خاصة ، اهاننى بها شخص خاص ، وأنها هكذا صممها القدر ، وكأنه كان هو واجدهـا وكاتبها قد أصبحت ، بالنسبة لى ، قضية أن أوجد أو لا أوجد بالمرة .

وقد يلومنى الآن كثيرون على هذا الشعور ، وقد يرون فيه نزقا وطيشا وقلة تبصر ، اذ كيف يرهن انسان مستقبله القادم كله ، على قضية تعويض ، قد يحكم فيها أو لا يحكم وقد يكسبها أو يخسرها ، فهل يعقل أن ينهى شخص حياته ودوره ومستقبله الأدبى والوجودى كله ويعلقه ، بكسب أو

خسران قضية ، انها مسألة تبدو ، وكأنها الجنون بعينه ٠ ولكنها فى رأيى ، بل فى حقيقة الأمر اذا تبيناه ، ليست مجرد قضية تعويض أخرى ، أو مظلوم آخر لجأ الى القضاء لينصفه ، انما هى كانت قد تبلورت وأصبحت ، مثلما يقول هاملت شكسبير ، قضية أن تكون أو لا تكون ٠٠٠ انهـا بالضبط ، كما نطق بها (الزعيم المعلم) فتحى رضوان ، وأنا واقف على أطراف أصابعى ، فى تلك القاعة الصغيرة المزدحمة التى قرر القدر أن تكون محل ومحط الدائرة ٣٢ ، واقف استمع الى نفسى ، واليه ، والى الآخرين ، قضية هى الأولى ولا بد أن تكون الأخيرة من نوعها ، فى هذا المجال ، وعلى أساس ما سيدور فيها ، وعلى نتيجته ، وبناء عليها أيضا سيتقرر مستقبل ان أكتب أو أمضى الى حال سبيلى ، ان يكون للكتابة فى حياتى وجود ومعنى أو آن لا تكون لحياتى نفسها وذاتها أى وجود وأى معنى ٠

كنت أجرب ، هكذا مباشرة ووجـــها لوجه ، الظلم ، صارخا وواضحا وبلا آى لبس أو تخف ، وفى منتهى وضح النهار ، واما ان أمضى فى مواجهته للنهاية وأروح ضحيته مثلما يطلق النار على انسان وتصيبه الطلقة فى مقتل ، أو تذهب الطلقة هباء ويكتب له حسن البقاء ٠

دروب ومسالك وحيطان عالية شوهاء قبحهـا الزمن ، وشوهت سقفها العالى صرخـــات المستغيثين ممن لحقهم من الظلم نفسه أحيانا ، وأحيانا مخافة ظلم سوف يلحق ٠

العدالة فى مصر مكانها عتيق مشوه ، خربشته أظافر تستغيث من الضيم أو هى فاعلته فى أحيـــان ، حيطـان وأسقف ، وقضبان ، وأكوام أناس مبعثرين فى الانحـاء ، بعثرتهم أكوام فوق أكوام سلطات عادلة أو ظالمة أو جيوش

للشر خفية ، نفس جيوش الشر والفقر التى هلهلت أثوابهم، وسودت أوجههم ، ورسمت على الملامح تجاعيد معاناة عميقة، ومزمنة وبالغة الغلظ والقسوة · كان وزير الثقافة فى لحظة تهور · قد صفع معنى الكاتب فى وكبرياءه واسمه ، وناله بسوء لا يمحوه أبدا الا اجراء رادع عادل يعيد للكاتب كل ما انفرط من عقد وجوده وكيانه ويرفع عن رأسه ووجهه كل ما أصابه من أوحال ·

فجأة وأنا وسط وجودى ككاتب ، ومزاولة ذلك الوجود الشرعى والقانونى والبشرى فجأة اغترف الوزير أقـــرب كومة طين وأوساخ رآها وقذفنى بها ، علنا ، وأمام أعين ملايين من أناس قرأت ، أو سمعت بما كتبه وقرأه الآخرون· فى مصر المعاصرة المتحضرة وقف وزير ثقافة ، يرد عـلى كاتب يطالب بأهمية أن يتثقف الناس فيقول عنـه : ذلـك الكاتب المغرور ، ذو القلم المغرور والمسعور وصاحب العقل البللورى ، ابن مصر الذى من المحال أن يكون قد رضـع لبنها الحلال اذ لا بد انه لقيط مصرية رضع لبنا حراما ، وسب شعبا ، وأهان قواته المسلحة ، وضرج كرامة الناس بالأوحال ·

وكل هذا لانه طالب بضرورة وأهمية أن يتثقف الناس·

حدث هذا من عام مضى ، على وجه التحديد فى شـــهر يوليو من عام ١٩٨٤ · وهالنى ما حدث ، وحيرنى ما يجب على أن أفعله ، وتصورت أن دمى قد سفح من الدولة وأبيح وأهدر ، وان لم يعد أمـــامى من منصف ومنقـذ لنفسى ، ولكرامتى ، ولقدرتى حتى على أن أعود أمســـك بالقلم ، وأكتب لهؤلاء النـــاس الذين أهنت أمـــامهم ، الا أن ألجـأ للقضاء المصرى ، أو بالأصح للسلطة القضـــائية بعد أن

أجهزت أو حاولت السلطة التنفيذية ، بكل أدواتها وجبروتها، أن تمسح وجودى من الوجود .

وصحيح أن أناسا كثيرين ، مثقفين وعاديين ، هبوا يرفضون هذا ويشجبونه ويدافعون عنى ، ويتهمون الوزير الجائر بمختلف الأوصاف والتهم . ولكن الشىء الذى كان محالا ان يقع ، قد وقع ، والضرر كان قد حدث ، ولم تكن هناك قوة فى الأرض تزيله أو ترفعه الا أن يعتذر الوزير علنا ، اعتذارا صريحا واضحا لا لبس فيه مثلما فعل وزير مجلس الشعب ، يرد للمثقفين والكتاب جميعا اعتبارهم ، كما طالب والح أستاذ الجيل الصحفى الجليل الاستاذ جلال الدين الحمامصى ، والكثيرون غيره ...

اما هذا واما ان أضع مصير كرامتى كلها وكرامة الثقافة وقد أصبحت فى الخندق معى ، أمام القضاء المصرى، يرى ما يراه فى أمرها وأمرى .

ولم يعتذر الوزير ...

وأصر الا يعتذر عما كان واضحا لكل ذى عينين بل حتى للذى بلا عينين انه خطأ فاحش وواضح ولا سبيل أبدا لانكاره ، ويعتبر السكوت عليه تسليما فعلا بكل ما جاء فى مقالة الوزير من أوصاف ..

وكان لا بد من اللجوء الى القضاء المدنى ...

ذلك أن اللجوء الى القضاء الجنائى ، الذى كان الحل الطبيعى الأوحد كان يحتم رفع الحصانة عن الوزير كنائب فى البرلمان ، اذ لا يوجد للاسف فى القانون المصرى طريقة محددة لمحاكمة ومحاسبة الوزير اذا أخطأ أوأحيانا اذا أجرم،

لا طريقـة ادارية ، ولا طريقة قضـائية ، وانما هى مسألة متروكة لمجلس الشعب ، أقصى أقصاها ، أن يسحب الثقـة من هذا الوزير ...

وكيف يرفع حزب الأغلبية ، وكيف ترفع أغلبية ذلك الحزب ، الثقة عن وزيرها ، وكل عمل الأغلبية مهما كثرت فيها النيات الحسنة ان تدافع عن نفسها بالحق أو بالباطل وأن تمنع أى اذى أو تجريح ، بل ادانـة ، لوزير أو نائب من نوابها ...

وهكذا وجدت نفسى ، فجـأة دون أن أدرى كيف ، أقف فى طابور المواطنين الطويل الذى يسمى طابـور المظلومين ، الطالبين من العدالة والقضاء انصافهم ...

وما أغرب وأعتى الاحساس أنك مظلـوم ، وأن ظلمك واضح ، وأنك لا تملك أن تستخلص حقك بيديك من ظالمك وانما على اناس آخرين ، سلطة بأكملها قائمة اسمها السلطة القضائية ان ترفع هذا الظلم وان تنصفك ...

وأنت تدخل مع هذا الطابور مبنى محكمة باب الخلق ، وترى جدارنها الداخلية المحطمة المهـدمة ، وترى الاكـوام البشرية المجرمـة والمجرحـة ، وترى جيوشا من خـلق الله المساكين واقفين مثلك أيضا فى انتظار العدالة أو حتى يوم العدالة ، تحس انك انتقلت فجأه ، من حيث كنت تحيا على سطح الأرض ، الى خندق سفلى ، تشرئب معهم جميعا الى كوة النور الوحيدة ، القائمة فى سقف هذا المبنى كله كوة الأمل فى قاض منصف عادل ، يطبق قانون العدل ، وينصفك .

وبالضبط كان هذا شعورى وأنا جالس فى القاعة ١٦ من هذا المبنى ومعى مراسل وكالة الأنباء الفرنسية وبضع

صحفيين مصريين وكتاب شبان أصدقاء مثل محمد المخزنجي ومحمود الورداني ويوسف القعيد ، ومحامين رجال وشباب أتوا نيابة عن جماعات حقوق الانسان والادباء الشباب والمحامين الشباب أيضا ، ونحن جميعا يلمنا شعور مشترك ان يتحقق لنا العدل ٠

أجل العدل ٠٠٠

ما أعذب وأروع تلك الكلمة ، خاصة حين لا يكتبها كاتب تأثر أو مصلح اجتماعي يريد تطبيقها ولكن تحس أنت شخصيا بحتميتها وضرورتها ، وأن مصيرك معلق بها ، حياتك نفسها أو موتك ، وجودك أو عدمك ، معلق بها ٠

كانت الجلسة الحاسمة يوم الخميس ٤ ابريل ، تلك التى سوف تحجز فيها القضية بعد ذلك للحكم ، وسينتهى يومها كل شيء ٠٠٠

حرصت على الحضور المبكر ، ومع هذا وصلت المحكمة فى التاسعة والنصف ولم أجد ان محامى الكبير الاستاذ عبد العزيز محمد قد حضر بعد ، ذلك انه فى المبنى العتيد، حيث الكل جناة ومجنى عليهم ، واطراف نزاع لا يوجد سليم الاعصاب والتقدير سوى أهل المهنة أنفسهم وعلى رأسهم المحامون ٠٠٠ مبكرا تأتى انت ويأتون هم فى الوقت المناسب تماما ، ملهوف الانتظار تبقى انت ، ثابتو الاعصاب يكونون هم ، بالضبط كما فى المستشفى حيث الجميع ، من مرضى وأهالى مرضى ، هلعون والوحيدون المحكومو الاعصاب هم الاطباء والجراحون ٠

ولكنى فى حضورى المبكر هذا وجدت مفاجأة ٠٠٠

كان قبلى ، قد حضر ، ذلك الرجل المهيب الاستاذ فتحى رضوان فى السبعين هو ولكن نضارة وجهه تفضح شباب ارادة ، وتورد عزيمة ، وقوة داخلية قاهرة لا يمنحها المولى الا لغلاة الصالحين والأولياء ٠

ما كدت أرى وجهه حتى أحسست كأنى الغريق قد وجد طوق النجاة ٠

كان ، متطوعا ، دون ان أتذكـر أخباره ، وازوده بمذكرات الاستاذ عبد العزيز محمد ، والدكتور جلال رجب قد حضر ، وجلس فى الاستراحة ، تحوطه تلك الهالة التى كانت دائما تحيط فى عينى ، مذ كنت طالبا وكنت محبا شديد الولاء لمصر الفتاة وللحزب الوطنى وكان هو زعيمى الذى يبهرنى فى الاجتماعات حضوره تلهبنى خطبه وكلماته ٠

هذه المرة هو محامى ٠٠

انه غاية ما استحق من تكريم ٠٠

وحين رأى المستشار محمد جمال مصطفى رئيس الدائرة ان عدد الحاضرين كبير وان القضية تبدو وكأنها أهم قضايا اليوم أجل النظر فيها الى آخر الجلسة ٠

وجاءت اللحظة ٠٠٠

ونودى علينا ٠٠٠

وازدحمنا أمام الحاجز الفاصل بيننا وبين المستشار والقضاه وأمين سر الجلسة ٠

ومن جديد رحت أتفحص الوجوه التى طالما حاولت ان

استجمع فراستى وكــل خبرتى لاتبين من أى معدن صنع هؤلاء المستشارون والقضاة ٠

من جديد رحت أرقب المستشار محمد جمال مصطفى ، ذلك الذى ربما لا يعرف ان مصـيرى ككـاتب ، أو حتى كمواطن سيقيم فى مصر أو يتركها ليذهب بلاد الله لخـلق الله قد أصبح فى يده ٠٠٠

الرجل رئيس المحكمة رأس القعدة ، حتى منظـاره ، ثابت فوق انفه كميزان العدالة لا ينطق بشىء ولا ينم عن هوى ٠

عضو اليمين الاستاذ رمضان عوض شاب رصين الملامح ترى الآلاف مثله فى النوادى والاحتفالات ولكنه ، هنا فى مجلس القاضى ، مصرى من نوع فريد آخر ، حتى شبابه من نوع فريد آخر ٠

عضو اليسار الاستاذ مدحت قصرى ، صغير السن ولكنه لأمر ما كبير الارادة والعزم لكأنهم نفر آخر غير هؤلاء الذين تركب معهم التاكسى أو يجلسـون معـك فى الحفـلات والاحتفالات ، نفر آخر غير المصريين المبعثرين المزدحمين فى انحاء الوطن مهما بلغت درجات مناصبهم وتخصصاتهم ٠

يا سلام ! ما أروع الجـد المصرى حين يتلبس ملامح أولئك الجنود المجهولين الذين يشكلون الأعمدة السليمة التى لا يزال مجتمعنا عليها قائما ، وبالذات ذلك الجد الذى تراه على وجوه المستشارين والقضاة ، فهو جد عادل ، لا ينطق عن الهوى ، أقسم انى من فرط ما رأيت على ملامح رئيس المحكمة وعضويها انى قلت لنفسى :

لو جاء حكم هؤلاء السادة ضـدى ، لما انزعجت كثيرا لايمانى انهم لا يمكن الا أن يكون حكمهم مبنيا على أسس عادلة لا يرقى اليها الشك ·

وقف فتحى رضوان أسد مصر مذ دخل الحركة الوطنية لأول مرة ، ومحاميها واستهل مرافعته بقوله :

لقد انشئت الصحافة المصرية منذ أكثر من مائة وخمسة عشر عاما ، وانشئت الوزارة المصرية منذ خمسة وتسعين عاما ، أى بعد الصحافة بربـــع قـــرن ، ومنذ ان أنشئت الصحافة وقامت السلطة التنفيذية لم يحدث مطلقا ان قذف وزير فى حق كاتب أو صحفى حتى حين كان بعض الوزراء كتابا مثل الدكتور محمد حسنين هيكل والدكتور طه حسين · هذه أول مرة فى تاريخ مصر السياسى والصحفى يحدث هذا ومن وزير ثقافة لم يعمل بالكتابة وليس له بها علاقة ·

ثم مضى يشرح الابعاد البشعة التى أوردها الوزير فى مقالته والجميع حتى محامى الوزير الدكتور محمد عبد الله ، مصغى السمع وكأنهم يستمعون الى ترنيمة عدالـــة يغنيهـــا أعذب صوت ·

ثم تلاه ذلك ، الرجل ، الهادىء الباسم ، الممتع تماما فى جلساته الخاصة وعلاقاته بزملائه المحـــامين ومعارفه جميعا ، ولكنه هنا امام المنصة خرج من جو الأدب الدبيلوماسى المعهود وانطلق وكأن لا قوة تستطيع ايقافه ·

واجلت القضية للحكم فى جلسة ٢٠ من الشهر ·

وفى آخر النهار تبينت أن يوم ٢٠ سيكون أجازة ، أو لن يكون باقيا على آخر جلسة فى الموسم القضائى الحالى الا يوم خميس واحد تال للعيد هو ٢٧ يونيو ·

وفى ذلك الخميس ، ذهبت مع أن المفروض كان الا أذهب وجلس معى نفر من الأصدقاء المحامين الذين أعرفهم ، ومحامين لا أعرفهم اذ كان يشغفهم بما سيتمخض عنه قرار المحكمة قد استبد بهم الى درجة أن بقوا معى الى السادسة مساء دون غداء بينما المحكمة منعقدة تتداول ٠

وفى السادسة والربع ، وبعد سبع ساعات من المداولات رفعت الجلسة ٠

وكان الحكم لصالحى ٠٠

وليس المهم ما تمخض عنه الحكم من تعويض قدره عشرون ألف جنيه انما المهم انه فى حيثيات الحكم قالت المحكمة : ان الضرر الأدبى الذى لحق بى لا يمكن تقديره بمال ، وانما التعويض قدر وكأنه تعويض ـ رغم ضخامته ـ رمزى محض ٠ ويا لذلك الاحساس الذى شملنى وأنا أسمع الحكم يمليه أمين السر على الصحفيين بالاحساس بالعدل يأتى بعد ظلم فادح يا للاحساس برد الكرامة والاعتبار على أيد عادلة مطلقة تزن كل شىء بميزان من ذهب وأنا واقف من بعيد أرقب هيئة المحكمة وهى تهبط السلم التاريخى الذى كثيرا ما نراه بافلام السينما ، وأرى وجوه هؤلاء المصريين الغلاة حافلة بالرضاء عن نفسها وكأن أعماقها ممتلئة بشعور من قام باداء واجبه وارضاء ضميره الى حد الثمالى ٠

وأنا واقف أراقبهم يهبطون فى موكبهم المجيد دوت فى القاعة السفلى زغرودة من امرأة نالت العدل هى الأخرى ، ووجدت نفسى فجأة أكاد ان أجهش بالبكاء بل فعلا فرت من عينى دمعة ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى صالون العقاد

طويت الصفحة الأخيرة من كتاب « فى صالون العقاد » لكاتبنا الفذ أنيس منصور وأنا أحس انى أطوى صفحة عصر مجيد رائع من تاريخ الحضارة المصرية ، فالكتاب بحر متلاطم الأمواج ما ان يندفع فيه زورقك حتى تفقد القدرة على ضبط اتجاهك ويبحر بك بحر أنيس منصور فى كل اتجاه ·

أقول من تاريخ الحضارة المصرية لانه كان هناك وقت فى مصر كانت فيه حركة ثقافية عامرة محدودة حقيقة وتحيا فى معظمها على اصداء الحادث فى أوربا ولكنها عامرة بالجدل والصخب والأعمدة أيضا والى عمود الاستاذ العقاد ذهب أنيس منصور فتى قادما من المنصورة يتمتع بخاصية غريبة هى خاصية الأول اذ كان أنيس منصور هو الأول على فصله باستمرار ·· والأوائل واسمحوا لمجربها بضع مرات حين يتذوقون طعم الأولوية يدمنونه فهم لا يتنازلون أبدا عن مقاعدهم بعد هذا بسهولة وصعب جدا على طالب فى ثانوى أن يختار (الفلسفة) مادة ليس فقط للدراسة فى الجامعة ولكنها مادة عمر وحياة وان يفعل طالب ثانوى هذا ويختار

مادة صعبة تماما مثل الفلسفة يدلك على مدى الثقة بالنفس التى يتمتع بها هذا الطالب وقد (اختار) أنيس منصور مادة الفلسفة و (اختار) أيضا مادة العقاد فدخل الجامعة ودخل بيت العقاد وكتاب (فى صالون العقاد) تاريخ لهذه الفترة من تلمذة أنيس منصور على العقاد و (تأستذه) عليه أيضا فلقد كان طالبا مشاغبا تماما ولكنه ذلك الشعب الجميل حين أجد انك قرأت كتابا فاشاغبك بأنى قرأت ما هو أحدث منه هكذا كان يفعل أنيس منصور مع أستاذه • وهكذا كان أستاذه باعتباره أول عصامى أو بالأصح الأول العصامى اذ هو لم يذهب لثانوى أو لجامعة يستمتع فيها بالأولوية فآثر أن يخلق لنفسه متعة أكبر وذلك بان لا يدخل المدارس أبدا ولكنه يصبح الأول على كل خريجى المدارس • اذن هو أول فى صالون أول وكم أسفت أنى لم أتتلمذ على كاتب كبير مثل العقاد اذ حين نادانى الاستاذ الأكبر طه حسين الى عموده كان الأمر قد انتهى وكنت قد تعديت مرحلة التلمذة • أقول كم أسفت لانى أحسست وأنا أقرأ الكتاب بعمق الصلة وعمق البصمات التى يتركها المعلم على التلميذ هذا الاصرار الرهيب على الاطلاع أكان ممكنا ان يتخذه أنيس منصور ديدنا لو لم يره ويشغف به عند أستاذه • ان الاستاذ بمثابة الأب • ولا يستطيع ان يعرف قيمة الأب الا من تربى يتيما ، ولهذا فأنا أحسد أنيس على أبيه الروحى فقد تعلم منه الكثير وأكاد أقول ان العقاد أيضا تعلم من أولاده وعلى رأسهم أنيس الكثير فلولا الاحساس بضرورة الاحتفاظ بصورة الاستاذ أمام تلاميذ أشقياء • لا يتورعون عن مسابقة الأستاذ بل سبقه فى أحيان ما ظل العقاد محتفظا بقوامه الفكرى والفلسفى بل والنفسى أيضا •

انه كتاب جامع رائـــع حتى انني كنت فى أحيان كثيرة أتوقف واسأل نفسي : ترى كيف كتب أنيس منصور هــذا الكتاب وهل كان يحتفظ بمذكرات يومية ، لا بد ، فهــذه التفاصيل الدقيقة التى تجعل من الكتاب ليس مجرد تقريـــر فكرى أو دراسى وانما حياة بأكملها لا يمكن ان تكون نتيجة الذاكرة وحدها تلك التى دائما ما تسقط عنها التفاصيل ، وتكتفى بالمجرى الرئيسي للأحداث وهو كتاب شاق أيضا عاش صاحبه حياة تلمذة وأستذة شاقة ليكتبه وليس أبدا كغيره من مؤلفات أنيس منصور ، يكتفى بما خف حمله انه واعر يغوص وينقب ويخرج بلالىء حقيقية •

هنيئا للتلميذ بأستاذه وهنيئا للأستاذ بتلميذه وهنيئـــا للمكتبة العربية بواحد من أعظم الكتب الأصيلة فى حياتنـــا المعاصرة •

القطاع الخاص الجديد :

★ وجه لى صديقنا الكبير نجيب محفوظ ـ عبر برنامج اذاعى ـ سؤالا : لماذا وأنا الذى عـرف بمهاجمـة القطاع الخاص فى المسرح رضيت أخيرا أن أكتب له ·

وفى الحقيقة ان السؤال اثار مواجعى ـ شكرا له ـ ذلك انى أحب المسرح حبا أكثر من حبى للحياة ولا أبالغ فى هـذا فلولا هذا الحب ما رضيت أحيانا بالهوان من أجله ولقد كانت أسعد فترة فى حياتى تلك التى كنت أكتب فيها مسرحيات يعرضها القطاع العام أى الدولة على مسارح الدولة وبفنانين ومخرجين على أعلى درجة من الموهبة والثقافة ولقد ظل هذا يحدث ما ظلت المـركب عائمة حتى اذا ثقبت فى أواخـر السـتينات وبدأت السبعينات المهولة وانحدرت أحوال كل قطاعات الدولة العامة بما فيها القطاع السينمائى والمسرحى ونشأت على الفور قطعات خاصة مستعجلة تريد الربح وبأى صورة ، كان محتما ان نتـوقف عن الكتـابة · فما نكتبه لا يصلح للقطاع الخاص أو الربح السريع · والجمهور الذى

كان يؤم القومى والطليعة والعالمى والكوميدى والحديث جمهور هوالآخر أصبح مختلفا تماما وأصبح كجمهورالسينما معظمه من الحرفيين وأصحاب الدخول الطارئة الارتفاع ٠

الى أن حدث وبدأ القطاع العام يستيقظ فى الثمانينات وبدأ يفكر فى تقديم بعض المسرحيات التى رفضتها الرقابة من قبل وكان ان قدمت الفرقة النموذجية للثقافة الجماهيرية مسرحية (المخططين) ٠

والتجربة التى خرجت بها من تقديم المسرحية كانت خطيرة فقد ثبت لى انه بعد انتشار محطات التليفزيون العربى واعتمادها بصورة تكاد تكون كلية على الممثلين المصريين لم يعد ممكنا ان يتمكن القطاع العام من تقديم مسرحيات يعتد بها ٠ ذلك ان أى أجر يدفعه القطاع العام للممثل المسرحى أو الممثلة لا يتعدى واحدا على عشرة من الأجر الذى يدفع لهما عن عمل أقل بكثير من احتمال بروفات لا تقل عن شهر وعرض قد يستمر شهرين أو ثلاثة ٠ بمعنى انه ما دامت لائحة الأجور خاضعة لمقاييس الدولة العامة فلا أمل فى تقديم عروض مسرحية مشرفة الا بتضحية كبيرة جدا من الممثلين ولا يمكن بناء حركة مسرحية على أساس تضحية صارخة بالنفس من قبل الممثل أو المخرج أو حتى الكاتب لقد دفعت نصف مرتبى الشهرى من الاهرام ثمن اصلاح ماسورة فى شقتى للسباك الذى أخذها وهو متضرر تماما وعنده حق ، فغيرى يدفع بالضرورة أكثر ٠

وهكذا تقبلنا جميعا تضحية فنان كنور الشريف بعمله السينمائى من أجل اشباع هوايته المسرحية تقبلنا هذا بالترحيب الشديد ولكن الشىء المؤكد انه لولا ان لنور الشريف دخلا كبيرا آخر من السينما لما استطاع الاقدام على

هذه التضحية أبدا ثم ان ليس كل الممثلين نــور الشريف ، ولا كلهم نجوم ولا كلهم أولئك الملائكة الذين لو صبروا على أنفسهم فكيف يصبرون على أفواه أبنائهم المفتوحة ٠

وهكذا ـ أيها الصديق الـكبير ـ وجـــدت نفسى بين أمرين : اما التوقف نهائيا عن تقديم مسرحيات الى أن يحل هذا الاشكال الذى لا يبدو ان له حلا ، واما (خلق) قطاع خاص آخر ٠

اذا ليس المهم هو أن يكون المقدم هو القطاع الخاص أو العام المهم هو ما يقدمه هذا أو ذاك فالمسرح باستمرار قطاع ملك الشعب الذى يرتاده ٠

كان لا بد من خلق قطاع خاص يدفع أجـــور القطاع الخاص ٠ ويقدم نوعا جديدا من المسرح ليس هو بالتأكيــد مسرح القطاع الخاص فى السبعينات ، ولكنه أقرب ما يكون الى ما كان يقدمه القطاع العام فى الستينات والى جمهور من نوع آخر أيضا لا يذهب خطأ الى المسرح وفى نيته ان يذهب لكاباريه ولا يحتقر نفسه اذا ضحك لما يضحك عليه أو لـمـا يضحكه ٠

وهكذا رحبت أيضا ان يأخذ الفنان شاكر عبد اللطيف مسرحية لى ينشىء بها فرقة ٠ ورحبت أيضا ان أكتب مسرحية يخرجها الاستاذ جلال الشرقاوى فليس هذا هو الحل الوحيــد الممكن فقط ولكنه حل مثالى فى رأيى ٠

أما المشكلة يا عزيزنا الـكبير نجيب محفــوظ فهى فى القطاع الخاص فى السينما ولنضع تهمة (وكالة البلح) الى جوار تهمة (العسكرى شبراوى) ونندب معا حظ السينمـا التى لم يتح لها للآن الا فيما ندر ، قطـــاع خاص ملتزم يستطيع ان يقدم انتاجا رائعــا ، كانتاجـك دون ان يحس الانسان بالعار بعد رؤيته ٠

(النديم) الكتاب :

وصلنى من الاسكندرية المجيدة العدد الثالث من (كتاب) النديم • وكتاب النديم مجلة ثقافية تصدر بين الحين والحين تحمل ابداع عدد كبير من كتاب الاسكندرية بقيادة كاتب القصة المتفرد الشاب (العجوز) محمد ابراهيم مبروك • انتاج هائل والله كم فرحت وعيناى تدمعان ليس تأثرا فقط وانما من صغر الحروف ورداءة الطباعة فهى مكتوبة بالآلة الكاتبة الصغيرة الحروف ومطبوعة بالماستر ومع هذا ورغم عدم فخامة الشكل الا ان الموضوع يعتبر من ثقافتنا المعاصرة الملتزمة وانتاج هذا العدد من الأدباء الشبان الطليعيين شىء حقا يفرح القلب ان اسماء مثل : محمود عبد الوهاب ود• محمود الحسينى وشوقى فهيم وعزت عامر وبيومى قنديل وصالح الصياد وأحمد النشار ومحمد ابراهيم واسامة الغزولى وعبد المنعم رمضان وأحمد عقل وأمجد ريان ومحمد خلاف اسماء كهذه تبرق كالماسات الثمينة تحملها لنا دفتا النديم كموجة طازجة لحركة فكرية ابداعية طازجة تهب علينا من الثغر الجميل • أجمل وجه لمصر : الاسكندرية •

تحية لكل من ساهم فى هذا العدد الرائع من كتاب النديم •

وتحية خاصة وخالصة للصديق فاروق عبد القادر الذى أسهم فى العدد بتحليل عظيم لكتاب الدكتور جمال حمدان : مصر ٠٠ دراسة فى عبقرية المكان ٠ أجل هذه هى الحياة الحقة ابداع ٠

★★★

لماذا لا يتكلم مسئول الأرض ؟

تحية طيبة ٠٠ وبعد :

كنت أطالع مقالكم عن تجريف الأرض وتحويل طميننا الذى لا يقدر بثمن الى طوب أحمر وأنا جالس ببلكون منزلى بمدينة الصباح بالسويس وفى الناحية الأخرى تقيم محافظة السويس مدينة الايمان ، والعمل يتم فى صراع مع الزمن لاحظت آلافا بل ملايين من الطوب الأحمر قادمة من أطلال أرضنا الزراعية السليبه وعجبت مما اقرؤه وما آراه أمامى ٠

ماذا لو صدر قانون يلزم المصالح والهيئات الحكومية والقطاع العام عند اقامة المبانى بالالتزام بان يكون المبنى بالطوب الرملى أو الطفلة أو الاسمنتى حتى يمكن ان تكون الحكومة (قدوة) أمام القطاع الخاص « ابدأ بنفسك تكن قدوة » ٠

مجرد رأى ٠٠

محمد عوض أحمد

السويس

ما استرعى انتباهى فى هذه المقالة الجزء الخاص بتجريف الأرض ٠

من وجهة نظرى اعتبر هذه المسألة أصبحت قضية على المستوى القومى تهم كل مواطن غيور على مصلحة وطنه فأنا أرى كثيرين قد تناولوا هذه المسألة بالكتابة ولكن للأسف لم نر احدا من المسئولين يتخذ أى اجراء أو (فعل) لمقاومة هذا ٠ فاذا كانت الحكومة حريصة فى هذه القضية لاصدرت قرارا بسحب رخص مصانع قمائن الطوب المتناثرة فى كل الدلتا ووادى النيل فاذا ما اتخذت الحكومة هذا القرار لاعتبرنا اذن انها جادة فيما تقوله ٠

د٠ سميرة عبد الحميد شحاته كامل
باحثة أولى بمركز البحوث
الاجتماعية بالجامعة الامريكية

من الغريب ان يصل صوتى من السويس الى الجامعة الأمريكية دون أن يعبر اجواء وزارة الزراعة أو اللجنة الزراعية بمجلس الشعب أو مجلس الشعب أو أى مسئول عن الأرض الزراعية فى مصر هل هناك مسئول عن الأرض الزراعية فى مصر ؟

لماذا لا يتكلم ٠

عمان ـ دمشق ـ القاهرة

لنقفز قفزة واسعة جدا ، من أقصى الشرق الآسيوى البعيد فى اليابان والفلبين وتايلانـــد والهند الى أقصى الغرب من آسيا ، الى مشرقنا العربى التليد ، فقد جدت مسائل تستحق ان أقطع من أجلها الكتابة عن رحلة اليابان ، لاعود لها مرة أخرى ، مسائل ليس أقلها ، انى حضرت خلال أسبوع واحد مهرجانين مسرحيين ، أولهما عالمى ، فوقع فى سماء العـــالم كله ، والآخر محلى عربى ٠

كنت فى الأسبوع قبل الماضى مدعــوا لافتتاح الموســـم الثقافى لنادى خريجات الجامعة فى عمان والقـــاء محـــاضرة اخترت لها اسما : « نــكون أو لا نــكون » والحقيقة انى أحسست خلال الأسبوع الذى قضيته فى عمان بمدى الجناية التى جنتها السياسة على الثقافة ففى عمان قابلت نخبة من الكتاب والشعراء والمثقفات والمثقفين ، يتابعــون الحركـــة الثقافية المصرية والعربية بشكل عام متابعة منتبهة واعيـــة دقيقة ٠ وكذلك الحال فى كل عاصمة عربية زرتهـــا فى بغداد والكويت والامارات والسعودية ٠ العلاقات الثقافيـــة

العربية هى التى تربط أمتنا العربية برباط لم ينفصم عراه بعد ، بينما العلاقات السياسية هى التى تمزقه وتهدم كل ما تحاول الكبارى الثقافية ان تبنيه • وصحيح فى أعقاب المقاطعة السياسية التى قوطعت بها القاهرة تقريبا من كل الدول العربية ، بدأ بعض الكتاب المراهقين هنا وهناك بقولهم ان الكتابة المصرية قد انتهت وان فلانا أصبح صهيونيا وفلانا من مؤيدى كامب ديفيد ، وفلانا قد كف عن العطاء ، يقولون هذا كخطوة حتمية قبل اعلان انهم قد استقلوا ثقافيا وأصبحوا ليس فقط يناطحون القاهرة ولكنهم يتفوقون عليها • وكنت أقرأ بعض هذا وأبتسم فى رثاء • نفس ابتسامتى لبعض ما كنت اقرأه لكتاب ـ أو المفروض انهم كتاب ـ مصريين هنا ينظرون بتعال شديد ـ مع انهم أقزام ـ الى كل ما يحدث خارج القاهرة من نشاط ثقافى أو فنى •

أجل ـ فى الوقت الذى عزلت فيه القاهرة تماما عن أمتها العربية •وسقطت الحركة الثقافية الرسمية فى القاهرة خلال السبعينات ـ وربما الى الآن ـ فى أيدى الموظفين وأرباع الموهوبين الذين يعيشون على محاولاتهم اللحوحة لضرب مراكز الثقافة الجادة وازجاء النفاق للسلطة فى نفس الوقت • حتى يضربوا وهم آمنون ألا تمتد اليهم يد أو قلم، بالمعنى الحقيقى والمجازى للكلمة • فى هذا الوقت اشتعل الحماس فى كل العواصم العربية الأخرى للاستقلال تماما عن ثقافة القاهرة • وصحيح ان معظم هذا الحماس كان أجوف، ولكنه استطاع ان يفرز عددا لا بأس به البتة من المواهب الخلاقة حقا فى كافة أرجاء الوطن العربى • انه الجانب الحسن فى مأساة القطيعة •

ولكن السبعينات ما كادت تمضى ويجىء عهد مصر الجديدة في أوائل الثمانينات بعد رحيل أنور السادات ، حتى بدأت الأصوات الضفدعية هنا وهناك تهجع ، وبدأ الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الليل يتضح ، ونظر الجميع فاذا القاهرة لا تزال هناك ، لم ينته فيها أحـــد ذو شأن ولم يذهب الى اسرائيل الا كل من يستحق الذهاب الى اسرائيل ، وابدا لم تمت القاهرة ولن تموت • أيضا فى ذهابنا نحن الى العواصم العربية لمحنا ان ثمة نهضة عظيمة فى السبعينات قد حدثت وان وجودها مشرقة للثقافة العربية قد ظهرت أو أزيح عنها الغمام •

ورغم ان المسائل السياسية لا تزال حيص بيص ، الا اننا ثقافيا على الأقل بدأنا نعود نتعانق ، اخــوة فينا الــكبير والصغير ، ولكنا اخوة ، تحامسنا ، وتشاتمنا ولــكن شتائمنا والحمد لله من نوع سحابات الصيف لا يعقبها أبدا تحريك طابور دبابات ــ كشتائم السياسيين ــ ولا سحب المسدســات والضرب فى المليان • كما يحدث فى أحيان •

هــكذا كان لقــائى باخواننــا كتاب ومثقفى وصحفيى وتليفزيونى الأردن •

★★★

وكنت قد قرأت أوائل المسرحية وأنا فى القــاهرة قبــل ذهابى الى عمان • مسرحية منـــذر هنداوى ومسز تاتشر والموساد • ولا أقول مسرحية كنوع من التريقـــة ، انما هى حقيقة مسرحية أنا متأكد انهم لجأوا الى كاتب مسرح ليؤلفها والى ضابط مسرحى من الموساد ليخرجها •

زمان كان عمل المخـــابرات التجسس على ما حدث أو ما يحدث ، الموساد باعتبارها طليعة وضليعـــة فى أعـــمال التخابر بدأت لا تكتفى بهذا ، وانما بدأت تأخذ خطوة أكثر تقدمية و (تضع) هى الأحداث وتلفقها • طبعا لم تأت تلك الخطوة من فراغ لقد تدربت عليها التنظيمـــات الارهابيـــة الاسرائيلية منذ عصر ارجون تسفاى ليومى وشركاهـــا ، من أيام فضيحة لافون حين أرسلت شابين يهوديين للقيام بنسف بعض المنشآت الامريكية فى مصر لاحداث أزمة شديدة فى العلاقات المصرية الامريكية آنذاك •

هذه المرة ظللت • ككاتب مسرحى ـ أتأمل كيف ألفت الموساد هذه القصة بطريقة تبدو محبوكة أو كالمحبوكة تماما، شاب من أصل عربى ضائع فى لندن تعرفه (الظروف) بفتاة يهودية ، ويصاحبها لعدة شهور فتحمل منه • وهنا يوسوس له (شخص) بانه يستطيع ان يكسب كذا ألف دولار اذا هو أرسل صاحبته الحامل تلك الى القدس على طائرة العال ووضع لها فى حقيبتها قنبلة زمنية • وكيف أكسب ؟ ان السوريين مستعدون أن يدفعوا اذا تقدمت اليهم بتلـــك القصـــة التى لا يتسلل اليها أى شك •

وهكذا يذهب الشاب لوداع الفتاة بنفســه عند شركـــة خطوط العال فى مطار لندن ، والفتاة ، تعرف أو لا تعرف هذا غير مهم ، المهم أن الحقيبة دون بقية الحقـــائب هى التى تؤخذ الى الداخل ، وتفتش أو توضع فيها القنبلة سيان •

المهم أنهم يتركون الشاب ولا يقبضون عليـــه فى المطار وانما يتركونه حتى يذهب الى السفارة السورية ليثبتوا هذا فالشاب بذاته ليس مطلوبـــا ولا يساوى عندهم أو عندنـــا شيئا ، المطلوب جر رجل سوريا لكى تبدو أمام العالم ارهابية

مقبوضـــا عليهـــا والدم على يدهـــا ســـاخن ، كمـــا يقولون بالانجليزية •

وأيضا لم يكن المطلوب سوريا وحدها ، فبعد دمغ ليبيا بالارهاب وضربها بالقنابل ، ثم تراجع الاتهامات الامريكية عنها ــ وهذا شيء مضحك تماما ــ جاء الدور على ســوريا •

والمشكلة التي لا نعرفها نحن كمصريين أو كعرب ، أن المسألة ليست ليبيا أو سوريا ، المســألة هي العرب ، ونحن ، المصريين شئنا أم أبينا ، عرب في نظر العالم كله ، بل نحن نصف الأمة العربية بأسرها • تلك هي المسرحية التي الفتها الموساد ومثلها فتى عربي ضــائع وفتاة يهوديــة خرجت من الرواية حاملا ورزقت بمولود حقيقي وليس من شدة الحبكة ، مسرحيا أبدا ، وأنتجتها وأخذت تســوقها المرأة التي ليست حديدية الا بمقدار ما يقف الرئيس ريجان يحتضنها ويصنع لها ظهرا •

ولأن هناك في هذا الكون الها عادلا ، ولأننا نحن العرب نضرب من أعدائنا ضرب غرائب الابل • ولاننا كلنا عندهم أولاد (•••) عرب ، سواء منا المعتدل أو المتطرف ، الرافض أو القابل ، أو العلاقات الخاصة بأمريكــا أو بالســوفيت ، فنحن ، كلنا ، نتلقى الضرب بطريقة أو بأخرى ، من الباخرة أكيلي لا ورو أو خطــف الطــائرة المصريــة ، أو من تلــك المسرحية الفاشلة مع سوريا ، أو تزويد ايران بالسلاح عن طريق اسرائيل لضرب العراق •

ضرب ، ضرب ، ضرب ، ضرب تحت الحزام وفوق الحزام سرا وعلى الملأ ، من رفع ســعر الفــائدة الى الصواريخ فوق بغداد ، من تسليط أمل على المقاومــة الى تحريض المقاومة ــ

بضرب معسكراتها ـ على أمل ، الضرب نـازل فينـا كلنا ، ونحن مخدرون أو نيام ٠

★★★

مسرحية هنداوى ـ تأتشر ـ موسـاد ، كـانت مسرحية فاشلة ، بدلا من أن يبكى الناس على مأساتها ، ضحكوا ، ولم يصدق معظم العالم الا أنها من نوع مسرح البوليفار ٠

ولان المانيا الغربيـة لم تصدق ، ولم تنضم لتاتشر فى اتهاماتها ، فقد كان لا بد أن تكتشف المخـابرات الالمـانية (المخترقة تماما والمتعاونة مع الموسـاد تعاون الشـقيق مع الشقيق) أن اثنين أردنيين هما الآخران قد أخذا نقودا لكى يضعا قنبلتين فى طائرتين من طـائرات العـال بتحريض من سوريا ، وتكرار الكذبـة قد يدفع فى النهايـة للتصديق ٠ ولكنها على أية حال نوع جديد من نشـاط المخابرات ، ذلك النشاط المسرحى المكثف ، وربما مشكلة المخابرات العربية أنها لا تستعمل خيالها المسرحى أبدا ، وتكتفى بالتخابر على الغلابة من مواطنيها وكان الله يحب المحسنين ٠

وما دمت لم أستمتع بمسرحية مسز تاتشر ولا بالعرض القـادم فى ألمانيـا (كـول) ، فقـد قـررت أن ألبى الدعوة التى وجهتها لى الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة فى سوريا والأسـتاذ أسـعد فضـة مدير مهرجـان دمشـق المسرحى ٠ وقد كنت فى عمان ، على مرمى حجر من دمشق ٠

كان عقلى يموج بمشاعر مختلفة وأنا فى الطائرة التى ستأخذ أربعين دقيقة فقط للذهاب الى دمشـق ٠ أنا لم أزر دمشق منذ عام ١٩٧٢ ٠ مع أنى كنت متعودا أن أزورها هى وبيروت ، كل عام مرة قبل هذا ٠ الآن ضـاعت ، علينـا على

الأقل نحن زوارها ، بيروت ولم يبق من الشام الكبير غير دمشق · فكيف هي دمشق الآن · وماذا جرى لنا ولها ؟

★★★

الحقيقة لا أستطيع أن أصف بالتفصيل كل ما حدث ، فمن لحظة ان وضعت قدمي في مطار دمشق وثمة بحر من الحب الخالص قد ابتلعني وبالكاد وصلت الى الفندق لأجده يضج بالمصريين المسرحيين الذين جاءوا لأول مرة منذ عام ١٩٧٧ يشاركون في أهم مهرجان مسرحي في الوطن العربي، مهرجان دمشق الذي يقام كل عامين مرة · وجدتهم هم الآخرين سكارى بالاستقبال الحار وما هم بسكارى · ولكن هذا الشعب السوري يملك قدرة وطاقة على الحب ، وحب المصريين بشكل خاص الى درجة ان كلا منا فقد وزنه حقا · مآدب وحفلات واحتفالات ، ترحيب وتكريم حتى من أصحاب المحلات وباعة الملابس · بحر فياض من الحب جعلني أحدق في وجه فنانتنا الكبيرة سميحة أيوب بعد عرض مسرحية الوزير العاشق لبطلها العملاق عبد الله غيث وشاعرنا الشاب فاروق جويدة واخراج الفذ فهمي الخولي · حدقت في وجهها ولم أصدق نفسي ، كانت قد صغرت خمسة عشر عاما على الأقل وقلت لها هذا فقالت : ألم تر كل ما أحاطوني به، أترى كل هذا الحب ، من سنين كثيرة لم أحظ به وبكل هذا الدفء، حب جعل التزاحم على رؤية العروض المصرية من الشدة بحيث استدعيت قوات (حامية دمشق) لتنظيم الدخول الى المسرح · في غمار هذا الحب المتدفق العظيم ولد أحسن حدث · فقد أعلن قيام اتحاد الفنانين العرب · ووقعت على الاعلان أربع عشرة دولة عربية واختيرت القاهرة من كل هذه الوفود · وبعضها لا يزال يقاطع القاهرة سياسيا وتمثيلا دبلوماسيا ،

اختيرت القاهرة مقرا للاتحاد · والحقيقة ان الصديق الكبير سعد الدين وهبة رئيس اتحاد الفنانين المصريين قد لعب دورا عظيما ليس فقط فى قيام اتحاد الفنانين العرب ولكن أيضا فى اختيار القاهرة عاصمة له · ومن أجل هذا قابله الرئيس حافظ الأسد ، ولولا أن دمشق كانت هى الأخرى تريد أن ترسل مكتوب حب للقاهرة لما كان هذا الاختيار ، ولما كان الرئيس الأسد قد قابلنى أنا الآخر ومنحنى من وقته الكثير ولما كان قد اختص بلقائه الكتاب والفنانين المصريين وحدهم · والحقيقة اننى من فرط ما رأيت من علامات عشق طال كبته تصورت ان أكثر شعبين من الشعوب العربية يحبان بعضهما البعض هما السوريون والمصريون · وقد دفعنا هذا الحب للزواج ذات مرة · زواجا لم يدم كثيرا · فعند أول خناقة زوجية ، حكمت محكمة قهرية ظالمة على الحبيبين بالفراق الأبدى · ولكن الحب الكبير لا يزال هناك ·

ما أبأسها من محكمة ، وما أبأسها من ظروف سياسية فرقتنا ، ورحم الله من كان ومن كانوا السبب ·



حسن جدا ·

أن قيام اتحاد الفنانين العرب بداية لأن ندرك ان الروابط الثقافية العربية لا يجب أن تنقطع لأى سبب من الأسباب وتحت أى ظروف سياسية عابرة ·

فاذا كان السياسيون العرب قد فشلوا فى توحيد كلمتهم ، الا يمنحوننا نحن الكتاب والمثقفين والفنانين فرصة للالتفاف حول كلمة ثقافية فنية واحدة ·

ان الثقافة والكتابة والفن هى أهم انتاج عربى الآن على الأقل ٠

وهى بطبيعتها مجمعة لا تفرق ، متآلفة لا تشتبك ، واشتباكاتها اذا حدثت محمودة ، فهى تكون من أجل مزيد من التجمع والتبلور والاتفاق ٠

والثقافة المصرية بالذات ، ومنذ السبعينيات ، قد وصلت على أيدى المسئولين عنها والأجهزة التى تقوم عليها الى مستويات من الاهمال والاجرام والخنق الى درجة يبدو الأمر وكأنها مؤامرة على أهم ابداعاتنا وصادراتنا قاطبة : الأدب والسينما والمسرح والتليفزيون ٠

وقد شاهدت بعينى فى عمان وبغداد ودمشق وتونس والمغرب والكويت والامارات والسعودية واليمن وحتى البلاد التى فيها قتال كلبنان ، فالفرق اللبنانية تتقاتل ولكن الثقافة اللبنانية واحدة متحدة ، وكعادتها خلاقة واعية ، شاهدت بعينى كيف ان الثقافة ممكن أن تجمعنا وتجعلنا نجمع على كلمتنا ٠

واذا تجمعنا ثقافيا فمن الممكن ــ بعد هذا وليس قبله أبدا ــ ان نتجمع اقتصاديا ثم ليس مهما بعد هذا ان نتجمع أو نتفرق سياسيا ، فالشعوب ليست مسئولة عن السياسات التى تحكمها والتى تختلف باسمها أو تتفق ٠ انما الشعوب هى التى تفرز الثقافة المتفقة وتقوم بالاقتصاد المتفق ٠



نكون أو لا نكون ٠

كان هذا عنوان محاضرتى ٠

والاجابة التى عـــدت بها : اذا لم نقم ثقافيا أولا فلن نكون ، فالثقافة هى روحنا ، والسياسة هى أجسادنا ، فـــان تنافرت الاجساد فلا كيان لنا الا بلقاء الأرواح ٠

★★★

خطاب من كاتب نجدى

بدوى بكل ما تحمل الكلمة من ايجابية وأنفة وتواضع وكرم وكبرياء ··· فى السبعين ولكنه سمهرى القوام وكأنه عود من أعواد الخيزران الجبلية التى لم ينل الزمن من استقامتها واعتدالها ·

فى الأسبوع الذى قضيته فى المملكة العربية السعودية مدعوا لحضور مهرجان الثقافة والتراث الذى اقامه الحرس الوطنى كان هذا الرجل، الشيخ عبدالعزيز التويجرى الكاتب السعودى المشهور ونائب قائد الحرس الوطنى الأمير عبد الله ابن عبد العزيز هو العقل المدبر للمهرجان وللفكرة · ورغم أن دهشتى للدعوة كانت كبيرة اذ تساءلت : ما علاقة الحرس الوطنى بالثقافة والفنون والتراث وكان حب استطلاعى هو دافعى الأكبر للزيارة لأرى هذا الجهاز المسؤول عن الأمن الداخلى كيف وأى ثقافة يتبنى ؟· وسألت الشيخ التويجرى المسؤول فأجابنى على البديهة قائلا : ان الحرس الوطنى ان لم ينبع من جذور تراثية يفخر بها لا يمكن أن يكون هو الأمين على البلاد بتراثها وثقافتها وكل ما وصلت اليه ·

والحقيقة اني منذ قابلت الرجل ، بهرني بشخصيته ، الحياة العائلية التى يحياها وكيف أقام لاولاده جميعا منازل مجاورة تماما لبيته بل ان العائلة التويجرية كلها تقطن متلاصقة الجدران مكونة ما يشبه العائلة الواحدة التى لا بد ان يجتمع أفرادها كل يوم مرة على الأقل ٠

وحين دعانا نحن وفود الدول العربية المشتركة فى المهرجان حوالى سبعين كاتبا من الكويت ومصر وسورية والعراق واليمن ولبنان والسودان ، تقريبا كل بلاد الشرق العربى ، هذا فوق الكتاب السعوديين المساهمين ، حين دعانا للعشاء حسبت أن الذين يقدمون لنا الطعام ويعزمون علينا به هم بعض حاشيته فاذا بى اكتشفت انهم كلهم أبناؤه ٠ لم تتح لنا فرص الاجتماع به طويلا فمشاغله — والمهرجان — كانت تستحوذ على القدر الأكبر من وقته ٠ ولكنه فى كل اجتماع كان ، على السليقة هكذا يحدثنا بحديث وكانه كتبه فى عقله سلفا ، حديثا جادا عذبا مليئا بالحكمة وتجربة الحياة فى مرها وحلوها ٠

ولكن أعذب حديثه كان عن نجد ٠ وكنت لأول مرة أزور نجد التى تقع فى الرياض ، عاصمة البلاد فى قلبها ٠ ولم نجد انسانا يعتز بموطنه وأصله مثلما وجدت الشيخ التويجرى يعتز بنجديته وبداوته ٠

الى أن كان ذات يوم ودعانا — نحن الوفد المصرى — الى بيته فى جلسة خاصة ، وفى حديقة منزله جلسنا ودار حديثنا معظم الوقت عن المتنبى الذى يعشقه الشيخ الى درجة أن كتب عنه كتابا ضخما اسمه : رسائل الى المتنبى ٠ وقال لنا انه مع المتنبى فى كل بيت قاله ولم يختلف معه الا فى أمر واحد هى قصيدته المشهورة فى هجاء كافور الاخشيدى ٠

وحين سألناه لماذا ، قال لانه فى تلك القصيدة لم يكتف بهجاء كافور ولكنه سب الشعب المصرى سبابا مفزعا وتلك كانت غلطة قاتلة ، وأخذ يكيل المديح لهذا الشعب الذى عاش بينه ولمسه عن قرب ووجده أبعد ما يكون عن الألفاظ التى سبه بها المتنبى ٠

وسأله سائل منا وكنا كامل زهيرى ورجاء النقاش قد أخذنا بحديث الرجل عن أية مؤلفات أخرى له ٠ قائل : عندى كتاب اسمه رسائل الى ولدى ٠ وطلبناه منه ، فأمر ابنه ، وكان واقفا طوال الوقت ، لم يجلس أبدا مع أن الجلسة استغرقت ساعات لم يجلس أبدا حتى يكون تحت أمر أبيه فى أى أمر يطلبه ٠ وبينى وبين نفسى سعدت بهذه الظاهرة سعادة لا يعرفها الا من يعيش فى مصر ، وله أولاد فى مثل سن ابنه (فى العشرينات) ولا يرى ابنه الا فى المناسبات ، واذا طلب منه مطلبا اعتذر بما يعن له من اعذار ٠

طلب من ابنه أن يحضر سبعة كتب ، وكنا سبعة من كتاب رسائل الى ولدى ، وجاءت الكتب واختار الأخ عدنان الذى يعمل فى اليونسكو كمندوب لمنطقة الخليج وأخذ يملى عليه اهداءاته لنا ٠

وحسبت أن اهداءاته لن تخرج عن الاهداءات التقليدية التى تذيل بها كتبنا : الى الأخ فلان مع خالص الود والتحية ٠ واذا به يملى على عدنان لكل منا اهداء يستغرق صفحة ويعتبر مقالة قصيدة أو قصيدة مقال ، ويقولها هكذا على البديهة دون أن يبذل أى جهد فى استخراج معنى أو تعبير وكأنه يغترف مباشرة من مياه الأرض العميقة ٠

سبعة اهداءات مختلفة ، هكذا على السليقة ، وببديهة حاضرة حيث انه كان اذا رن التليفون وقطع عليه املاءه

وانتهى من المحادثة يعود للاملاء عند الكلمة التى توقف عندها ٠

معجزة بدوية حقيقية فسرت لى كثيرا من أمور الشخصية العربية والنجدية بشكل خاص ، فأهل نجد شديدو الاعتزاز بأنفسهم ، وحتى الاسلام العظيم لم يقبلوه الا بعد صراع مخيف اضطر معه أمير المؤمنين أن يرسل لهم جيشا بقيادة خالد بن الوليد يخضعهم ويعيدهم الى حظيرة الاسلام ٠

وقد ذكر لى الشيخ عبد العزيز ان جيشين فقط هما اللذان نجحا فى الوصول الى نجد : جيش خالد بن الوليد رضى الله عنه وجيش ابراهيم باشا حين عجزت الدولة العثمانية عن اخضاع الوهابيين فأرسل لهم محمد على باشا والى مصر جيشا بقيادة ابنه طوسون ، فشل فى الوصول ، ثم جيشا ثانيا ، ثم أخيرا جيش ابراهيم باشا الذى نجح فى الوصول الى نجد ودمر الدرعة التى كانت تعتبر العاصمة فى ذلك الوقت ٠ ولهذا فطوال التاريخ بقيت نجد بعيدة عن أى مستعمر أو غاصب تحيا فى منطقة من أوعر مناطق الجزيرة العربية ، ومصرة على الحياة فيها والاستمساك بها ٠

★★★

وكنت قد أهديت الشيخ عبد العزيز التويجرى كتابى «فقر الفكر وفكر الفقر» ، ولقد أعدتنى طريقته فأهديته اهداء مطولا تحدثت فيه عن تجربتى فى العمرة ، والنور الذى ملأ قلبى وأنا أصلى فى الروضة الشريفة وأطوف بالكعبة وحتى وأنا أسعى بين الصفا والمروة ٠

وفوجئت أمس بخطاب من الشيخ عبد العزيز موجه لى ولكنى حين قرأته وجدت أن من العبث أن أحتفظ بالخطاب

لنفسى ، ولابد أن أشرك معى قرائى ، والآن الى الخطاب فلى بعده تعليق ...

عزيزى الأخ الدكتور يوسف ادريس

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

لا أدرى كيف الطريق اليك فى هذه الرسالة ، فقصتك مع الحياة والطريق الذى مشيت عليه لا أعرف هل خطاها خطى مستريحة أم مثقلة بهموم الحياة وعناء الطريق . وما لم أعرفه أتجاوزه ولا أخوض فى مياهه فما عودت قدمى خوض المياه التى لا أعرف من أين أتت والى أين هى ذاهبة . فيوم قابلتك قبل أيام فى قلب الصحراء وسمعت منك ولاحظت عليك ملامح الحيرة والتساؤلات التى تبعثرها هذه الحيرة على طريق الزمن الطويل ، أخذنى حب الاستطلاع الى المحاولة المخلصة فى أن أتحسس نظرتك الى الحياة فهى التى ولا شك لها الدور معك ومع سواك من البشر ، وقد تبينت أن بينك وبين قمر السماء وشمس الضحى ضبابا كثيفا ولانه ضباب ولم يكن غيوما لا تحمل مياها أشعر أن نسمه تهب من داخلك فيها ريح الصبا تبدد هذا الضباب وينقشع فاذا الحقيقة أمامك ناصعة لا غيوم عليها ، وقد لمست هذا فى الاهداء الذى صدر عنك لى وأنت فى زيارتك لمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم والكعبة المشرفة ، رأيتك فى كلمات مؤثرة تقول لى : لقد رأيت الحقيقة وأحسستها أمانا فى داخلى .

اذا .. ليت الانسان لا تأخذه فيما يتصور انه متناقضات فى هذا العالم الداخلى منه والخارجى حيرة والطرق معبدة علامات الطريق والهداية عليها واقفة مع الشموس

والمجرات العظمى فى هذا الكون الذى لا حدود له ، تتقاصر دون أبعاده خطى السرعة الصوتية ، بل أهم من ذلك كله علامات الطريق فى نفسه ، فى عقله وذهنه فى حركة الذات التى لا تهدأ لحظة واحدة فمن تأمل الحركة الدؤوب داخل نفسه ووجدانه وعقله يشعر انه قد حمل المسؤولية العظمى فى هذه الحياة لحكمة قد لا يدركها كل الادراك ويكتشفها عقل الانسان الذى أتصور أن له مملكة خاصة فى هذا الكون وأسراره منحه الله اياها ، هذه المنحة هى التى يسير فيها عقل الانسان ويتحرك باكتشافاته وعلومه وماديانه ، واذا حاول أن يتجاوزها الى ما لم يكن من حقه خارت قواه وصدمه العجز وهنا يقع التناقض والامتحان للانسان ، فمن قال لا شيء الا تتصور انه تجاوز قدره وعاب نفسه فكل ميسر لما خلق له ٠

عزيزى الدكتور

لانك فيما كتبته لى أكدت أن لقاءاتنا أعطتك قناعات مشرقة فى نفسك وان لهذه الزيارة تأثيرا نفسيا وروحيا وعاطفيا تجاه الاسلام،ولا شك ان رجلا مثقفا مثلك لا يعصب عين عقله وذهنه ووجدانه عن التطلع الى الحقيقة فى آفاق واسعة من العبر والنظام الكونى والبشرى الذى لا صدفة فيه لخطأ ، أو خلل ، لا أقول هذا تلقينا أخذته من امام مسجدى أو شيخى فى حلقة الدرس فقد ولدت فى صحراء معزولة عن العالم ، لم ندر ما هو ولا نحس بوجود عالم أوسع من عالم الصحراء ، فلا مذاهب ونظريات ولا فلسفات ولا مدارس ولا علوم مطايانا جمل أو حصان أو اقدام حافية ، مرت بنا الحياة فى هذه الصحراء فى ظروف متباينة حتى وصلت بنا الى أيامنا هذه ، وحين تحطمت السدود فى هذا العالم وأصبح الانسان يسمع همسات منادية فى أقصى الأرض فى أسرع من

لمح البصر وتزاحمت بالمناكب علينا نظريات العالم الرأسمالى والمادى الى ما هنالك من نظريات وفلسفات أعطت لنفسهـــا صورة قليلا ما مشت خطوة أو خطوات فى الطريق المزدحم ، فى هذه الحالة يرى الانسان انه لا أحد مسؤول عنه ولا حامل مساوئه أو واهب له حسناته غير نفسه ، وعلى مدرج الحياة الطويل حاولت شخصيا أن أطلق لخيالى ولذهنى ولتصوراتى جناحا من الأمل فى ألا يسقط أو ينكسر فى أثناء الطـــريق فينكسر لانكساره إيمانى وأضيع فى متاهات ركبهـــا غيرى فأنزلته فى منازل لا خيمة تظلله ولا علامة تهديه ، ضياع فى ضياع ٠٠٠ وخضت مياه الآخرين بما فيها من نجاسة وطهارة، بما فيها من مياه آسنة وأخرى عذبة فاذا المـــادة لا تصـــمد ولا تسند العقل عن الدوار اذ كانت المادة والماديون فقاعات على سطح الماء واللالىء فى أعماقها ، نعـــم ما ركبت خيالى ووجدانى وعقلى دون أن أمنحهم الحرية المطلقة فى البحث عن الحقيقة حتى لو تجاوزت مواريثى الخاصة وتجاوزت وصايا الآباء والأجداد البسطاء وحكاياتهم ، ذلك انى لا أريد أن أكون امعة ، أما ماذا عدت به من هذه الرحلة التى لا تقل عن عشرين عاما وراء كل مناد وعلى أى طريق ، فقد عدت بما عاد به أحمد أمين رحمه الله حين قال لابنه : (آمن ولو ألحد الناس ووثق صلتك بالله وان قطعها الناس) ٠

قد لا يرى الانسان اليوم القدوة الصالحة فى هذا العصر لعظمة الرسالة الانسانية فى عدلها ومساواتها فى الحـــقوق والواجبات فلا كسروية فيها ولا قيصرية ولكنها الرحمـــة المهداة ٠

عزيزى :

لعلك تعرف أننى بدوى ، لم أدخل مدرسة ، فلا تطالبنى

بما يطالب به الفقيه أو الكاتب أو المفكر ، لكننى وبعد أن أتحت لى فرصة الحوار معك على جادة الحق ، آمل من الله أن يوفقك فى آخر العمر الى التحول المطلق نحو حرث أرضك الذاتية وتنظيفها من كل نبتة طفيلية عليها ، وغرس أشجار الهداية الانسانية فيها ، واذا قابلك على الطريق حجر عثرة فحاول أن تسلم من أذاه وتتجاوز الطريق فى رضى وسماحة وتسامح لا يأخذك الغضب على احد فالميزان العادل بيد الله ، فاذا حكم عليك انسان بحكم خاطىء ، دع الله يحاسبه ، حاول أن ترد السيئة بالحسنة ٠

عزيزى :

آلا يمكن أن نرد كل ما يعانيه انسان هـذا العصر من عذاب وألم وفقر ونزيف دماء وتجاوزات على القيم والمثل العليا سببه آن منبر الفضيل بن عياض والشيخ الجليل ابن الجوزى نزل عنه الواعظ التقى فصارت قفرا موحشا ذاتية الانسان ؟ ٠٠ لا أقول هذا متشائما آبدا ٠ ففى الأرض ولا شك اتقياء وصالحون ، ولكنهم لا يستطيعون ان يحتلوا منابر الوعظ فى حرية الخليفة الأول والخليفة الثانى التى قالت : اذا رأيتم فى اعوجاجا فقومونى ٠٠

طبعا هناك فى علو الزمن للاسلام وللمسلمين شموس وأقمار ٠٠٠ هم من يضيئون لنا الطريق بذكراهم كلما أظلمت الدنيا أمامنا ، فللانسان الحائر عندهم الخلاص من حيرته ٠ أقول هذا وكلى رعب حتى من نفسى ٠ ألفاظ تقطر على القلم ثم على الأوراق فاذا تجمعت وصارت الى جمل مقروءة وراجعتها فى نفسى وأردت أن أقرأها كما أقرؤها على الورق تكورت على بعضها بعضا حتى لا أقبض على شىء ، وهنا يلحق السؤال والتساؤل فيما بين السريرة والعلانية

من نسب فلا ينسب هذه لتلك وهنا فجيعة المتســـائل الذى لا يأتيه جواب ٠

وختاما تقبل تحياتى ٠٠٠٠

أخوكم

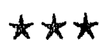
★★★

هذا كما نردف خطاب كاتب لم يدخل مدرسة ، وعــلم نفسه بنفسه ، ووصل الى تلك المرتبة العليا فى القدرة على التعبير ٠ هذا كاتب ابن البادية حقا ٠ حين تقرأه تحس أن هؤلاء العرب لم يقوضوا أعظم امبراطـــوريتين فى التاريخ القديم عبثا ، انما بهذه القوة والصلابة والذكاء وقد فجرها الايمان بالدين الحنيف فعلوا هذا العلو ٠

أما عن تساؤلاته الخاصة بى ، وعن ايمــانى ، فــانى اعتذر له لانى لن أجيب فأنا اعتبر أن ايمان الانسان شيء مقدس ، وسرالهى لا يجوز البوح له لان فى البوح به اهدار لقداسة السر ٠ انى أفضل أن أعبد الله فى صمت وبلا جعجعة وبلا اعلان ، فاذا كان الاسلام الحنيف دينا عاما للمسلمين قاطبة بل للبشر أجمعين فان العلاقة بينى وبين الله سبحانــه علاقة من العمق والاتصال بحيث اعتبر أن اخراجها وعرضها على الملأ ــ كما يفعل البعض ــ نوع من التفاخر بل أكاد أقول الاتجار بالدين ٠

★★★

شكرا أيها الأخ على خطابك ، وليت الحـــديث بيننــا لا ينقطع فمع مثلك ومن مثلك يتعلم المرء أضعاف أضعاف ما يقرأه فى الكتب ٠



ذلك الرجل المحير للبرية

ذلك المحير للبرية .. العقيد معمر القذافى

ما من جلسة ضمت مثقفين عرب ، أو أجانب ، أو حتى جلسات مختلطة .. وما من مرة تطرق الموضوع الى القضية العربية ، أو الأوضاع العربية ، أو القادة العرب الا ، وبالضرورة توقف الحديث عند معمر القذافى . وعشرات الجلسات كتلك حضرتها وشاركت فيها ، وكان شغفى الأكبر، حين يتوقف الموضوع عند العقيد ، ان أعرف ، على وجه الدقة آراء الناس فيه .

كانت هناك بالطبع مجموعة ضخمة تكتفى بالقول أو الصفات المعتادة التى كان يطلقها عليه السادات والساداتيون، والبورقيبيون ، وأحزابهم بالقول انه رجل مجنون ..

ولكن كان هناك ذلك النفر الذى لا يكتفى بهذا النعت الساذج للعقيد ، ولكنه يؤكد وكأنه العالم ببواطن الأمور ، ان الرجل ليس مجنونا كما يقولون ، أو مدعى جنون كما يتصور البعض ، ولكنه « عميل » أميركى ، زرعته أميركا فى المنطقة زرعا ، ورعت « ثورته القومية العربية » ليكون

عامل فرقة وتخريب وتحطيم للتجمع العربى · وانه لولا ان الاميركان يريدون هذا على وجه التحديد لما آزروه وقووه الى درجة استطاعوا معه أن يستأصلوا النفوذ أو « الاستعمار » الانجليزى الذى كان يشكل بالقاعدة التى سماها بعد هذا قاعدة جمال عبد الناصر ، نقطة ارتكاز متينة لبقية من النفوذ البريطانى المتمثل فيما يسمى الآن حلف شمال الاطلنطى مزروعة داخل قلب العالم العربى · ويستشهد القائلون على هذا بالسهولة التى تمت بها الثورة . وتم بها اجلاء الانجليز والايطاليين والاميركان من ليبيا ، بحيث ان « الثورة » لم تلق أى مقاومة تذكر ، لا من الجيش الملكى السابق ولا من حلفاء الملك الانجليز وغيرهم · ان المشكلة ان الاميركان حين بدأوا يدركون ان الملك ادريس السنوسى أصبح حكمه مزعزعا ، وقابلا للاقتلاع فى أية لحظة ، وان الحركة الوطنية الليبية قد زخمت بالاتجاهات الثورية التى كان الاتجاه الناصرى فيها هو أقواها جميعا ، ويهدد بقيام ثورة شعبية ناصرية القيادة والاتجاه ، ثورة ليبية تلقائية غير مضمونة ، وبالقطع ستقوم ضد الغرب والنفوذ الاميركى المتصاعد ولهذا فقد أصبح الوضع يحتم اجهاض هذه الثورة المقبلة ، بانقلاب عسكرى يأخذ شكل الثورة ولكنه فى نفس الوقت « مضمون » من ناحية قيادته ومن ناحية اتجاهاته ·

والغريب ان مثل تلك التحليلات قد قيلت بنصها وحذافيرها عن « ثورة » حسنى الزعيم فى سورية حين قامت كانقلاب عسكرى فى أواخر الأربعينات وبنصها وحذافيرها قيلت عن ثورة عبد الناصر عام ٥٢ باعتبار ان الاميركان كانوا قد بدأوا يدركون ان القبضة الانجليزية والرجعية على بلاد الشرق الأوسط قد أخذت تتراخى وان المد الثورى الشعبى قد أخذ يهوى بشدة على أمثال تلك الأنظمة مهددا

باكتساحها بواسطة ثورات شعبية حقيقية كما حدث بعد هذا في ثورة الجزائر ٠

قيل هذا كما قلت ، والفت فيه كتب ، بل وظهرت وثائق تنشرها الآن وزارة الخارجية الاميريكية عن اتصالات قامت بين كافرى السفير الاميركى فى القاهرة فى ذلك الوقت وبين تنظيم الضباط الاحرار الذى وجد فيه الاميركان ضالتهم المنشودة ليساندوا فى انقلاب عسكرى يطيح بالملك فاروق ويضع بعض الاصلاحات الداخلية المحدودة الأثر مثل قانون الاصلاح الزراعى ويرفع شعارات مثل التى ارتفعت فى أول « الثورة » مثل الاتحاد والنظام والعمل ، ويحل الاحزاب القائمة ، ويقيم حكما عسكريا دكتاتوريا تكون لافتته « التطهير » ومحاكمات لرجال الأحزاب والسراى ٠٠ الى آخره ٠٠ والغريب أيضا ان كل هذا قد حدث وانه قد ثبت الآن من واقع وثائق وزارة الخارجية الاميركية التى تنشر اليوم ان هناك اتصالات وثيقة كانت قائمة بين «كافرى» وبين جمال عبد الناصر عن طريق وبوساطة أحمد حسين باشا سفير مصر فى أميركا ، وقيل أيضا ان حلقة الاتصالات كانت تتم عبر بعض كبار الصحفيين ومنهم كما قال مايلز كويلاند فى كتابه المشهور « لعبة الأمم » محمد حسنين هيكل ، ولكن ليس عن طريق الاخوة مصطفى وعلى أمين اللذين كانا يعتبران من معسكر الملك والانجليز وغير مؤتمنين على الاشتراك فى « الانقلاب الاميركى القادم » ٠

هذا كله سمعناه ككلام مجالس ، بل أعترف اننا كنا منتبهين اليه ، وقلنا هذه تعود الى تنظيماتنا الطلابية الشبابية والشعبية فى أعقاب ثورة ٤٦ ومجىء الوفد الى الحكم ، وكانت تلك التنظيمات تضم جبهة عريضة من بقايا قيادات

لجنة الطلبة والعمال التى قامت فى أيام حكم صدقى لمقاومة معاهدة صدقى بيفن ومن خلال تحالف كان قائما بين الطليعة الوفدية والاخوان المسلمين وشباب الحزب الوطنى ومصر الفتاة وبعض التنظيمات اليسارية والتقدمية ٠

كنت فى ذلك الوقت سكرتير عام اتحاد طلبة كلية طب قصر العينى ، ومندوب الكلية فى اتحاد طلبة الجامعة وكانت كل الاتحادات يقودها الطلبة بوساطة انتخابات طلابية حرة تصبح فى نفس الوقت هى القيادة السياسية لجماهير الطلبة والعمال ٠

فى أواسط عام ١٩٥٠ بدأنا نقلق خوفا على الحكم الوفدى فى ذلك الوقت الذى كان قد وصل الى الغاء معاهدة ٣٦ بيننا وبين الانجليز وقال النحاس باشا كلمته المشهورة : باسم مصر وقعتها وكان هو رئيس الوفد المصرى « المؤلف من تحالف الأحزاب التى وقعت المعاهدة » وباسم مصر الغيها وتطور الحال ٠ الى حد الكفاح المسلح فى القنال الذى كنا نقوم به ومعنا مجموعة من ضباط الجيش المصرى الشبان الذين كانوا يدربوننا على اطلاق النار وعمليات النسف والحرق وكان على رأسهم ضابط رائع هو المرحوم كمال رفعت من أبرز تنظيم الضباط الاحرار بعد هذا وكان الخط السياسى للاخوان المسلمين فى ذلك الوقت هو التوسع ما أمكن فى حركة الكفاح المسلح فى قناة السويس ، بحيث تتحول الى حرب شعبية ، تحرر البلاد وتقوض الحكم القائم ، بينما كان مفهومنا نحن وخطنا السياسى (الطليعة الوفدية والتنظيمات اليسارية والتقدمية)هو حماية حركة الكفاح المسلح في القناة من القاهرة ، بحيث لا تطعن هذه الحرب بضربة توجهها السراى أو الانكليز أو هما معا ، مظهر حركة الكفاح المسلح تلك من القاهرة ٠

وحين حدث حريق القاهرة فى ٢٦ ينـاير وأعلنت الأحكام العرفية فى ٢٧ يناير عام ٥١ واقيل مصطفى النحاس باشا ، وجيء بوزارة على ماهر باشا ، قلنا : ما نخشى منه قد حدث ، انهم يريدون اجهاض الثورة الشعبية التى كانت قد وصلت الى حد المظاهرات الصاخبة التى تطالب بتوزيع السلاح على الشعب ، بل وموافقة الحكومة ممثلة فى الوزير ابراهيم فرج وزير الخارجية فى الحكومة الوفدية الى حد الموافقة على هذا المطلب ، قلنا : هذا ما تنبأنا به ، وكان قرار منع التجول وهبوط قوات الجيش الى الشارع، ومقتل الضابط عبد القادر طه الذى حمل الى وأنـا طبيب استقبـال فى القصر العينى (وكنت قد تخرجت وعملت طبيب استقبال فى ذلك المستشفى الكبير أثناء الأحكام العرفية وقرار حظر التجول ، حمل الى مصابا بخمس رصاصات واعترف لى وهو على وشك ان يلفظ أنفاسه ان الملك والحرس الحديدى (الـذى كان السادات والدكتور يوسف رشاد قطبين من أقطابه) اعترف لى انهم هم الذين جروه الى كمين أطلق عليه فيه كل هذا الرصاص . بالاحكام العرفية ، وحظر التجول ، وبدايـة الاغتيـالات السياسية اذ قبلها كان قد اغتيل الامام المرحوم الشيخ حسن البنا ، بهذا كله اعتقدنا اننا على وشك قيام حركة انقـلاب عسكرى يقيم حكما عسكريا صميما ينهى به الحركة الشعبية القائمة ويمنع من تطويرها الى ثورة شعبية تقوم بانتخابات حرة وتعقد جمعية تأسيسية تقيم على أثرها جمهورية شعبية دستورية .

وبالضبط ، وعقب (ثورة) الفـاتح من سبتمبر عام ١٩٦٩ فى ليبيا ، بادر كثير من المكافحين والمثقفين الى تحليل الأمر وكأن الاميركـان أرادوا اجهـاض الثورة فى ليبيا

بالاطاحة بالحكم الملكى ، واختيار القذافى بالذات ، ذلك النقيب فى الجيش ، الغض العود والخبرة ، قائدا لتلك الحركة ..

وكان الكثيرون كلما جلا الانكليز عن معسكر ما بسهولة، وكلما سلم الايطاليون ممتلكاتهم وحتى مقابرهم دون مقاومة ، وكلما مضى القذافى من انتصار الى انتصار ، كانوا يقولون : ألم نقل لكم .. انه المروسة التى أوجدها وحركها الاميركان ليمثلوا الأمر وكأنه ثورة ، وكأنه حقيقة قائدها . بل انه عقب زيارة المرحوم جمال عبد الناصر لليبيا ، والاستقبال الحافل الذى قوبل به، وقولته المشهورة للقذافى : انت تذكرنى بشبابى ، وعقب التقارب الحاد الذى حدث بين القذافى والسادات الى درجة أن أصبح اعلان الوحدة بين القطرين مسألة ساعات ، واختلاف أعضاء اللجنة التنفيذية العليا (على صبرى وضياء الدين داود وسامى شرف ومحمد فوزى والآخرون) مع السادات حول هذه الوحدة وكنا منذ اللحظات الأولى التى جاء فيها السادات الى الحكم ننظر الى أعماله وتصرفاته وأى سياسة يتبناها نظرة شك فى سلامتها أولا وفى وطنيتها وصدق اتجاهها من ناحية أخرى . قال الناس وقلنا ، انظروا ، هذا هو السادات الاميركى الاتجاه ، يتحد مع القذافى المشكوك فى أمره ، ضد المعسكر الناصرى الحقيقى ..

ولكن الخلاف بين السادات والقذافى ما لبث ان انفجر ، وجاءت حرب ٧٣ ليشكك القذافى فى أمرها ويعتبر انها كارثة وان مصر قد هزمت ..

ثم بدأت حكاية تصفية المعارضة الليبية جسديا فى الداخل والخارج ..

ثم قاد القذافى مع الأسد والعراق جبهة الصمود والتصدى .

وكل تلك الأعمال كانت تؤكد ان القذافى يقف فى المعسكر المعادى للاستعمار بشدة ، فى حين أن دوره الذى يلعبه على المسرح العربى كان يتسم بمحاولات مستمرة لتمزيق الوحدة العربية باسم الثورية والناصرية والقومية العربية .

وهكذا احترت فى أمر القذافى مثل ما احتار الكثيرون فى أمره . وجاء عام ١٩٨٢ بعد أكثر من عام من اغتيال أنور السادات . وكنت فى قبرص فى زيارة استجمام وكنت أيامها اكتب فى مجلة (الموقف العربى) رغم علمى باتجاهاتها الليبية ، ذلك انى كنت ولا أزال أؤمن ، ان الثقافة والكتابة العربية لا شأن لها بالعلاقات السياسية بين الدول العربية ، وان الموقف الرسمى من دولة كمصر تجاه احدى الدول العربية سواء بالسلب أو بالايجاب لا يمكن أن يلزمنى ككاتب بأن أتخذ نفس الموقف . فالكاتب هنا ، اذا لم يكن فوق تلك الخلافات ، فقد يلعب دورا يخفف من تلك الخلافات ، ان لم يكن هو الطريق شبة الأوحد لتصفيتها .

وذات مرة وأنا اتناقش مع رئيس تحرير مجلة الموقف العربى ، سألته لماذا يقف العقيد القذافى هذا الموقف المعادى للنظام المصرى عداء شديدا ، فى حين ان النظام الذى أعقب اغتيال السادات لم يرتكب فى حق العقيد ، أو أية دولة عربية أخرى ، ما يبرر هذه الحملة الشرسة على النظام المصرى .

انى أريد أن أعرف الاجابات على تساؤلاتى تلك .

فقال لى : ولماذا لا تسأل الأخ العقيد نفسه ، فهو لا شك خير من يجيبك ، فهل انت على استعداد للقائه ٠

وانبثق فى رأسى خاطر جرىء ، لماذا لا أقابل العقيد ، وأدير معه حوارا أنشره فى مجلة (المصور) المصرية ، أو حتى فى جريدة الأهرام ان أمكن ٠ فقلت له : انى على استعداد تام ٠

قال : وهل سيسمحون لك فى القاهرة بالذهاب الى ليبيا ٠

قلت : ان الكاتب ليس له أى ولى أمر ، وبالذات تجاه الدول ذات العلاقات السيئة بالنظام المصرى ٠ فهنا دور الكاتب مسألة مطلوبة ، اذ باستطاعته من خلال حوار صحفى ينشره على الناس ، ان يقرب الفجوة ، أو على الأقل يظهر أوجه الخلاف التى يستند اليها هذا النظام أو ذاك فى عداوته للنظام المصرى ٠

قال : وهو كذلك ٠

وفى اليوم التالى كانت تنتظرنى برقية من وزير الاعلام الليبى تدعونى لزيارة ليبيا ، وتذكرة سفر من لارنكا الى طرابلس ٠

وكنت والطائرة تحلق فوق مطار طرابلس ، وأنا أتساءل عن كنه ما سوف أشاهده وأعرفه عن هذا البلد العربى الشقيق الذى لم تطؤه أقدامى أبدا ، ولا رأيته ، سواء فى عصر عبد الناصر أو السادات ، سواء أيام الملكية أو الجمهورية كنت كرائد الفضاء الذى يمتلىء رأسه بتساؤلات لا حصر لها عن أرض القمر وهو فى طريقه للهبوط اليها ٠

هل أنا فى طريقى لمقابلة آمين عام القومية العربية كما تقول عنه اذاعة الوطن العربى التحريضية التى لا تحرض الا ضد مصر فقط وكأن الانظمة فى جميع البلدان العربية أنظمة مثلى ومصر وحدها هى العدو المبين ؟

هل أنا فى طريقى لمقابلة قائد الثورة القومية وأنبغ تلميذ فى مدرسة عبد الناصر الثورية القومية ؟ أم أنا فى طريقى لمقابلة « ثعلب الصحراء » الذى دوخ الاستعمار وأميركا ، وثعلب الصحراء لقب أطلقته عليه صحيفة بريطانية !

أم أنا فى طريقى لمقابلة أكذوبة تضخمت حتى أصبحت كالحقيقة ؟

★★★

كان العقيد فى جولة استغرقت أربعة أيام حتى ضقت بالانتظار وصممت على السفر فى اليوم التالى مهما كانت النتائج .

ولكن فى نفس هذه الليلة كلمنى الأخ محمد الزوى وزير العدل ورئيس اتحاد الكتاب الليبى السابق ورجل من خيرة رجالات السياسة والثقافة فى البلاد العربية ، وقال : سنقابل العقيد الليلة فى الحادية عشرة مساء .

وحين أقرأ هذه الأيام فى الاخبار أن الغارات والقنابل الاميركية ركزت قصفها على ثكنات العزيزية المقر الرئيسى للعقيد القذافى أعود أتذكر تلك الثكنة حين عبرنا بوابة عسكرية ضخمة تحرسها دبابتان ، وسرنا حتى وصلنا مبنى هو مبنى مجلس قيادة الثورة ، وصعدنا سلالم ، وهبطنا سلالم قادتنا الى الحديقة الخلفية للثكنات ، حديقة كبيرة جدا ، واسعة ، مكسوة بحشائش خضراء .

والتقينا الدكتور مفتاح ، وهو أصلا زميل طبيب ، درس الطب فى كلية طب عين شمس كما ذكر لى ، حيانا ، وذكر لنا أن العقيد ينتظرنا فى « الخيمة » •

كنا فى شهر يناير « كانون الثانى » ، وكان الوقت يقترب من منتصف الليل • وكانت الدنيا بردا ، شديدا لا بد أن درجة حرارته كانت صفرا ، أو ما دون ذلك وسرنا ، فى الظلام الدامس ، الصمت التام يلفنا وأنا لا أتبادل كلمة واحدة مع الأخ الزوى حتى أننا من فرط السكون كنا نسمع وقع خطواتنا على حشائش الحديقة •

وهناك بعد مسيرة لا تقل عن الكيلو متر ، وجدنا خيمة متوسطة الحجم مستطيلة الشكل ، يطل منها نور غير ساطع •

ودخلنا الخيمة ، وفوجئت بالعقيد القذافى يهب واقفا وقد كان جالسا وامامه مكتب منخفض الارتفاع ، بالكاد يصل الى ركبتيه ، وكان يرتدى بزة عسكرية ليست مما يرتديه الضباط ولكنها من نوع خاص وكأنها فصلت من أجله تفصيلا • كان طويلا ، أنيقا ، أكثر وسامة من صوره بكثير •

وبدأ اللقاء مصافحة باليد وانتهى بعناق أخوى • وجلست على « كنبة » قريبا من مكتب العقيد بينما جلس الأخ الزوى على مقعد ، وقريبا منى كانت « شالية » نار ، من نفس النوع الذى نستعمله فى ريفنا وصحارينا للتدفئة ، وكانت الخيمة تبدو من شدة البرد واسعة جدا ، ومتواضعة جدا ، وباردة جدا أيضا ، لم تكن نار « الشالية » تخفف من جوها البارد كثيرا •

وعن قرب أخذت أتأمل ذلك الشاب الذى يقيم الدنيا ويقعدها وهو جالس الى هذا الكرسى المنخفض ، وأمامه جهاز

تلفزيون متوسط الحجم، يشاهده ، رغم أن برامج التليفزيون الليبى ، وقد كان لى أربعة أيام ولا عمل لى الا مشاهدتها ، برامج لا تسر الخاطر أبدا الجد فيهـا جاد أكثر ممـا يجب أما الضحك أو الفكاهة فلا وجود لها بالمرة .

وبعد التحية والسلام وجدت أسنانى تصطك ، ولا أستطيع مواصلة الحديث فسألنى العقيد : مالك ؟

قلت : الدنيا برد جدا يا سيادة العقيد .

فأمر فى الحال باحضار « شالية أخرى » توضع بجوارى من الناحية الأخرى ورغم مجىء الشـالية بسرعة البرق ، ورغم ان نارها كانت لا تزال متوهجة حية ، الا انها لم تستطع أن تبدد جزءا ولو ضئيلا من البرد الذى يصل حتى النخاع .

قلت له : لماذا يا سيادة العقيد تختار هذه الخيمة ، فى هذا البرد ، ومع تلك الشـوالى التى عفى عليهـا الزمن ، وباستطاعتك اقامة أجهزة تدفئة ، تغنيك وتغنى زوارك عن اصطكاك الاسنان هذا .

والحقيقة ان اجابته ، لم تكن فقط اجابة ، ولكنها كانت أيضا احد المفاتيح التى لا بد ان يستعين بها المرء على فتح مصاريع هذا الزعيم اللغز الذى أعيت أميركا وأعيا الغرب حيله فى فتحه .

قال : أليس لكل رئيس قاعة أو لكل ملك ايوان يقابل فيه ضيوفه ، هذا هو ايوانى وديوانى أحب أن أذكر به نفسى وأذكر به ضيفى انى بدوى عربى ليبى لا زلت ، ولن أتغير ، فما أسهل أن أقيم « صالة عرش » فاخرة لو أردت ، ولكن لو تعودت استعمالها لافقدتنى الاحسـاس بمواطنتى وقريتى وأهلى وناسى .

قلت : أتقابل كل ضيوفك وزوارك هنا ٠

قال : نعم ٠ وقبلك كان يجلس تيودوراكس « الموسيقى اليونانى المشهور الذى ألف موسيقا زوربا » وقبله أيضا كان يجلس رجاء جارودى ٠

ووصلتنى الفكرة ، هذا رئيس دولة يريد ان يقول ، دون أن يقول ، انه مثقف أيضا ، وربما فنان من أعماقه ، يحب الكتاب والفنانين ولكن على طريقته هو ، وبشروطه ٠

قلت : ولكن جارودى وتيودور أكيس ، من بلاد أوروبا الباردة ، فليس هذا الطقس غريبا عليهم وليسوا غرباء عليه ، ولكنى من مصر حيث الدفء فى الشتاء جزء لا يتجزأ من المزاج والوجود المصرى ٠

وضحك العقيد ، وضحكنا ، واستطرد :

أنا أحب مصر جدا ٠٠ أحبها أكثر منكم ، وجزء كبير من حبى لعبد الناصر انه مصرى ، ولو كان مواطنا من دولة عربية أخرى لما أحببته مثل هذا الحب ٠٠ ان لك أربعة أيام هنا واعتقد انك قد لمست ان كل ليبى ينظر لبلادكم على انها بلاده وتوأم قومه ٠ وهم لا يقولونها ، ولا أقولها أنا مجاملة فى مصر سوى امتداد ليبى وما ليبيا سوى امتداد مصرى ، وما كلانا سوى جسد واحد قطعه الاستعمار ليأخذ الانجليز بعضه وتخضع ايطاليا بعضه الآخر ، وحين ثرنا على الطليان كانت مصر هى مصرنا الأول « وقد حاصرنا جرازيانى الحاكم الايطالى » مصدرنا الأول للسلاح والقوت ٠ والعلاقات بيننا كانت على مدى التاريخ ممتدة ، خاصة مع محافظة الفيوم ، ومطروح بالطبع ، وكانت القبائل رائحة غادية سيلها لا ينقطع ٠ وفجأة ترك العقيد هذه الدردشة الودودة ليلقى على سؤالا كالقنبلة ٠

لماذا يخسرنا .. ولماذا نخسره ؟

وقع على سؤال العقيد القذافى كالصاعقة ، أو بالأصح كالصاعقة غير المباشرة ، ذلك انه ، كعادة أسئلته ، لم يكن سؤالا مباشرا ، انما كان سؤالا عاديا جدا ، ولكنك تستشف من ورائه سؤالا أخطر مطلوبا ان تجيب عليه .

لا أذكر الكلمات بالضبط ، ولكنى فهمت انه يسألنى ان كان الرئيس حسنى مبارك قد أوفدنى لمقابلته .

والحقيقة انى استغربت تماما للسؤال ، فلم يـدر فى خلدى أبدا أن يرى العقيد القذافى المسألة من هذه الزاوية ، كنت مدركا تماما انه يعلم انى كاتب تقدمى النزعة ، وانى طلبت زيارته ككاتب ، وحتى دون استئذان أى سلطة فى مصر كما سبق وذكرت ، بل أكثر من هذا كنت متوقعا أن تحدث لى مشاكل مع السلطة بسبب هذه الزيارة فقد كانت الأوضاع بين مصر وليبيا متردية الى أقصى حد ، وكانت زيارة ليبيـا تكاد تعادل زيارة اسرائيل أيام حرب الاستنزاف مثلا ، فكيف يتصور العقيد أن الرئيس مبارك اختارنى أنا بالذات ليرسلنى فى تلك المهمة . رغم دهشتى ، بل وانزعاجى للسؤال ، رحت

أفكر بسرعة البرق عما أوقع فى روع العقيد أن يكون الأمر هكذا • أيكون السبب انى عقب انتخاب الرئيس مبارك ، انتخابا حراصادقا يوم ١٣ أكتوبر ١٩٨١ بادرت بطلب لقاء مبارك وكتبت عن هذا اللقاء ست مقالا نشرت متعاقبة فى جريدة الشرق الأوسط • ذلك أنى ـ كفلاح أصلا ـ لا يمكن أن أصدر حكما على شخص الا اذا رأيته رأى العين وجالسته واستعملت فراستى القروية بانطباعين هامين : الأول انه ضابط أصيل من ضباط الجيش المصرى ، والجيش المصرى كان ولا يزال المدرسة الوطنية الكبرى التى تخرج منها عرابى ومحمد نجيب وجمال عبد الناصر وعبد المنعم رياض وغيرهم كثيرون من أشرف وأنقى قيادات الحركة الوطنية •

أما الانطباع الثانى فانه ضابط وطنى (حارب) اسرائيل فعلا ، اذ كان قائدا لسلاح الطيران قبيل الحرب ، وكان هو الذى قاد الهجوم الجوى الأول تمهيدا لعبور الجيش المصرى قناة السويس والانتصار فى ذلك العبور انتصارا ساحقا نتيجة لتحطيم سلاح الطيران المصرى كل مراكز قيادات العدو فى سيناء ، وراداراته ، ونقط رصده ، ومطاراته مما شل تماما أى هجوم مضاد تقوم به القوات الاسرائيلية •

وما دام ضابطا وطنيا وما دام ضابطا قد حارب الاسرائيليين فعلا وليس من شرفة قصر أو خلف ميكروفون فقد بشرت العالم العربى والمصرى بالاطمئنان اليه ، وقال الناس عنى أيامها أنى أمالىء الرئيس لأكون (هيكل) مبارك، فى حين أن هذا شرف لا أطمح فيه مطلقا ولا يمكن أن أرنو اليه ، فمنذ أوائل الثورة وأنا معها وفى قلبها وأخوض كل معاركها ، وأنا لم أقترب مطلقا من السلطة الناصرية عملا بالمثل القائل : السلطان هو البعيد عن السلطان ولكن لأن

تلك كانت قد أصبحت عادة من عـــادات بعض الصـــحفيين والكتاب أن يتقربوا الى الرؤساء ورؤساء الوزارات ، فقــد فسروا المقالات على هذا النحو الأبله ، فى حين كان سببهـــا الرئيسى كما قلت هو أن أطمئن نفسى وأطمئن الناس معى عن هذا الرئيس الجديد الذى سيحـــكمنا لمدة ست سنوات قادمة والذى بالكاد كنا نعرف عنه شيئا ...

أو ربما يكون هذا هو انطباع العقيد القذافى اثر زيارته لمصر أيام عبد الناصر وبعد نجاح الثورة ودعــوة هيكل له لزيارة مبنى جريدة الأهرام ومقابلة كبار كتابه ومثقفيه .. يومها ... بعد أن حدثنا طويلا عن مشاريعه للنهوض بليبيا (لم يكن الكتاب الأخضر قد كتب بعد ولا ظهرت الى الوجود نظريته الثالثة للحكم) سألته :

ــ يا سيادة العقيد .. لقد خطبت فى الخرطوم وقلت : لقد سقط اليمين وسقط اليسار ... فما هى القوى الباقية فى الحركة الوطنية لتقــاوم اسرائيل والاستعمار الاميركى الزاحف .

يومها تولى هيكل شرح الظروف التى قال فيهـــا الرئيس القذافى هذا الكلام ، فعندما عقد مؤتمره الشعبى فى الخرطوم رفع الحزب الشيوعى السودانى شعارات ضده ، ومـــا دام هو كان يعتبر نفسه الامين على قارة القوميـــة العربيـــة من بعد عبد الناصر كما قالها له عبد الناصر نفسه،فقد ذكر هـــذا السقوط لليمين ولليسار معتبرا أن القوة الوحيدة الباقية لصد الاستعمار ومسح هزيمة ٦٧ هى القوى القومية (أى الطبقة المتوسطة الثورية) كـــان ذلك قبل وفاة عبد الناصر بقليل ، ومن يومها لم ألتق بالعقيد أيكون سؤاله مبعثـــه هذا الموقف منى ذلك الذى أدركت أنه لا يزال يذكره ؟ .

وبكل بساطة وصراحة شرحت للعقيد القذافى الموقف ، وقلت له أنى أتيت بأرادتى المطلقة ، وأنى لم أكلف فى حياتى بمهمة من قبل الحكومة المصرية وبالذات تلك المهام الدبلوماسية التى لا أصلح لها • أنا مستعد اذا طلبت منى الدولة أن أقابل وأضحى بحياتى فى سبيل القضية والشعب أن أفعل ، أما غير هذا ، فأنا كاتب لا علاقة له بالدولة ، أمتدحها أحيانا ، أنقدها أحيانا ، أو أدخل معها فى معارك أحيانا ••• وكل هذا من بعيد جدا ••• من موقعى ككاتب •

وأنا أذكر له هذا كنت أحدق فى ملامحه وقد حشدت ذكائى كله لاعرف أن كان قد اقتنع بكلامى أم لم يقتنع • ولكن لم ألمح فى وجهه هذا التعبير أو ذاك ، وتلك خصلة مشتركة بينه وبين المرحوم عبد الناصر ، فقد كان من الصعب عليك تماما أن تقرأ ما يدور فى عقل عبد الناصر مهما أوتيت من فراسة أو قدرة على قراءة الأفكار والوجوه •

وسكت العقيد ، وكنت أعتبره سكوت الذى اقتنع ، ولكنه كان بين كل حين وحين يعود وبطريقة مختلفة الى نفس السؤال ، دليل انه لا يزال يشك انى « موفد » اليه •

وأعود أذكر له أن شيئا مما يتصوره لم يحدث ، وانى قد ألقى اللوم الشديد وربما العقبات لانى جئت الى ليبيا • ولكن يبدو انه فهم من طلبى للقائه انى لم آت لادير معه حديثا صحفيا حول العلاقات بين مصر وليبيا وانما جئت فى مهمة •••

وأخيرا بدا عليه شبه اقتناع •

ودخلنا فى الموضوع • وسألته : ما الذى يغضبك يا سيادة العقيد من النظام المصرى ولماذا تسلط عليه اذاعة صوت

الأمة العربية ليل نهار ، وتتهمه بالعمـــالة لاميركا واسرائيل ٠٠٠و ٠٠٠ و ٠٠٠ الى آخر ما كانت تردده تلك الاذاعة بعد منتصف الليل ٠

قال : نحن لسنا ضد مصر كمصر ولكننا ضد مصر المرتبطة بمعاهدة كامب ديفيد التى نزعت السلاح عن سيناء وقيـــدت مصر بقيود من حديد الى أميركا ، وأحدثت أسفينا بين العرب واسرائيل ، وعزلت مصر ٠٠ نصف الأمة العربية عن بقية الشعب العربى وعن القضية كلها ، لهذا نحن نهاجم هذا كله ٠

قلت : وما هى الطريقة لاعادة العلاقات الودية بين مصر وليبيا وايقاف هذا الهجوم ٠

قال : ان تلغى مصر معاهدة كامب ديفيد ٠

قلت : هكذا ٠

قال : هكذا ٠

قلت : انى معك يا سيادة العقيد ان معاهدة كامب ديفيد كانت خيانة تامة لبطولة الجيش المصرى فى حرب أكتوبر ، وقد هاجمتها ولا زلت أهاجمها ربما أكثر بكثير مما تهاجمها به اذاعة صوت الأمة العربية الليبية ، ولكن مصر بوضعهـــا الحالى الذى جرنا اليه السادات تعتمــــد فى تسليحهـــا على أميركا ، وتعتمد فى خبزها على أميركا ، وتعتمد فى نقدها على المعونات الاميركية ٠

هذا شىء ٠

أما الشىء الأهم فاعتقد أن ليس على قلب اسرائيل أحلى من أن تلغى مصر المعاهدة وتعود القوات الاسرائيلية الهائلة المرابطة على الحدود المصرية لتحتل سيناء فى ظرف ساعات ،

لانه لا يوجد سوى عدد قليل جدا من القوات المسلحة شرقى القناة مباشرة وعدد محدود من المدرعات ، أما بقيــة سيناء فلا يحتلها الا قوات الأمن المركزى المتنـــاثرة فى باحـــاتها الواسعة والمسلحة بالأسلحة الخفيفة • فلو حدث وألغت مصر المعاهدة وهجم الاسرائيليون على سيناء وأخذوها فماذا نعمل نحن فى هذا الوضع المشلول •

قال : تحاربوها ولو بالعصى والحجارة •

قلت : يا سيادة العقيد أنحن فى عصر تحارب فيه الجيوش والدول بالعصى والحجارة •

قال : فيتنام ؟!

قلت : فيتنام كان يقودها حزب جند الشعب بأسره حتى أصبح الشعب كله جيشا ، فهل هـــذا هو نفس الوضع فى مصر ؟

قال : اذا اطلقت حكومتكم السراح للقـوات المسلحـــة لاستعادت سيناء كاملة السلاح ولهزمت اسرائيل •

قلت : أتعتقدون يا سيادة العقيد ان مصر باستطاعتهـا أن تلغى معاهدة كامب ديفيد الآن وتحارب اسرائيل بعدهـا مباشرة • لو كان هذا ممكنا لما احتاج المصريون العـودة الى العرب ، ولما احتاجوا حتى معونـــات الدول العربيـــة أو الاميركية • كيف تستطيع مصر أن تهزم اسرائيل وأميركـا تحرص تمام الحرص ــ وهى التى تزود الدولتين بالسلاح ــ على أن تجعل للسلاح الاسرائيلى اليد العليا فوق كل القـوات المسلحة العربية مجتمعة •

قال : على الأقل تعلنون انكم فى طريقكم لالغاء كامب ديفيد ٠

قلت : ان هذا الاعلان نفسه يعادل تماما الغاء المعاهدة فلن تنتظر اسرائيل ان (نسير) فى الطريق الى الغاء كامب ديفيد وهى جالسة واضعة ساقا فوق ساق ، على الفور ستتهمنا باننا نقضنا المعاهدة وتهاجم وتأخذ سيناء ٠

قال : اذن ماذا تفعلون ٠

قلت : تساعدنا أنت وتساعدنا بقية الحكومات العربية بالمعونات والدعم لكى نقوى ونصل فيهـا الى الدرجـة التى نستطيع فيها مواجهة اسرائيل مواجهة حرب ٠

قال : وماذا يضمن انكم بهذه المساعـدات تستعدون للحرب أو لالغاء كامب ديفيد ٠

قلت : لان الحكم فى مصر حكم وطنى كما تعرف ٠

قال : أعرف وأعرف أن الرئيس مبارك ورث تركة مثقلة بما خلفه السادات من قيود ٠

قلت : أما وأنت تعرف هذا تزيد هذه التركة ثقلا على ثقل باتهام هذا النظام الوطنى بالخيانة والعمالة ؟؟

★★★

وكنت خلال هذا الحوار كله ، وخلال الجمل المخزونة منه اذ أنا أكتب الآن من الذاكرة أحاول أنا الآخر ان أعرف كنه هذا الرجل ٠ أهو يؤمن حقا من خلال قيادته لليبيا وتسليح الليبيين وتدريب الشعب كله على حمل السـلاح أن يوحـد العرب ويلحق الهزيمة بالاستعمار الاميركى ويحـرر دولا

مغلولة فى أفريقيا ، بل ويبعث الثورة العالمية فى كل مكان من ايرلندا الشمالية الى نيكاراجوا •••

أتفرس فى ملامحه فأجده جادا كل الجد ، يتحدث وكأنه يرى الحلم متحققا أمامه ، أو انه قاب قوسين أو أدنى من تحقيقه •

أهو حالم ثورى ؟

ولكن الحالمين الثوريين (مثل الليندى فى شيلى) لا يمكثون طويلا فى الحكم اذ تستطيع الرجعية والسى أى ايه أن تتآمر عليهم وتقوم بانقلابات عسكرية تطيح بهم وفى النهاية تقتلهم • أما هذا الرجل فمنذ أن قامت الثورة الليبية فى عام ١٩٦٩ وهو قابض على الوضع فى ليبيا ، بيد من حديد ، لم ينجح ضده أى انقلاب ، ولا استطاع المعارضون له أن يجدو لهم قاعدة أو نصيرا فى ليبيا •

أم يكون الاستعمار الاميركى سعيدا بالدور الذى يلعبه على الساحة العربية كل السعادة ، دور الرافض لكل شىء الثائر على كل شىء ، المحول بلاده الى ترسانة سلاح سوفياتى لكى تحول أميركا اسرائيل الى ترسانة سلاح أميركى لديها الكادر القادر على استعماله وادارة حرب تكنولوجية بكل براعة فمعظم جيشها من الاميركان المزدوجى الجنسية أو دربوا على أحدث الاسلحة فى أميركا ؟

ذلك سؤال آخر ، كان بين الحين والحين يخطر لى •

★★★

الى أن بدأت قصة خليج سرت ، وبدأ الصدام بين الاسطول والطيران الاميركى وبين البحرية الليبية وقواعد الصواريخ • وكنت فى أميركا حين أسقطت أميركا طائرتين كبيرتين من

طراز ميج ٢١ ورأيت ريغان وهو يزف النبـــأ الى الشعب الاميركى فى فرحة من خاض حربا ضد روسيا وأميركا معا وانتصر عليهما من أول اشتباك • لا يمكن ان تصل المناورة الى حد أن تشتبك أميركا الدولة العظمى مـع ليبيـا ذات المليونين من البشر لتعلى أميركا أسهم العقيد القذافى وتتوجه مناضلا ومقاتلا وقائدا جديرا بأن يقود الأمة العربية كلهـا ضد أميركا واسرائيل •

لا يمكن أن يحدث هذا •

ثم كيف لا توجد معاهدة دفاع مشترك بين ليبيا وموردة سلاحها الأولى الاتحاد السوفياتى ، وكيف يقف هذا العملاق يتفرج على حليفه الأول فى العالم العربى وأميركا بجلالـة قدرها تهاجمه وتسقط طائراته وتغرق زوارقه •

أهو اتفاق بين القوتين العظميين •

أم هى حرب صليبية جديدة يشنها الغرب بشقيه ضـد العرب والمسلمين ؟

أسئلة تحير الألباب والعقول •

فاما أن الذين يحكمون واشنطن سـذج أو مجـانين ، ليغامروا بسمعة أميركا الدولية بمهاجمة دولة ، ربمـا من أصغر دول العالم عددا ، فى وجه اعتراضات العالم كله وعلى رأسه الدول الأوربية حليفة أميركا ، ما عدا العميلة الاميركية مسز تاتشر •

ولماذا لم تعهد أميركا بصبيتها المرتزقة اسرائيل لتقوم بما قامت به هى الفاجرة العظمى حتى لا يشتد حنق العـالم وهو يرى دولة عملاقة كأميركا تهاجم شعبا صغيرا كالشعب الليبى •

ثم ما هو سر عدم تدخل الاتحاد السوفياتى ، وله أسطول ضخم فى البحر الأبيض حتى بالتلويح بالتهديد أو الحيلولة بين الاسطول السادس والشواطىء الليبية ؟

ولماذا استنجد القذافى بالعرب ، وهو الذى يزود ايران التى تحاول تقويض الجبهة العربية الشرقية كلها ؟

وهل تم لاميركا اجتثاث الارهاب كما زعمت وهى تستعد علنا للهجوم على ليبيا ثم وهى تواجهها وتحاربها فعلا ؟

أسئلة محيرة تماما ومتناقضة تماما ، وقد تكون كلها حقيقية ، وقد تكون كلها محض اقتراحات ٠

★★★

ولكنى لا أكتب هذا لاتساءل أو افترض ، أنا أكتب هذا لاحذر العقيد ان سياسته ضد الدول العربية (المعتدلة) وضد المقاومة الفلسطينية وحتى سياسته ضد دول شمال أفريقيا ، هذه السياسة التى تعزله تماما عن جيرانه وعلى رأسهم مصر وتونس ، سياسة أصبحت تشكل خطرا جسيما على نظام حكمه بل وعلى شخصه ٠

والأدهى من هذا أنه لا يوجد سبب قوى قاهر بينه وبين مصر أو تونس أو غيرها يدعوه لهذه الكراهية البغيضة لها ٠

ولا خلاف على حدود ٠

لا خلاف على أرض أو نقود ٠

ربما هناك اختلافات سياسية ، وتوجيهية ولكن من قال ان خلافات مثل تلك جديرة بأن تصعد الى درجة تكاد تقترب من الاشتباك المسلح ٠ انى من أعماق قلبى وبكل ما أملك من

قدرة على الصرامة وقول الحق ، أدعو العقيد وقد أهـدرت أميركا دمه على هذا النحو أن يبادر فورا بعلاقات أوثق وأطيب وأشد مع مصر ومع تونس ومع العراق والاردن ومع المقاومة الفلسطينية ٠

فالمسألة بعد محاولة اغتياله هو بالذات لم تعد هزلا ٠

وحاجته الى جيرانه العرب أكثر بكثير من حاجتهم اليه ٠

فبسياسته تلك سيخسر على طول الخط ٠

وستكون خسارة الأمة العربية فيه كبيرة أيضا ٠

فلماذا يخسرنا ؟

ولماذا نخسره ٠

لماذا لا نضع أيدينا فى يديه ، حتى لو كنا ، الآن عـلى الأقل ، ضعافا ، ولكن مثلنا الشعبى المصرى يقول : النواية تسند الزير ٠

هذه رسالة من كاتب مصرى عربى لا يريد لك ولا للشعب الليبى الا العزة والمنعة والقوة ٠ ارجو ــ جيدا ــ أن تقرأها فقد كتبتها بكل ما أملك من اخلاص ٠٠٠



العرب على شفا هاوية

اجل .. هل وجود دول عربية بترولية غنية ودول غير بترولية فقيرة هو السبب في هذا التشرذم العربى ؟

لا أعتقد أبدا أن البترول مسؤول من قريب أو بعيد عما حدث للأمة العربية من خلافات واختلافات ، فحتى لو كان العرب جميعا فقراء لاختلفوا أيضا ، وخلافات الفقراء أكثر وعورة من خلافات الأغنياء ، أيضا حتى لو كان العرب كلهم أغنياء لاختلفوا أيضا ، ذلك ان الغنى العربى أو الفقر العربى ، مجرد مظهر ، أو بالأصح يتضح من مظهر العربة التى يركبها الغنى أو القصر الذى يمتلكه أو ملابس البدوى أو العامل الزراعى ، اذن التركيبة الاجتماعية الداخلية هى سبب الاختلاف ، وضع أى شىء فوق هذه التركيبة أو انزع عنها حتى كل ملابسها فسيظل الخلاف قائما وموجودا .

ولقد سمينا الخلاف بالتحزب القبلى فى كافة أرجاء الوطن . والآن جاء الوقت الذى لا بد أن نقف فيه لنتساءل عن ماهية هذا التحزب الذى يعتبر سمة أساسية من سمات التركيبة النفسية العربية . ان هناك عوامل جغرافية

وبشرية ، وبشرية جغرافية وتاريخية وراء هذه التركيبة التي تحجرت على مر الزمان وأصبحت كالأسمنت المسلح من الصعب جدا تفتيتها وطحنها واحالتها الى عجينة منسجمة واحدة • ان العالم العربي مساحته شاسعة جدا ، السودان وحده مساحته قدر مساحة أوروبا وأكثر ، ليبيا أكبر من فرنسا والجزائر مرتين ، المملكة العربية شبه قارة تكاد تقترب من حجم الهند ، والعرب موزعون على هذه المساحة الهائلة الشاسعة • وبما ان من العوامل الهامة في اذابة العائلية والقبلية الكثافة البشرية المعقولة ، فان الكثافة البشرية المخففة جدا حتما تؤدى الى تكتل الجماعات البشرية المتناثرة على هذه المساحة الشاسعة في أوطان « بشرية » أي قبائل ، فالقبلية هنا تعادل الوطن تماما في أوروبا • أفليست لوكسومبورج أو موناكو أو فنلندا أو ليتوانيا الا قبيلة سكانية يسميها الأوروبيون « دولة » وسميناها نحن قبيلة بني كذا أو بني كيت •

نشأت اذن تلك القبائل متناثرة ، ولم يكن ارتباطها بالأرض « الوطن الأرض » قويا ، فقد كانت الصحراء كلها ملك القبيلة تجوبها من تونس الى الحجاز الى نجد أو العكس بحثا عن الكلأ أو الماء أو كليهما • ولكي تجوب قبيلة أو قبائل في تلك المساحة الشاسعة لا بد من انتماء قوي جدا يربط بين أبناء القبيلة الواحدة ، ولا بد في نفس الوقت ان تنشأ نزاعات قوية جدا بين تلك القبائل وبعضها البعض حول المراعي القليلة التي تجود بها الصحراء • وحول المياه الأقل ، وحول طرق القبائل والتجارة فالمسألة ليست عداوة ، من أجل العداوة انما المسألة مسألة حياة أو موت القبيلة ، وفي هذا لتقم الحروب ولتشتعل المعارك ، وينشأ الثأر . الثأر وهكذا • وحين بدأت الغزوات تجتاح العالم العربي ،

كرست تلك الغزوات هذا الوضع ، بل وشجعته وأبقت عليه ، فهو وحده ربما كان الضمان الوحيد للاستعمار التركى مثلا أو المغولى أو فى العصر الحديث فرنسا وبريطانيا وايطاليا • انه وضع مناسب تماما للاستعمار بكافة أجنحته وأسمائه • بلاد أخذتها فرنسا وبلاد أخذتها انجلترا ، وايطاليا أخذت ليبيا والصومال • وحتى حين ذهب الاستعمار وأصبحت العلاقات بين الدول العربية والقوتين العظميين اللتين حلتا محل الاستعمار القديم « علاقات خاصة جدا » صنعت مصر عبد الناصر وسوريا واليمن الجنوبية وليبيا هذه العلاقات مع الاتحاد السوفييتى وبعض البلاد العربية الأخرى مع الولايات المتحدة ، وحين ذهب عبد الناصر انضمت مصر الى المعسكر الاميركى وجاء السادات ليضعنا أيضا فى حضن اسرائيل ليفصل حتى بيننا وبين الدول العربية الصديقة للولايات المتحدة فقط •

ولكننا لا نزال نتحدث عن البترول •

فهل كان البترول نعمة ؟

أم كان نقمة •

كان نعمة ما فى ذلك شك ، ونعمة على الجزيرة العربية بشكل خاص ، فحين كانت تلك الجزيرة لا تملك شيئا من ثروات الأرض أنزل الله سبحانه عليها الدين الاسلامى الحنيف ليجعل منها خير آمة آخرجت للناس ، وفى العصر الحديث فجر لها الثروة من باطن الأرض • وكما جاء الاسلام هاديا لأخلاق الجاهلية وتقاليدها ، أى جاء فى آوانه • جاء البترول فى أوانه آيضا ، مع فجر الاستقلال العربى ، والتعرف على الذات العربية الكبرى وعلى الأمة كوحدة واحدة متحدة •

وكان حريا بالدول العربية البترولية ان تدرك هذا الكنز العربى الذى اكتشف ، وتدرك أيضا ان أوضاعها المنفصلة الممزقة لن تصلح فى التعامل مع مستخرج البترول وشاريه الأول ــ المعسكر الغربى ــ وكان مفروضا ان يتجمع العرب فيما سمى بعد هذا بالاوبك وبالتنسيق مع الاوبك • ولكن هذا التجمع تأخر كثيرا جدا ، حتى ان عائداته هى الأخرى عادت مرة ثانية من حيث جاءت وأصبحت ودائع فى البنوك الاميركية والأوروبية • وهناك ، هناك بعد الرأى ، وبعد حرب ٧٣ بدأ العرب يدركون أهمية كنزهم والتحكم فى سعره • وقد كنت ذات مرة فى الكويت « أظن فى عام ١٩٧٧ » وقلت فى مؤتمر صحفى ان الغرب لا يدفع للعرب « ثمنا » لبرميل البترول ، فمن غير المعقول ان يكون ثمن برميل البترول دولارين ثم يصبح ٣٤ دولارا ، ولكن بالأساس يدفع ثمنا « لقوة » العرب ، ولا بد ان قوة العرب أثناء حرب رمضان قد تضاعفت سبع عشرة مرة ليدفع الغرب هذا الثمن الجديد •

ولكن أحدالم يصغ لى فى ذلك الحين ، بل ردت على صحيفة كويتية قائلة أن هذا الارتفاع من ثمن البترول يرجع الى « شطارة » الطرف العربى فى مفاوضة الشركات المشترية للبترول ، وقوتهم التفاوضية الحاذقة ، وطبعا لاننا لم نع الدرس ، وعاه اعداؤنا ، وعرفوا ان رقبتهم فى يدنا فعزموا على التخلص من تلك القبضة ، وطلبوا كميات رهيبة جدا من البترول وبسعر ٣٤ دولارا وأكثر وماذا يضيرهم فى هذا ، ان الدولارات على أية حال ستستخدم كودائع فى بنوكهم ويصرفون منها على مشاريعهم وفى نفس الوقت تتيح لهم رفع أسعار كل منتجات البترول مما يزيد من مكاسبهم » • ولا أبالغ اذا قلت ان الدول البترولية قد أصيبت بما يشبه

الحمى فى انتاج وبيع بترولها ، ولقد قرأت فى ذلك الوقت « حوالى عام ٧٥ » مقالا فى صحيفة اقتصادية أوروبية أوردت فيه احصاء لكميات البترول التى يشتريها الغرب من اليابان الى أوروبا الى أميركا ، واحصاء للكميات التى تستهلكهـا سنويا ، ووجدت ان الفارق شاسع بين المستورد والمستهلك • هذا الفارق كان يستعمل كمخزون بترولى ذلك ان دول الغرب كانت تجهز ما سميته مذبحـة صبرا وشـاتيلا البتروليـة للعرب • حتى انهم كانوا يعيدون ملء آبار البترول التى نضبت فى تكساس بالبترول الخـام • وكانت النتيجة ان المشترين أصبحوا ليسوا هم الطرف الأقوى فقط ولكن الطرف المسيطر فقد تكون لديه احتياطى بترولى يكفيه لعدة سـنين حتى لا يتكرر ما حدث من العرب فى حرب ٧٣ • ولانه ، صاحب هذا تماما ، ذلك التشرذم القبائلى العربى وضعفت قوة العرب كأمة وكجماعة، فقد أصبح باستطاعة المشترين أن يهبطوا بالسعر الى عشرة دولارات للبرميل ، ومن يدرى ماذا سوف يكون عليه السعر غدا •

معنى آخر ، البترول كان ممكنا ان يصبح قـوة للعرب منفردين ومجتمعين يتحكمون هم فى الكميات المنتجة منه ، ويحددون هم سعره ، ويستثمرونه فى اثراء البلادالعربية غير البترولية بمشاريع تدر عليهم من الارباح أضعـاف أضعاف ما تـدره عليهم فوائـد الودائـع فى البنـوك الاميركيـة والسويسرية • ولكن هكذا شاءت العقلية التى تتحـكم فى اقتصاديات العرب ، ان تعطى القط مفتاح « الكرار » وتخزن فوائض ايراداتها فى الخزائن الغربية ، تلك الفوائض التى تتحكم فيها عوامل سياسية وباستطاعة أميركا ــ كما حـدث بالنسبة لايران ــ ان توقف صرفها أو التصرف فيها اذا لمحت نظرة عداوة أو بادرة عداوة من الطـرف العربى • بمعنى

آخر انقلب الحال وأصبحت رقبة العرب هى التى فى يـــد أميركا هذه المرة ٠

أسلمنا كنزنا للغريب ٠

وبقينـــا نجتمـــع ونجتمـــع ، ويصرح وزراء البترول ويصرحون ، والمتحكم الوحيد فينا هو عدونا الذكى الخبيث، ونحن أمامه بلا حول ولا قوة ٠

★★★

لا قوة عسكرية لأن الجيوش العربية مجتمعة تسليحها أقل من التسليح الاسرائيلى ولا قوة اقتصادية لان نقودنا فى يد اعدائنا والدولار يحدد مصير دنانيرنـــا وجنيهـــاتنا ودراهمنا ٠ ولا قوة سياسية بالطبع لان العالم العربى تمزق تماما الى دويلات ودول ، بمعنى أصح وأدق وأكثر علمية ٠٠ انهزمنا ٠

★★★

والهزيمة ليست عيبا بالمرة ٠ بالعـــكس ، ان تعريفى الدائم للهزيمة هى انها نصر مؤجـــل ، والانســـان يتعلم من فشله ، أو من هزيمته ، أضـــعاف أضـــعاف ما يتعلمه من نجاحه ٠

وما دمنا قد هزمنا على تلك الصورة وفى كافة الميادين ٠ فماذا نفعل ؟

أولا : لا بد ان نعترف اننا هزمنا ٠ « حين هزم قائد الثورة الوطنية الصينية ذات مرة ابتسم وقال : هذا مجـــرد فشلنا الثالث عشر » فلنبتسم نحن نقول هذا مجرد فشلنـــا الأول أو الثالث بمعنى أدق ٠

فالأول كان فى عام ١٩٤٨

والثانى كان ٦٧

وهذه هى الهزيمة الثالثة

تلك أولا ٠

وثانيا : المنهزم الشاطر هو الذى يجلس كما ذكرت قبلا ــ بهدوء وتأمل عميقين ويدرس أسباب فشله الأول والثانى والثالث ٠

ثالثا : لقد تركنا مهمة التفكير والتدبير طويلا ــ أطول من اللازم ــ لحكامنا العرب ومستشاريهم ٠ وفى رأيى ان الفكر العربى الحاكم الحالى قد نضب معينه ، وان مستشاريهم قد تجمدوا عند أفكار معينة وآراء معينة لم تعد تنفع لاصلاح ما أفسده الدهر وبالأحرى ما أفسدوه هم ٠

ولهذا لا بد من فتح السجون الفكرية ، والقنوات المسدودة ، واشراك « كل » العقول العربية فى البحث عن برنامج للعمل القومى العربى بل والاسلامى ، وبالذات اشراك من عارضوا سياسات الحكام من قبل ، ومن هاجروا وتركوا بلادهم تنعى من بناها ولن يحدث هذا بالطبع الا بخلق ظروف ديمقراطية تسمح للرأى الآخر بالوجود ، وتسمح حتى بالمعارضة والرفض وتسمح بنقاش ما كان وما سوف يكون ٠

رابعا : تغيير شامل لميثاق الجامعة العربية ، ورفع حكاية الاجماع ، ويكفى تماما الأخذ برأى الأغلبية ٠ ليس هذا فقط بل لا بد للجامعة العربية ان تفتح أبوابها للتنظيمات الشعبية النقابية والفكرية وحتى العقائدية ولا تكون مجرد

جامعة للحكومات ويردد ممثلوها كالببغاوات آراء حكوماتهم وأيضا بحيث تكون لقراراتها قوة تنفيذية ٠٠ بل ٠٠٠ و ٠

خامسا : بداية تكوين جيش عربى موحد مختلط ومشترك ، وبداية تسليح عربى موحد مختلط مشترك أيضا ، فبهذا الجيش ، وحده يصبح للجامعة العربية قوة وقدرة تنفيذية تستطيع بواسطتها ان تفرض قراراتها على دولها أو دويلاتها الناشزة عن الاجماع ٠

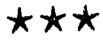
سادسا : ضرورة وحتمية البداية فورا فى انشاء سوق عربية مشتركة ومشاريع عربية مشتركة واصدار الدول قوانين تمنع استثمار رأس المال العربى فى الدول الغنية الأوروبية والاميركية !!

ولست هنا أجعل من نفسى مؤتمرا يخرج بكل التوصيات الممكنة فى هذا المجال ، ان هى الا بعض نماذج لما يمكن عمله أما أصحاب الخبرة وأصحاب التجربة والمؤهلات فلديهم فيما اعتقد الكثير مما يمكن عمله فى هذا المجال ٠

فما دفعنى لان أقول هذا سبب قاهر وملح ، اننا على شفا هاوية السقوط فى الهزيمة الطويلة الأجل ، ولا سبيل الى وجودنا ووجود أولادنا وأحفادنا على هذه الأرض الا بأن ننقذ أنفسنا ٠

ونبدأ انقاذ أنفسنا من اليوم

اليوم واليوم وليس غدا ٠



الهزيمة الثالثة

حسن جدا • فتورنا سببه موقف احتجاج لا واع على كثير • ان لم يكن كل شيء ، مما يجرى حولنا ، موقف احتجاج يدفعنا للاضراب غير المعلن بالطريقة التقليدية من اجتماعات ولافتات وهتافات وخطب ، ولكن ، كما ابتكر العمال الفرنسيون أثناء احتلال ألمانيا الهتلرية لفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية • أبتكروا فكرة العمل ببطء • اذ لم يكونوا فى موقف أو لديهم القدرة على الاضراب العلنى أو الامتناع عن العمل ، اذ كان الجستابو الرهيب وقوات العاصفة ستتولى ضربهم وتحطيمهم وتخريب المجتمع الفرنسى تماما ، وهكذا ابتكروا فكرة أن يعملوا وفى نفس الوقت • وفى الحقيقة لا يعملون ، فالعمل الذى يُمكن الانتهاء منه فى ساعة يأخذون يوما بأكمله لانهائه •

ولكن هذا كان من عمل وابتكار قيادة الشعب الفرنسى المغلوب على أمره قيادة المقاومة الفرنسية ومفكرى وفلاسفة هذه المقاومة • وهى كما نرى قادرة ليست فى غاية الذكاء فقط • بل وفيها تعجيز شبه كامل لعملية انتاج الذخيرة والمعدات العسكرية التى كانت تطلبها وتحتاجها آلة الحرب

الالمانية الهتلرية • ولكن فيها أيضا ـ وهذا هو المهم ـ فكرة الا تطلب من الناس العاديين • عمالا كانوا أم فلاحين أم حرفيين أم متعلمين • الا تطلب منهم شيئا يعجـــزون عن تنفيذه ، أو يؤدى تنفيذهم اياه الى تعريض هـؤلاء النـــاس للخطر وللتهلكة •

ولو كانت قياداتنا العربية ، خاصة تلك القيادات التى تدعى الثورية القصوى والصمود والتصدى وتنادى بالقضاء قضاء مبرما على اسرائيل مهما امتدت واستطالت فترة الحرب والتصدى ، ولو كان هؤلاء الناس قد ذاكروا التـــاريخ • وبالذات تاريخ الشعوب التى قاومت اعداءها ومستعمريها ، لأخذوا مما فعلته قيادة حركة المقاومة الفرنسية السرية ، درسا •

فالناس العاديون ليسوا بالضرورة والسـلفية والوراثة مخلوقات خارقة البطولة أو هكذا يجب أن تكون ، وأيضـــا الابطال لا يصنعون بالقسر والأمر والقوة ، البطولـــة عنـــد الانسان العادى تنشأ بالتدريج الشديد ، وبالتصعيد خطـــوة خطوة ، ونتيجة اصطدامات بالعدو يتبـــدى من خــــلالها ، وبوضوح ظاهر ، ان الملاينة أو الاستكانة أو غض الطرف لم تعد كلها تجدى • والنتيجة ان الانسان العادى ، وبمنطقـــه العادى يصل الى اقتناع جازم انه اذا استمر عـــلى منـــواله المستسلم فانه لا محالة هالك •

فان لم يكن بالضرورة هو شخصيا ، فأولاده واخــوته وأقرباؤه لا محالة هالكون، هنا يصل المواطن الى درجة اليأس من الحل الاستسلامى الكامل ، ويبدأ يقاوم، فيضرب ويحسبها فيجد انه اذا استسلم لضربة رد الفعل فان ضربا مبرحا آخر ينتظره ، ولهذا فان الأسلم له والحل (المعقول) الأصح هو

ان يرد الضربة • فاذا فعل ، رد العدو عليه بضربة أقوى ، ويحسبها مرة أخرى ليجد ان لاسبيل لأى حل آخر ، فشيء من اثنين : اما ان يتراجع تراجعا كاملا فيعامل معاملة الكلاب النجسة التى لا تليق بأى آدمى ، واما ان يستمر يقول لا ، وقد يعذب لقولها وينكل به ، ولكن هذا لن يشكل مشكلة ، فالعذاب والهوان نتيجة الملاينة سيستوى معه العذاب والهوان نتيجة المقاومة • وبالضرورة سيختار المقاومة •

هكذا يصعد الانسان العادى سلم البطولة ، ومن مستوى سطح الأرض والمعيشة خطوة فخطوة يجد نفسه مضطرا لأن يصعد كل حين خطوة والا هانت عليه نفسه وقضى على كيانه المعنوى قضاء يستوى تماما مع الموت الجسدى •

أقول ــ لو كان قادتنا الثوار العظماء المتحمسون لمعركة لا ينال فيهــا أحــدهم أذى • ولا تخدش له اصــبع ، وانما يموت فيها الناس البسطاء العاديون ، ويفرون هم هاربين فى آخر لحظة • أو حتى قبل آخر لحظة • لو كان هؤلاء القواد العظام قد أدركوا حقيقة الطبيعة البشرية ، وطبيعــــة دور القائد أو القيادة من انها تسبق القاعدة بخــطوة واحـــدة لا تزيد ، فلا تطلب من الشعب ابدا ان يقفز قفزة أكبر بكثير من قدراته العضلية أو الاراديــة ، وانمــا القــائد الثورى الحقيقى هو الذى يطلب من قاعدته الشيء أو الخطوة التى يرى ويرى الناس معه انها ممكن ان تتحقق • فاذا تحققت فان الشعب يتعلم أولا انه يستطيع الخطو ــ وذلك فى حد ذاته انجاز عظيم ــ وثانيا يثق فى انه قادر على خطوة تالية مقبلة ، وثالثا وهذا هو الأهم يثق ثقة عضوية ملموسة فى قيادته • ويعرف انها تدرك امكاناته ، ولا تطالبه بما لا طاقة لها به وانما فى النهاية تعمل لمصلحته وليس لمصلحتهــــا أو لتضخيم ذاتها •

ولو كنا كقادة عرب ، أو مصريين بالذات ٠ قد وعينا هذا الدرس لادركنا ان القوات المسلحة وحدها ، ولا فرق بين الصاعقة ولا المخابرات، ولا حتى كل احتياطى جيوشنا كفيل بان يحسم معركتنا مع الاستعمار ومع اسرائيل ، فنحن كنا لا نحارب دولة أو جارة ، وانما نحارب اخطبوطا ضاربا بآلاف سيقانه ومخالبه فى كل أرجاء الأرض ، وان لا يقدر على هذا الاخطبوط الا الشعب كله ، ليس الشعب المصرى وحده ، ولكن الشعب العربى وشعوب العالم الثالث كلها ٠ ولكنا قد فعلنا كما فعلت المقاومة الفرنسية ، وبدأنا نعلم شعوبنا خطوات ممكنة محدودة ليقوموا بدور فى المعركة ٠ دور لا يمكن ان يعطى للعدو فرصة لتوحيد ضربة ساحقة الى جماهير بالكاد بدأت تعرف العدو من الصديق ٠ وعن طريق الخطوة الصغيرة أثر الخطوة الصغيرة يتصاعد الدور ويشتد عود الانسان الفرد والانسان الشعب والمجتمع ،ويتعلم ان عليه ان يقوم بدور ما ، وان القيام به أمر ممكن ، وهكذا نصل الى اللحظة التى يمكن فيها ان نقوم بعمل جماعى كبير مرة واحدة وفى لحظة واحدة ، اذ حتى لو لم يؤد هذا العمل الى دحر كامل للعدو وانتصار كامل لنا ، فان فشلنا فيه لن يشتت شملنا ، وما دمنا قد ذقنا متعة الكفاح معا ، والثقة بأنفسنا معا ، فان التاريخ سيعيد نفسه ولن نكل حتى ننتصر ٠

ان نجاح ثورة ١٩ مرجعه الى ان المطلب الشعبى فيها بدأ بسيطا جدا وممكنا جدا ، وقانونيا جدا ولا غبار عليه ، ان يجمع الشعب توقيعات يوكل فيها قادة ثورة ١٩ بان ينوبوا عن الشعب فى مفاوضة الانجليز ٠

وكانت النتيجة ان شباب الوفد حين قام بجمع توقيعات وبصمات الملايين على تلك العرائض ، قد جند ــ وهو يدرى

أو حتى دون أن يدرى ـ كل من وقع أو بصم على العريضة للحركة الوطنية ، وجعله يحس انه (ساهم) وان له دورا ، وهكذا حين رد الانجليز بنفى سعد ورفاقه ، صعد الشعب فى كفاحه خطوة ، وأعلن الاضراب ، وكانت المظاهرات ، وحين رد الانجليز بالقوة الغاشمة وبالعساكر الاستراليين وقد ركبوا بغالهم وانهالوا على الناس ضربا وتقتيلا ، وبدأت قيادات الوفد تفكر ، بل وتكون ، جيشا شعبيا مسلحا يقاوم هذا العدوان المسلح •

وحين نما الى علم الانجليز هذا الذى بدأ يحدث ، والانجليز قوم أذكياء لهم باعهم الطويل وتجاربهم فى مقاومة الحركات الوطنية ، بدأوا يدركون انهم سائرون فى طريق ما حق الخطر سينتهى حتما بمعركة مسلحة عليهم ان يخوضوها ضد شعب كامل مسلح • وكان ان افرجوا عن سعد زغلول وقبلوا رياسته لوفد المفاوضات •

★★★

تلك مقدمة قد طالت واطلتها عن عمد لأهميتها ، فمن الواضح ان شعبنا المصرى وحكومتنا المصرية يعانى كلاهما أزمة حكم فلا الشعب يريد ان يعود الى الحكم الذى جرى حتى فى أمجد أيام ثورة عبد الناصر ، ولا هو يريد أبدا حتى لو قامت المجازر ان يعود الى حكم كحكم السادات ، وفى العالم العربى حوله يرى غير هذين النموذجين حكومات قامت على التعصب الدينى الأعمى أو الحكم العسكرى الديكتاتورى وكلها نماذج ، جربنا بعضها ، ونقرأ الكثير عن المآسى التى تنشب من ورائها ، ولقد رحب الشعب بزوال العهد الساداتى ، وفتح أبواب آماله مرحبا بمجيء مبارك الى الحكم

على اعتبار انه لن يكرر كثيرا من اخطاء عبد الناصر فى عنفوان حكمه ، لن يفكر أبدا فى أن يحكم على النسق الساداتى • وفعلا ، جاء مبارك تزفه تلك الآمال ويزفها هو الى الشعب ، ولم تكن مصادفة أبدا ان كان أول عمل سياسى داخلى يقوم به ان يفرج عن آلاف المعتقلين ، بل ويقابلهم فى القصر الجمهورى مقابلة ترضية خاطر وما يشبه الاعتذار عما فعله سلفه • وانتخبنا ، فى اجماع حقيقى لأول مرة ، حسنى مبارك رئيسا ، وسرت فى الشعب روح أمل جديدة ، خاصة وقد بدأ حكم مبارك يمسك بتلابيب لصوص عصر السادات ورموز فساده ويحاكمهم ، ويسمح للمعارضة باستعادة أحزابها وجرائدها ، وبكم أوسع من الحرية • وما لبث ان أعقب هذا بالتفاتة ود الى الدول العربية التى انتهزت فرصة ما فعله السادات وقطعت كل ما بينها وبين ـ ليست القاهرة الرسمية فقط ولكن ـ الشعب المصرى كله ، بنقاباته وتنظيماته وهيئاته •

وبدأ مبارك بمنظمة التحرير ، وتلك كانت بداية هامة جدا ، وفى بضعة شهور كان عرفات فى القاهرة ، وكانت قيادة المنظمة توافق على دوام الاتصال مع مصر والتعاون معها ، ثم جاء دور الاردن ، ودول الخليج ، وحدثت محاولات مع ليبيا وسوريا ، وبدأ كما لو ان الأرض التى فقدتها مصر فى عهد السادات عربيا تسترد شبرا شبرا ، وبلدا بلدا •• حتى ليكاد الانسان وهو يراجع سياسة مبارك العربية لا يجد الا أقل القليل من المشاكل والأخطاء ، وكلها موروثة بكليتها من القيود التى قيدها بناء الرئيس السادات ، بتلك العلاقات الخاصة جدا مع أمريكا ، وبالتعاون الاستراتيجى الاسرائيلى الامريكى الذى فى ظله لن تستطيع مصر وحدها ان تجابه ذلك التحدى ، ولكننى شخصيا اعتقد ان كل تلك القيود أمور

موقوتة تماما وان باستعادة مصر لقدرتها وقـوتها الذاتية ، واستعادة الالتفاف العربى حول مصر ومع مصر سوف يتغير الحال حتى بدون قتال ·

فالمضحك ان بعض البلاد العربية (الصاعدة والرافضة) تتصور ان كامب ديفيد لا تزال هى السبب فى المصائب التى حلت والتى لا تزال تحل بالأمة العربية جمعـاء وهو قـول يبعث حقا على الرثاء فلم يحدث فى تاريخ العالم ان تسببت معاهدة ـ مهما كانت بنود تلك المعاهدة ـ فى تفرقة أمـة بأسرها وتمزيقها نتفا ، أن كامب ديفيد كارثة هذا صحيح ، كارثة بكـل معنى الكلمـة ، ولكن كامب ديفيد هى الجزء الظاهر الصغير من جبل الثلج المختفى تحت سطح الماء والذى تعانيه أمتنا العربية ·

لقد حولت كامب ديفيد انتصـار اكتوبر العسـكرى الى هزيمة سياسية ، حتى لو كانت قد أدت الى تحرير سيناء ، فقد كان ثمن تحرير سيناء هو عزل مصر عربيا واسلاميـا وأفريقيا وآسيويا ، وهو ثمن فادح ، ولكن كل بلد عربى قد قام بما يشبه كامب ديفيد بل وربما أسوأ ، فغـرق الجيش السورى فى الوضع اللبنانى الى درجة الشلل التام الذى ألغى فاعلية سوريا ، والوقيعة بين العراق وايران الى حد اراقة كم من الدماء لم يرق فى كل التاريخ الاسلامى بين دولتين اسلاميتين وتشويه سمعة العرب بالصاق تهمة الارهاب بليبيا وضربها على مرأى ومسمع من العالم دون ان تستطيع دولـة عربية أو غير عربية ان تصـنع شيئا ازاء هـذا الارهـاب الريجانى الاجرامى ، والاشتباك الليبى التشادى ، والصومالى الحبشى ، والسودانى ـ السودانى ، والشيعى الفلسـطينى المارونى الدرزى السنى ، والمؤامرة عـلى سعـر البترول والنزول به من حيث كان ٣٤ دولارا للبرميل الى سبعة وعشرة

دولارات ـ تلك التي سميتها مذبحة صابرا وشاتيلا البترولية ، ضرب المفاعل النووى العراقى ، وضرب الكوماندوز المصريين واختطاف الكرامة المصرية الطائرة واتهام مسئوليها ـ علنا ، على الملأ ، بالكذب ، ثم أخيرا هذا العمل الاجرامى الكبير بتزويد ايران بأسلحة عبر اسرائيل ، واعطاء العراق معلومات خاطئة عن أهداف ايرانية كاذبة ، والوقيعة بين الفصائل المتقاتلة فى لبنان ، بحيث اذا هدأت الأحوال بين أمل والمنظمة ، فجرت سيارة ملغمة فى قرية شيعية ليظن أن الفلسطينيين هم الذين فعلوها ، أو يحدث العكس ويفجر صاروخ أو لغم فى مخيم فلسطينى لتقوم القيامة بين اللبنانيين الشيعيين والفلسطينيين ان تشويه سمعة العرب ومحاولة دمغ سوريا بانها دولة ارهابية ، وكذلك ليبيا ، وفى نفس الوقت التعامل مع ما اسماه كارتر وريجان الدولة الارهابية الأولى فى العالم ، ايران ، ثم بالغش والخديعة والفجور ارسال ارباح الاسلحة المباعة لايران عبر اسرائيل الى المناهضين للحكومة الشرعية فى نيكاراجوا ، أى ضرب العالم الثالث بالعالم الثالث . كلها أعمال ليست فقط غير أخلاقية ، وغير انسانية ، ولكنها أعمال مافيا مجرمة محترفة آلت على نفسها ان تسيطر على العالم بالقوة الغاشمة ، وان تنفق مئات المليارات من الدولارات لاشعال حرب ذرية يفنى بها العالم الاشتراكى والعالم الثالث ، واغراق دول الجنوب الفقيرة بمئات المليارات من الدولارات كديون ، وفى نفس الوقت خسف الأرض بأسعار منتجاتها التصديرية لتبقى مغروسة فى وحل الدين والفقر والمرض والفاقة الى آذانها .

كل هذا تفعله دولة افلتت كالوحش الكاسر من قفص السلوك البشرى وانطلقت أسودها ونمورها وثعابينها وكلابها تنهش وتقتل وتحرض وتقهر وتستأصل أى قيمة بشرية أو

انسانية وأى شريعة من شرائع الله ، وتبشر بكل ما يزخر به قاموس الشيطان من موبقات • لقد اتيح لى أن أشهد بعض أحدث انتاج هوليود من الافلام ، وفوق انها كلها دعاية فى غاية الذكاء ، والعبقرية لشعب الله (المختار) المختار ليلعب أسوأ دور لعبه شعب فى تاريخ البشر ، فانها تقطع الجذور العميقة التى تربط الانسان الفرد أو الشعب بجنس البشر ، وكان هدفها الأسمى ان تحول الكرة الأرضية الى غابة متوحشة لا يسرى فيها أى قانون حتى لو كان قانون الغابة نفسه حيث البقاء للأقوى ، انما البقاء فيها للأحط وللأخس وللشاذ وللأنانى والخيبة فيها والفشل والضياع لكل من يحاول ان يتحلى بصفة واحدة من صفات الانس أو حتى الوحش •

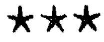
★★★

لا يمكن ان يكون هذا كله قد حدث لان مصر لا تزال ملتزمة ، حكوميا فقط ، بكامب ديفيد ، فاذا كان لكل شيء سيىء جانبه الحسن ، فالجانب الحسن فى كامب ديفيد انها اقنعت اسرائيل وأمريكا ان أى معاهدة صلح أو اعتراف توقع مع أى حكومة عربية على حدة ، أو مع عدة حكومات عربية ، لا يكون العدل والحق هو أساس توقيعها ، فهى لا تساوى المداد الذى كتبت به ، وآلاف السياح الاسرائيليين يأتون الى مصر ، وما يرونه فى عيون الناس ، وما يقرءونه فى تعبيرات وجوههم ، يؤكد لهم بالدليل القاطع ان صلح حكومة مع حكومة لا قيمة له بالمرة ، أما الشعوب فهى لا تقبل الا الصلح العادل ، وطالما ان اسرائيل باغية ومعتدية وملتهمة لفلسطين كلها ، ولاعبة دور الشيطان فى المنطقة فان احلامها فى الصلح هى أضغاث أحلام ، وغربتها فى المنطقة ستظل تتعامق مع الزمن اذ الزمن باستمرار العدوان هو مع تعميق العدوان وفى النهاية انفجاره •

كل ما فى الأمر أن هناك شيئا واحدا لا بد ان نملك الشجاعة لقوله والاعتراف به ، أن ما نراه فى ساحتنا العربية من تمزق وتشرذم وانعدام ارادة وتفتت كلمة وقرار ، ان ما نراه يحدث فى منطقتنا منذ عام ١٩٧٩ الى الآن ان هو الا علامات هزيمة غير معلنة أقولها مرة أخرى علامات هزيمة غير معلنة ٠

والهزيمة أبدا ليست كارثة ، وكلمة الزعيم الصينى الكبير صن ياث صن لا تزال ترن فى اذنى حين فشلت ثورته ضد الاحتلال اليابانى فقال : ليس هذا سوى فشلنا أو هزيمتنا الثالثة عشرة ٠

ان أولى بوادر الانتصار هى الكف عن مخادعة النفس ، والاعتراف بانك هزمت ، وأولى بوادر النجاح هى ايقاف التحجج بالأسباب الواهية والاعتراف بانك رسبت ، فحين يدرك الانسان انه فعلا يعانى هزيمة ، وانه فعلا قد فشل فى تحقيق الهدف فان الطبيعة الانسانية سرعان ما تكتسب القدرة على التحدى ، وتتشكل لها من داخلها قوة مارد أعظم تبادر الى الاستعداد للتحدى القادم ومن ثم الى النجاح والانتصار ٠ ولولا اننا اعترفنا باننا هزمنا عام ١٩٦٧ بل وجاء هذا الاعتراف على لسان قائدنا العظيم نفسه ، بل واعتبر ان الهزيمة هى أولا هزيمته شخصيا وبادر وأعلن انه مسئول عنها ــ لولا هذا ما ركبتنا روح التحدى ولما بدأنا الاستعداد الجدى للمعركة المقبلة ، ولما بلغ التحدى مدى جعل الجيش المصرى الباسل ينطلق كالرجل المغلى يحطم خطوط أعدائه ويلحق شر الهزيمة بهم ٠



نعم .. ان كل الاعراض على ساحتنا العربية تؤكد ، لكل ذى عينين ، ولكل أعمى انها علامات هزيمة لا يعانيها عالمنا العربى فقط ، ولكن العالم الثالث كله يعانيها .

واذا كانت تلك الهزيمة قد أخذت شكل الصراع بين الطوائف فى بعض بلادنا العربية ، وشكل الحروب بين نظم ونظم ، وشكل عملاء يحكمون ، ووطنيين يحكم عليهم ، شكل سيادة الفرقة والتعصب ، شكل الهروب من الجهاد فى سبيل الله الى الاغراق فى شرح النحو والصرف وسحب روح التضحية والفداء والايمان من ديننا الحنيف وتحويله الى ما يشبه التعاويذ ، ومودات الازياء والحجاب ، واسقاط هزيمة الرجال على جنس النساء واعتباره انه الجنس الخاطىء والمذنب والمثير للفتنة على الأرض (أى احلال نسائنا الفاضلات محل الاستعمار والصهيونية فى غرس الفتنة وتضليل الجماعة واغواء الفرد) .

اذا كانت الهزيمة على المستوى العربى العام قد أخذت هذا الشكل ، فهى فى مصر قد أخذت طابعا — فى رأيى — أكثر خطرا ، اذ هى قد أوصلت الاحساس بالهزيمة الى قلب وعقل الفرد المصرى نفسه ، ان لا مبالاتنا ، ان فتورنا ، ان يأسنا ، ان كرهنا لبعضنا البعض ، ان أخطاءنا فى حق أنفسنا وفى حق دولتنا التى كثرت : نهب الأموال ، وشيوع الارتشاء ، والتكالب على الطعام والشراب واللذة المريضة العابرة .

بل ان يؤدى الحال الى ان تصل الهزيمة الى الحد الذى أصبح أسهل شىء للمواطن المصرى ان يقول : ليس هناك من فائدة ترجى ، وسعد زغلول قال : ما فيش فايدة ، ومصر حالة ميئوس منها ، أو أن يصل الى الحد الذى أصبح منتهى الأمل الهجرة والاقامة فى مجتمع يتمتع بالنظام والصحة

والعدل والتقدم ، الى ان نيأس تماما ونكفر ، كل على حدة ، اننا ممكن ان نصنع من أنفسنا شيئا ، ومن بلادنا دولة قوية قادرة ، ومن ديوننا وفرة نرفع بها عن كاهلنا عبء اليأس والمذلة والخضوع ٠

ذلك هو الشكل وتلك هى الأشكال التى أخذتها الهزيمة الثالثة فى بلادنا الحبيبة مصر ٠

وفى الهزيمة الأولى عام ١٩٤٨ رفضناها واستنكرناها وقامت ثورة ٢٣ يوليو ترد لنا الاعتبار ، وترد لنا الاحساس ان العالم لم ينته بهزيمة ٤٨ وان العمل الجاد لابد أن يبدأ٠

فى هزيمة ٦٧ اكتشفنا اننا هزمنا لاننا قمنا بثورة على الورق ، فاجراءاتنا فيها كانت قرارات ، وقواتنا المسلحة تركناها لمن لم يرعها ومن لم يكون بها جيشا حقيقيا للخلاص ٠

وكان ان شددنا الاحزمة على البطون ، وبنينا قواعد الصواريخ تحت وابل القنابل الاسرائيلية حتى ان العمال والعاملات الذين كانوا يعملون فى بناء تلك القواعد وكان معظمهم من أبناء الشرقية كانوا يعرفون أن ثلثهم على الأقل لن يعود لبيته ـ ان كان له بيت ـ فى آخر النهار ، ومع هذا فقد كانوا يذهبون الى عملهم وهم يغنون أغانى الافراح ويزغردون وكأنهم ذاهبون الى زفة الانتصار ٠

وهكذا عبرنا القنال فى ٧٣ وانتصرنا ٠

★★★

فى هزيمتنا الثالثة تلك ، نحن لسنا امام هزيمة عسكرية ملموسة ، ولا بضعة قواد من الجيش ممكن عزلهم ومحاكمتهم

واحلال غيرهم ـ أكثر كفاءة ـ محلهم .. نحن امام هزيمة لا نرى لها آثارا ملموسة واضحة ، وكأنما قصد ان يكون الأمر كذلك ، انها هزيمة نحس باعراضها ولكننا لا نعترف باننا مرضى واننا مهزومون واننا فى حاجة الى هبة كبرى ، من كل النواحى ، توقظ جسدنا الذى خدرته قرصة ذباب ، تسى تسى ، التى تسبب مرض النوم المستمر العليل .

أعرف أن الكثيرين سيزايدون ويغالون ويقولون : بل انت المهزوم ، بل أنت المخطىء بل انت النائم ، وشىء من هذا لا يهمنى فى قليل أو كثير ، ليت الأمر كذلك ، ليتنى النائم المقروص فى شعب صاح حى ، وليت كلماتى كلها تخاريف حمى ، فأنا أعلم وانتم تعلمون اننا كلنا نعانى نفس الشعور ، وما دام الأمر كذلك ، فالمرض عام ، وسببه واحد مهزومون يخدعونهم بقولهم انهم غير مهزومين ، بل يريدون اقناعهم بان المسألة « شوية ديون ، وشوية سلبيات ، وشوية انحرافات » وباجراء هنا واجراء هناك ، بالمحافظة على الديمقراطية ، وعلى القائمة النسبية ننقذ أنفسنا منها ونشفى .

لا .. هذه هزيمة ألبسوها طاقية اخفاء بحيث لا نراها ، ولن نراها الا اذا توقفنا فقط ورمقنا حياتنا ، وما نعانيه ونحسه فى لحظة صحوة ، فانى لأكاد آقسم اننا اذا تبينا الصورة لومضة فلن ننام بعدها أبدا ، أجسامنا نفسها سترفض النوم وتأباه ، قوى الحياة التى نحن بالضرورة مزودون بها ، ستستيقظ وترفض وتقول : لا لن أقبل ، ولن نقبل ان نحيا مهزومين .

فحتى الديدان ترفض حياة الهزيمة ، وتزحف ، ملليمترا ملليمترا ، لتخرج من المأزق ، وتنقض على فريستها أو عدوها ، وتنتصر .

حتى الديدان اذا ايقنت انها هزمت أو فى سبيلها لان تهزم ، تنتفض فيها كل ما تمتلكه من قوى المقاومة، وتستحيل من ارادة الدودة حيث ركنت واستكانت الى ارادة العملاق المستوحش فى الدفاع عن حياته وعن حقه فى حياته ، وقدرته على هذا الدفاع •

★★★

لقد بدأنا القضية بعرض الفتور ، ثم اكتشفنا أن الفتور راجع لحالة الغضب ، وها نحن أخيرا نضع أيدينا على سبب الغضب انهم قد هربوا الهزيمة الى كل منا دون آن يدرى ، ولانه لا يدرى فهو لا يملك انيصنع لغضبه أو لفتوره شيئا •

ربما اذا أدرك السبب ، وبطل العجب، وأيقن ان الهزيمة وصلت الى عقر داره وتجويف صدره ، انقلب غضبه من الآخرين الى غضب على هزيمته الخفية ، وانقلب غضبه على الهزيمة ومنها الى ارادة عظمى لقهرها ، وهزيمة الهزيمة •

ولأننا نعرف حال انساننا وما آل اليه •

فلا تطلبوا منه ولا تتوقعوا ان يهب من نومه المريض أو مرضه النائم فجأة ، ويمتشق حسامه ويقضى على الهزيمة وهازميه بضربة واحدة •

ليكن مطلبنا منه مثلما فكرت ودبرت قيادة المقاومة الفرنسية أيام الاحتلال ، شيئا بسيطا جدا فى استطاعته ، ومن الممكن ان نبدأ به ، وتصعد مع البداية خطوات فوقها خطوات الى أن نصل الى العمل الجماعى الكامل العملاق •

ليكن شيئا بسيطا جدا لا شعار اشتر البضائع المصرية ، ولا تشجعوا منتجاتنا المحلية ولا حتى شعار ان يشترى الانسان شيئا على الاطلاق •

لتكن البداية ان نطلب من المواطنين عكس ما طالبت به المقاومة الفرنسية ان يسرعوا فى انهاء الأعمال المطلوبة منهم ٠

فقط يسرعون فى انهاء الأعمال المطلوبة منهم ٠

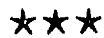
فقط ينجزون فى ساعة ما يأخذ ساعتين لانجازه ٠

بهذا ومن هنا نصعد السلم ونتعلم خطوة خطوة آن نصعد الى أن نبلغ الدرجة التى ينقلب فيها غضبنا على ما ساد حياتنا من تراخ وفتور الى غضبنا على الشعور الخفى بالهزيمة الذى استخفى علينا ومن غضبنا على ادراكنا اننا هزمنا الى ارادتنا الكبرى ٠ ان نهزم هزيمتنا ونقهرها ٠

دعونا من الحديث عن الجبهة والحوار الناصرى الاسلامى واخبار الشيخ صلاح أبو اسماعيل مع حزب الاحرار وعن المقارنة بين عبد الناصر والسادات وبين عصر الملك وعصر الثورة ٠

دعونا من هذا كله ٠

ولنبدأ بهذا الجهد الصغير الذى نقدر عليه تماما ، أن نسرع اذا مشينا ، ان نسرع اذا عملنا أن نسرع فى اتخاذ قرارنا ان نسرع فى تصحيح خطئنا ٠٠ ان نسرع بنفس النسبة التى تسرع بها الدودة اذا أحست بالخطر وأدركت ان بطئها هزيمة وهزيمتها فى بطئها ٠



لماذا لم يفعلوا هذا ؟

بعض الناس فهم خطأ أن الكتاب وهم يكتبون عن مؤتمر القمة الاسلامى ويحللون ويرجون ويبتهلون الى الملوك والرؤساء والقادة العرب أن يصنعوا شيئا من أجل هذا الوضع الاسلامى العربى المتهرىء والمتهاوى ، بعض الناس فهم اننا نبنى آمالا كبارا جدا على ما سوف يدور فى أرض الكويت الحبيبة .. ولعلى كنت واحدا ممن علق الآمال على هذا اللقاء ، ولكنى كنت متأكدا تماما انه لن يسفر عن أشياء كثيرة .. لن يغير ، بعصا ساحر ، فى بعض ساعات وبضعة لقاءات واقعا رهيبا تجمدت طبقاته واحدة اثر الأخرى حتى صنع ما يشبه الهضبة الصخرية التى يحتاج زوالها الى جهد جاد ومستمر ودائب من أجل تفتيت تلك الصخور المتكلسة ، والوصول الى الحد الأدنى من الأوضاع المعقولة أو شبه المعقولة لهذا الواقع الاسلامى العربى .

نعم .. لقد التقى الرؤساء والملوك وتزاوروا ، وألقوا خطبهم الحافلة بالامانى الطيبة والحماس الزائد ، وصدرت التصريحات من هنا وهناك تبشر بتقدم أكيد ، وتحقق آمالا كبارا .

ثم انقسم المؤتمر كالعادة الى لجان ، ودارت الحوارات والاجتهادات ، تحت المعانقات الاسلامية العربية المشهورة ، ثم انفض المولد ، وآب كل رئيس أو ملك الى بلده ، وآب كل حال الى حاله ، واستأنفنا من جديد حالتنا الاسلامية العربية المعتـــادة ٠

ومن كان يتوقع أكثر من هذا لا بد أنه كان يعيش حالة أحلام يقظة وحالة جرى وراء الامانى ٠٠

ولكن هناك بالتأكيد أشياء ايجــابية وقعت وحدثت ، وهناك بالفعل تغيرات جرت ٠. فان يمضى الملوك والرؤساء قدما ، وأن يتم عقد المؤتمر رغم التهديــدات والتلميحــات والعقبــات ، على أرض الكويت الشقيقــة ودون أن يحدث والحمد لله حــادث ، أو يجن مجنون ويرتكب جريمــة ٠٠ هذا فى حد ذاته نجاح ، وأى نجاح ٠

أجل مجرد أن يلتقى ٤٤ رئيسا وملكا اسلاميا كان قد أصبح أمرا يكاد حدوثه يقترب من منطقة المعجزات ٠

ثم ان يجتمع هــذا العدد الــكبير ، ويجمع على حتميــة وضرورة انهــاء الحرب العراقية الايرانية وايقــاف حرب المخيمات ، وان يقف صفا واحد الى جوار العديد من الأهداف الأقل ضخامة وأهمية فالحــال كانت قد وصلت بنا الى الحد الذى فقدنا فيه الأمل فى كل شىء وهــذا فى حد ذاته أعتبره شخصيا نجاحا وأى نجاح بعد أن كنا قد وصلنا الى استحالة اتخاذ أية خطوة ٠

ولكن مثل تلك الخطوات التى ذكرتها ، حدثت وجرت والتقى حسين مع عرفات بالمصادفة و « بالمصادفة » التقى

مبارك مع الأسد ، ولم يحدث أن قام القذافى وادان المؤتمر والمؤتمرين جميعا ٠

أما كون أن تدور بعض المهاترات والاتهامات ، وان تظل سوريا تصر على موقفها الرافض لمصر والكامبديفيدية « فهذا أيضا شيء كان متوقعا ، وكان لابد أن يحدث فالسياسات ، وان كنا لم نعد نفاجأ أن تتغير فى عالمنا العربى والاسلامى بين يوم وليلة ، وبزاوية قدرها ١٨٠ درجة الا أن المرض الذى استفحل لمدة عشرة أعوام لا يمكن أن يشفى فى بضع ساعات أو بضعة أيام والعداء الذى استحكم سنين لا يمكن أن يحل محله الوئام والحب ، فى تبادل بعض السلامات والقبلات ٠

كل هذه المعارك الجانبية كانت أشياء طبيعية ومتوقعة ٠ وحدوثها لا يعد فى رأيى كارثة كبرت أو صغرت ، انما كان أمرا تحتمه طبيعة الأمور خاصة اذا تعلق الأمر بتنفيذ المقررات وتحويل الأمانى الطيبات والاحلام الى واقع عملى ملموس ٠

فصحيح اننا كمسلمين وكعرب أجمعنا ولا نزال نجمع على ضرورة انهاء الحرب العراقية الايرانية ٠

بل حتى وصلنا فى تواضع أمانينا الى ضرورة وأهمية أن يحضر رئيس الدولة الايرانية أو مسئولوها الكبار مؤتمرا يعقد لقمة وزعماء وحكام المسلمين فى العالم ٠٠ أليس الايرانيون مسلمين أو على الأقل يزعمون هذا ؟ ان هذا المؤتمر قد جمع المختلفين حول الحرب فى لبنان ؟ ٠ وتشاد ؟ وأماكن أخرى كثيرة من العالم الاسلامى فلماذا لا تحضره ايران المختلفة الى حد القتال مع العراق ؟

أم ان الخلافات والتنافرات بين المسلمين على اختــلاف مللهم ونحلهم شيء والخلاف بين ايران وبقية البلاد الاسلامية شيء آخر مختلف تماما وكأنه الخلاف بين الكفرة والمؤمنين أو بين عبدة الله سبحانه وتعالى وعبدة الشيطان ؟

الغريب فى الأمر ان أحدا لم يتعرض لهذه النقطة فى الاجتماعات العلنية وربما أيضا فى الاجتماعات المغلقــة ، وكأن عدم حضور ايران وموقفها هذا مسألة طبيعية تماما لا تثير استنكارا أو غضب أحد وكأن المجتمعين يقررون أيضا ان الخلاف الايرانى ـ الاسلامى ـ العربى خلاف ذو طبيعة خاصة ووحيد فى ذاته ٠

وكنت عند هذه النقطة بالذات أرقب ـ مثل غيرى من ملايين المسلمين ـ ماذا سيفعل المؤتمر قبل الحرب الايرانية العراقية ؟

ومن الواضح بعد اجتماع المــؤتمر وانفضــاضه ، ان شيئا جديدا لم يحدث وان خطوة واحدة الى الامام لم تتم ٠

وهــذا فى رأيى هــو الشيء غير الطبيعى الشيء الذى يجعل أى انسان محدود الفهم يعتقد ان كل هــؤلاء الملــوك والرؤساء أعجز من أن يقوموا بعمل تجاه ايران أو أن ايران وحدها أقوى فى موقفها وفى قدراتها من كل الدول الاسلامية مجتمعة ٠

وهذا فى رأى الحقيقة والواقع شيء ليس صحيحا بالمرة ٠٠ فليس صحيحا ان قوة ايران تعادل قوة مسلمى الأرض وقادتهم وحكامهم مجتمعين وليس كل هؤلاء الحكام والقادة عاجزين عن القيام تماما بأى عمل ضد ايران أو من أجــل احلال السلام ٠

ولقد كنت أتصور أن يكون هذا هو الشغل الشاغل لكل المجتمعين فى الكويت ولقد كنت أتصور انهم لابد أن يصلوا بتبادل آرائهم واصرارهم الى قرار ما أو عمل ما يوقف هذه الحرب أو على الأقل يوقف اطلاق النار واهدار دماء الشباب المسلم على الجانبين ولو الى حين يصبح من الممكن أن تصل النفوس الى حد أدنى من الحل وطريقة للسلام .

★★★

كنت أنتظر هذا ..

وكأنى كنت أحد هؤلاء المجتمعين .

فصحيح اننا كلنا لم نجتمع أو نشترك فى هذا المؤتمر .

ولكن هذا المؤتمر كان ـ فى جوانب كثيرة منه ـ يعد ممثلا ومفكرا باسم كل المسلمين باسم كل المواطنين فى أى دولة من دول الاسلام .. ولهذا فانى أطرح هذا الافتراض ، وأفكر ويغلى صدرى بالغيظ لان أحدا لم يفكر فيه أو يتصوره .

فقد تصورت ان الدول الاسلامية خمس وأربعون دولة منها أربع وأربعون دولة فى ناحية ودولة واحدة فى ناحية أخرى .. ودولة واقفة كابن نوح الذى قال له أبوه : « يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين » . الكافرين المستوردين لأسلحة اسرائيل وأمريكا لابادة شعب مسلم مجاور .

كان طبيعيا اذن الا يقتصر عمل تلك الدول الأربع والأربعين على اتخاذ مجرد قرار أو توصية أو استنكار .

كان مفروضا أن يحدث شىء حاسم آخر .

لماذا ــ والوضع هكذا ــ لم يأخذ هؤلاء الملوك والرؤساء والحكام الاربع والاربعون طائراتهم ووسائل تنقلاتهم الفاخرة ويذهبون جميعا الى طهران ؟

فالذى يريد أن يفض « خناقة » مجرد خناقة ولا أقول حربا لا يكتفى بمجرد الجلوس حول اجتماعات أو مشاورات بعيدا عن الحدث وعن ساحة الشر ويكتفى بارسال الأمانى تلو الأمانى والمناشدات تلو المناشدات ·

كان مفروضا أن يذهبوا جميعا الى طهران على مرأى ومسمع من العالم كله باسلامه وبغير اسلامه ويقولون للحاكمين هناك لقد جئنا لنوقف نزيف دم المسلمين ·

فماذا أنتم فاعلون بنا ؟

لا أعتقد ان حكام ايران كانوا فى هذه الحالة سيصفون الملوك والرؤساء الأربعة والأربعين بجوار حائط أو يربطونهم على أعمدة كهرباء وينفذون فيهم حكم الاعدام ·

ولن يجرؤوا حتى على اعتقالهم أو حبسهم أو المساس بشعرة واحدة بهم ·

كانوا ــ هؤلاء الحكام الايرانيون ــ سيواجهون موقفا عمليا ، واقعيا حاسما ، اما أن يكشفهم أمام جموع المسلمين وأمام الجنس البشرى كله كراغبين فى اهدار الدماء من أجل اهدار الدماء · واما سيكشفون ان المسألة ليست كما يزعمون هى تحرير للقدس مارين ببغداد ، وأن المشكلة ليست فى اقامة صدام حسين أو تغيير نظام الحكم فى العراق وانما سوف تتكشف المشكلة عن أن ايران تريد أن تبتلع أرض العراق العربية نفسها وبلاد الخليج العربى الاسلامية نفسها وان

الأمر ليس نزاعا عمن بدأ الحرب أو عمن هو مسـئول عن اشعالها وانما الأمر أمر اناس يريدون الحرب من أجل الحرب واهدار دماء العـراقيين والايرانيين من أجـل اهدار تلك الدماء نفسها •• ومن أجـل الاستيلاء عـلى أرض المهدرة دماؤهم •

سوف يتكشف للعالم أجمع ان عداء حكام ايران للعراق وللعرب ليس عداء بين مسلمين ومسـلمين وانما هو عداء أعداء المسلمين للمسلمين مثله مثل عداء الصهيونية للعـرب وللمسلمين وللعالم الثالث كله •

★★★

أما اذا لم يحدث هذا ••

واذا قوبل هذا الوفد الذى يجمع كل حـكام ورؤسـاء المسلمين بما يليق به من مكانة وترحيب ••

وتولى الحكام الايرانيون عرض قضيتهم أو قضية حقهم أمام هذه المحكمة الاسلامية العليا ورضوا بحكمها •

فان الملوك والرؤساء المسلمين سيكونون حينئذ قد قاموا بأبسط ما يمليه واجبهم كحكام مسئولين عن أمة الاسلام •• قاموا بواجبهم وقاموا « بفعل » اسلامى حقيقى صحيح يحمل فى ثناياه بعض الخطورة ولكنه يحمل أيضا ـ وهـذا هـو المهم ـ الطريقة الوحيدة لايقاف هذه الحرب الضروس التى يستنكرها العالم أجمع بمسلميه ومسيحييه ويهـودييه وحتى بوثنييه •

لو كان المجتمعون فى الكويت قاموا بعمل كهذا ..

اذن لشهدنا بمثل هـذا العمل حقبة اسـلامية عربيـة جديدة

اذن لبدانا نضع أقدامنا على أول الطريق لحل مشاكلنا المكدسة بين عربنا وعربنـا ومسلمينا ومسـلمينا وعربنـا ومسلمينا .

★★★

ولكن شيئا من هذا لم يحدث .

ولأن شيئا من هذا لم يحدث .

فقد كان لابد أن يحدث النقيض .

وأن يخـرج المسلمون والعرب من المؤتمر وهم ــ فى الظاهر ــ أقل خلافا وأكثر اتفاقا ولكنهم فى الحقيقة أكثر خلافا وأبعد شىء عن الاتفاق حول شىء .. أى شىء .

★★★

شـكرا للكويت الشـقيقة التى نجحت فى اقامة مؤتمر ما كان أحد يتصور انه سيقوم أو سيكون .

شكرا للملوك والرؤسـاء العرب الذين لبـوا الدعـوة للاجتماع أو احتملوا ساعات من الجدل وتحملوا نوبات كثيرة من سوء الهضم والحموضة نتيجة المآدب الحافلة التى التهموا طعامها وشرابها .

شكرا للرؤساء الذين قابلوا الرؤساء والملوك الذين قابلوا الملوك والرؤساء الذين التقوا مصادفة أو التقوا من عمد .

شكرا لهم جميعا فقد أثبتوا لنا بما لا يدع أى مجال للشك انهم قادرون أن يجتمعوا اذا أرادوا .

وقادرون أن يتفقوا اذا حسنت نياتهم .. ولكنهم ..

وهذه هى الكارثة الحقيقية .

قد أثبتوا لنا أيضا .

وبما لا يدع مجالا لأى شك .

انهم حتى لو فعلوا واستطاعوا كل هذا فهم غير قادرين على اتخاذ قرار جرىء واحد ، ينهى مشكلة ولو مشكلة واحدة من مشاكل المسلمين والعرب السلفية ..

فالمشاكل لا تحل بالبيانات تتلى فى الاجتماعات ولا بالقرارات تعقبها القرارات .

ولا بالدار البيضاء مقررات تعقبها قمة الكويت بقرارات .

انما المشاكل تحل بعمل و (باجراء وبقدرة على الفعل و (الحركة) و (التطبيق) .

وليس بأى شىء آخر سواها تحل المشاكل .

أو توقف الحروب .

★★★

أسرع يابني .. وصور

بعيدا عن القضايا التى أصبح الحديث فيها «محلك سر» بعيدا عن المناوشات الدائرة بين الحكومة والمعارضة ، وبين الاقلام الصحفية والحكم بعيدا عن الحديث عن الديمقراطية وعن السلفية والخلافات الطاحنة حول قضايا ما أنزل الله بها من سلطان . بعيدا عن (الحديث) عن الوفد الفلسطينى الاردني واحتمال قبول أمريكا ورفض اسرائيل . وتحسن العلاقات وسوء العلاقات . بعيدا عن الغلاء الذى يكوى القلوب والجيوب والتسعيرة التى تظهر وتختفى كعفاريت الظهر ، والخرفان المذبوحة على عتبة وزارة (التعليم) . والحمد لله انها ليست على عتبة وزارة البحث العلمي والتكنولوجيا بعيدا عن أزمة المسرح وأزمة الابداع وأزمة الأخلاق وقضية سميرة مليان .

بعيدا عن هذا كله ..

لا أعيش قرير العين رائق البال ، أنام نوم مستريح الضمير . فالواقع انى لا أنام الا لماما .

ليس لأنى قلق البال ولا مؤرق الضمير والحمد للحمد ·

ولكن لأن نفق أكتوبر تحت رأسى مباشرة ·· منذ ثلاثة أشهر والدق شغال ، طوال الأربع والعشرين ساعة ، وبمختلف أنواع الدرجات والنغمات ·· فهناك دق متتال كطلقات المترليوز يقوم به حفار الاسفلت الصغير ذو الضجيج العالى ، وهناك دق المدفعية الثقيلة من غارسات الخوازيق · الخرسانية ودق المطارق والمعاول ، وأكوام الرمل والزلط وهى تنحدر فى شلالات ،ضجة تعمى العيون والاذان ناهيك عن ضجيج الأوامر وصخب العمال والأنوار الملتهبة الضوء التى تخترق الشيش وتخرق الستائر وتفتح بالقوة أجفان العيون ·

الحقيقة كانت الضجة فى أول قدومها مفاجأة أقلقت مضاجع بضع مئات من سكان شارع النيل الذين شاء لهم الحظ أن يجاوروا ويطلوا على النفق المزمع أقامته ·

كانت من المفاجأة والصخب بحيث كنا لا ننام ليلا أو نهارا · وكأننا فى حرب ذات غارات متصلة · وما دامت حربا فلتكن الهجرة وهاجرنا الى الاسكندرية وصحيح أن شارعنا هناك لم يكن به نفق ولا حرب فقد كان دائم الضجة ضجة غير معلومة المصدر ومن الصباح الى الصباح ، وكأنها ضجة الجان الذى يقولون أنه يسكن أرض المعمورة ·

ثم عدنا أخيرا متمنين أن تكون الاعمال الانشائية الثقيلة فى النفق قد انتهت ولكن لا شىء كان قد تغير اللهم الا أختلاف النغمات وبروز بضع آلات جديدة فى أوركسترا الضجة اللاهارمونى

وكنت منذ بدأ العمل قد أغلقت جميع النوافذ والمنافذ التى تطل على موقع العمل ، دون فائدة ، فكل شيء كان يصل واضحا تماما وكأن الحفر فى الشقة ٠

وأول ليلة بعد العودة حاولت النوم بلا أى أعتبار للضجة فقد أصبحت الضجة ملازمة لصحونا ومنامنا بطريقة لا أعرف ماذا يحدث لنا ولنومنا أن ــ فجأة ــ سكتت ــ الضجات كلها ٠

الى الساعة الثالثة صباحا لم أستطع النوم ، وما دام لا فائدة من النوم فلتكن اليقظة ولتكن القراءة ، ولكن الضجة أوقفت عمل خلايا الاستيعاب هى الاخرى ، فأغلقت الكتاب وقمت أتجول فى الشقة شبه المظلمة التى تبدو متوهجة الضوء من فرط ما يصلها من ضجيج نهارى الطبيعة جحيمى الوقع ٠

ثم كان ما ليس منه بد ، وفتحت نافذة مطلة على موقع العمل فى النفق ، فوجدت بصرى يتوه والامكنة والأضواء والآلات تتخاطفه وتتسابق لتكون أول ما يقع عليه البصر ٠

نهارى كامل موجود فى قلب الليل البهيم ٠ رجال رائحون غادون يبدون من العلو الذى كنت أنظر منه كائنات صغيرة دقيقة ككائنات (جوليفر) فى جزيرة المغامرات التى سافر اليها ٠ آلات هائلة الضخامة حتى أن احداها كان يبلغ أرتفاعها سبعة طوابق من عمارتنا وحين فتحت النافذة وجدتها أمامى مباشرة أكاد أمد يدى فألمسها ٠

كان ذلك منذ حوالى أسبوع وكان النفق قد تم تبطين جانبيه بالخرسانة المسلحة ، وجار العمل فى حفر مجرى النفق وازالة الاكوام الهائلة من التراب والطين ، اذ كان تكتيك العمل على ما بدا لى هو عمل سقف خرسانى على قواعد خرسانية

مدكوكة ثم ازالة ما تحت السقف من آتربة وطين لايجاد مجرى النفق بطول آلاف الامتار ، كانت أكوام التراب الطينى من الضخامة بحيث يكون جبالا وتلالا لا يستطيع العمال تسلقها، وكان اذا أراد عـامل أو ملاحظ آو مهندس آن ينتقـل من حيث الأرض التى تحفر الى قمة التـل يدلى له سائق جهـاز الحفر الكبير ذا اليد التى لها آصابع خمس تغترف بها الاتربة وتملأ عربة نقل ضخمة فى عشر قبضات من قبضاتها العملاقة كان سائق الجهاز يدلى اليد الى العامل آو المهندس حيث هو فى القاع ثم (يغـرفه) ويصعد به آكثر من عشرة أمتـار ليصبح فى القمة فينسل عن القبضة وكأنه بطلة فيلم (كينج كونج) حيث كانت تتسلل من بين آصابع يده وكأنها فى حجم الدودة ٠

لم أفطن الى أن النهـار قـد طـلع الا حـين واجهتنى الشمس الحمراء وهى تشرق وكأنها جهاز اضاءة آحمر جديد أضافه العاملون فى النفق فجأة ٠

كنت قد أمضيت ثلاث ساعات لم تتسرب الى فيها لحظة ملل واحدة وقد امتصنى ما يدور آمامى تماما ، ليس الجهد الهائل فقط ، ولا الآلات العملاقة ، ولا هذا التفاهم الغريب القائم بين العامل والآلة ، ولا بين العمال والملاحظ ، ولا بين هؤلاء كلهم والمهندس أو المهندسين ، كل يعرف عمله ، وكل يتحرك اليه وبه ، ولا كلام ولا قهقهات ولا آجيب لك شاى ، ولا توقف لشرب سيجارة أو نفس بورى ، عمل دؤوب تقوم به تلك الكائنات الدقيقة على وقع هـدير آلات لا تتـوقف وكأنها موسيقى الجيش النحاسية تلهب الحماس فى ذلك الجيش الدقيق المحارب ٠ وبعدها لم آنم ، وصرت اذا عدت من عملى

أنام بضع ساعات بالنهار لأسهر معظم الليل واقفا عند فتحة النافذة ، لا أتفرج فقط ولا أنتشي وانما أتأمل وأتفلسف وتروح بي الأفكار وتجيء ، كم قال الآخرون وحتى أنا نفسي قلت اننا شعب يميل الى الكسل ، واننا بلا ارادة ، وان هدفنا أن نأكل ونحشي البطون ، ونتزعزع بالمسرحيات والأفلام ونفرفش ، ما أراه هنا شعب آخر ، ذلك الجانب الأكبر العظيم من الشعب المصرى الذى حين يحدد له الهدف بخلق الوسيلة وحين يضع الهدف أمامه وتصبح الوسيلة فى يده ينطلق بأقصى ما يستطيع الكائن البشرى أن ينطلق •

حسن جدا أن الرئيس حسنى مبارك أصر على تحديد يوم ٦ أكتوبر موعدا لافتتاح النفق فقد ألهب التحديد ظهور العاملين •

وجعل الشركة المنفذة وهى على ما أعتقد ـ لأنه من مكانى لا أستطيع أن ألمح لافتة الشركة القائمة بالانشاء والتنفيذ ـ شركة المقاولين العرب ـ جعل الشركة وجعل عثمان أحمد عثمان يستعيد أمجاده التى حققها فى السد العالى ولافتاته المشهورة باق من الزمن مائة يوم وتسعة وتسعون يوما •• الى آخره ، ويتركه من كتابة الكتب وبالذات ذلك الكتاب اللقيط (أنا والعهد البائد) ويعود الى عمله الأصلى ينشىء المشروعات ويقبل التحدى وينجز •

لقد قرأت بحثا للدكتور عبد الكريم درويش رئيس أكاديمية الشرطة عن مشكلة الادارة فى مصر ، وقد وضع الدكتور عبد الكريم يده على بيت الداء فى الوجود المصرى وهو أن تخلف الادارة بل وأحيانا انعدامها وراء الكثير بل كل مشاكلنا الاقتصادية أعطنى ادارة جيدة أعطك انتاجا

وانجازا ، هذا هو السر وراء نجاح كثير من شركات المقاولات المصرية مثل شركات عثمان والعبد وحسن علام ومنتصر ، وحسن أن التأميم قد أشرك أصحاب هذه الشركات فى ادارتها والا كانت قد انتهت كشركات منجزة منتجة ٠

★★★

بالأمس ، وفى ظرف أيام لا تزيد على الأربعة ، فتحت النافذة لأجد ويالدهشتى أن كومة من التراب الطينى الهائلة قد أزيلت تماما وسويت الأرض بتدرج محسوب بالمليمتر بل وسفلتت وبلطت بالأسمنت المسلح ، ثم بدأوا ، ولست أدرى ، لماذا يضعون أسياخا من الحديد فوق الأرضية المسلحة فى أربعة أيام فقط صار الشارع نفقا حقا ومسقوفا ٠

أيقظت ابنى بهاء خريج معهد السينما هذا العام وطلبت منه أن يبقى معى فى النافذة بعض الوقت ليتفرج ٠٠ وبرما بايقاظه من نومه بعد يوم هائل في عمله لاتمام مشروع تخرجه وقف متأففا بعض الوقت ثم أعجبته الآلة ذات الأصابع الخمس العملاقة وما تفعله ، ثم أعجبته ماسورة وآلة صب الأسمنت المسلح ثم اندمج فى المشهد كله ٠

قلت له : لماذا لا تأخذ كاميرتك وتنزل الى الشارع وتصور ما يدور وتصنع (الكلوزات) للعمال الصعايدة الأبطال وترينا المهندسين فى لحظة عمل وليس كما نراهم فى أدوار أنيقة فى سينما لا علاقة لها بالواقع ، لماذا لا ترصد التقدم المذهل الذى يحدث للعمل كل يوم وتسجله بالفيديو ٠

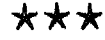
قال بعد تفكير : صحيح فكرة ٠٠ بس دى حتى ماتنفعش فيلم تسجيلى ٠

قلت له : يا ابنى ·· دعك من الأفلام والأنواع والاوهام انه صحيح لن يكون فيلما تسجليا ولكنه سيكون له عنـدى وعند الكثيرين أهمية لا تقدر بمال ·

قال : كيف ؟

قلت : كلما انتابتنى فترة يأس من أحوالنا ، كلما بدأت ثقتى فى الانسان المصرى تهتز ، كلما أحسست بالروح تصل الحلقوم ، كلما هاجمنى الشعور بأن لا فائدة وان مصر حالة ميئوس منها ، كلما سخطت على نفسى والآخرين ، كلما بدا ايمانى بمصريتى يتزعزع كلما حـدث لى شىء من هـذا ، سأدير ذلك الشريط وأعود أديره وأستعيد معه ثقتى بمصر القيمة ومصر الانسان

أسرع يا ابنى ، وأحمل كاميرتك ، وصور فما أشـد حاجتنا اليوم أن نرى أنفسنا فى لحظة عمل وحقيقة فنحن لا نرى الآن الا فى لحظات كلام وكتـابة وكلام ومؤتمرات وخطب ولجان ·· اسرع يا ابنى ·· وصور !



الموهبة

عشرات الأسئلة التى طالما حيرتنى ، ساعات التأملات الطويلة والقراءات والمناقشات والاستفسارات عن كنه ذلك الشيء المجهول الغامض الذى اسمه : الموهبة ، وجدتها تتفجر أمامى على الشاشة الصغيرة وأنا أرى فيلم : أماديوس ...

فلتة من فلتات موهبة الكتابة والاخراج السينمائى جسدت موهبة الموسيقار ، فالفيلم يتناول مقطعا فى متحف الموسيقار « وولفجانج » أماديوس موتسارت أو كما يسميه الفرنسيون موزار . بدايات التدفق والوصول الى القمة ثم الموت المدبر من موسيقار معاصر له وكان يشغل وظيفة كبير موسيقيى البلاط النمساوى الشهير .

الفيلم كان يرويه هذا المنافس نصف الموهوب، ويعترف فيه أنه هو الذى كان وراء موت موزار فى قمة شبابه وتألقه، يعترف بعد أن مات موزار باثنين وثلاثين سنة ، يعترف وهو مودع فى مستشفى للامراض العقلية وقد جننه ما فعله بموزار ، وجننه أكثر شحوب موهبته هو بجوار موهبة موزار

الساطعة • ان هذا الموسيقار الفاشـل (سيريللى) كان من أشهر موسيقيى عصره مما دفع به الى أن يعهد له امبراطور النمسا بأن يكون رئيسا للموسيقى الملكية فى البلاط بمعنى أنه لم يكن مغمورا ولا فاشـلا ، ولكنـه كان عارفا بأسرار الموسيقى فى عمقها ورفعتها •

وهكذا حين قدم موزار الى البلاط ليعمل ضمن موسيقييه ، بهرته موهبة هذا الشاب الى درجـة كادت تعصف بعقلـه ، وترينا القصة (التى كانت لا تزال مسرحية عظيمة لكاتب بريطانى معاصر) اللقاء الأول بين العبقرى الطفلى الملامح والضحكات ، الذى لا يحس بما يتدفق من قريحته من ألحان ، وبين سيريللى منذ أن كان فى الخامسة من عمره ، اذ كان أبوه قد تولى رعايته موسيقيا حتى نظم أول قطعة موسـيقية له وهو فى الخامسة من عمره ، وألف أول سيمفونية وهو فى الثامنة ، وغطت شهرته العواصم الأوروبية حتى استقدمه بابا روما وجعله أحد موسيقيى حاشيته ، والآن سـمع به البلاط النمساوى ، جاء الى فيينا عاصمة الموسيقى فى العالم من ذلك الوقت ، جاء تسبقه الضجة والشهرة وكلمة (الطفل المعجزة) الذى كان قد كبر وأصـبح فى العشريـنـات من عمره • كان سيريللى كما قلت قد قرر أن (يحتوى) هـذا القادم الجديد ويخضعه لنفـوذه ، ليبقى هـو يحتل منصبه الرفيع ، ولهذا جهز له (مارش) ألفه خصيصا ليعزف أمام الامبراطور ترحيبا بموزار •

وطفلا ، صاخبا ، ضاحكا ، غير مقيم وزنا للبروتوكولات ولا لمنـاصب ، دخـل موزار ، وحيـا الامبراطور الذى قام بنفسـه بعزف المـارش أمام موزار • وحين انتهى سـأله

الامبراطور : ما رأيك ، فأجاب : جميل جدا ، وحينئذ سأله الامبراطور : أتستطيع عزفه · قال : بالتأكيد ، فقال الامبراطور : اذن ··· خذ نسخة العزف واعزفه · فقال موزار : لا حاجة بى لنسخة العزف فقد حفظته ، هو موجود هنا الآن فى رأسى ·

وجلس موزار الى البيانو ليعزف مارش سيريللى ، نفس اللحن ولكن ، أى فرق · اذا به وهو يعزف يقول للامبراطور ، لسيريللى : ولكنى أعتقد اننا لو رفعنا هذا المقام قليلا وجعلنا (الماجور) ، (مينور) ومستمرا فى العزف نطلق اللحن بما لم يكن فيه ، وقال سيريللى لنفسه : أحسست وكأن اللحن قادم لتوه من السماء وان الله هو الذى يعزف من خلال ذلك الشاب ·

وهنا يبدأ الصراع ، موهبة لا تعرف قدرها ، تطلق الموسيقى كما تتنفس وتتنفس موسيقى ، وبين البيروقراطية الموسيقية المحيطة بالامبراطور وعلى رأسها سيريللى ·

سيحطم موزار فن قواعد الأوبرا فيدخل الرقص ويعترض البيروقراطية ويكادون ينجحون فى ايقاف العرض لولا أن الامبراطور رآه وتحمس له · يلحن (زواج فيجارو) وهى مسرحية فرنسية كانت الاستقراطية فى كل أوروبا تنظر لها باشمئزاز باعتبار أن بطلها (حلاق) وليس أميرا أو سلكا وتقول عنها ان لها معانى سياسية ، وتعرض أوبرا زواج فيجارو فى فينسيا بنجاح ساحق · وطوال الوقت يتساءل سيريللى عن موهبة هذا الانسان ، من أين جاءت ، انه يحب الموسيقى أكثر منه ، يتذوقها بعمق ، ويعرف عن يقين ما يفعله هذا (المجنون) الذى لا يعرف

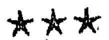
ما يفعله ، ويناجي الله قائلا : كيف تعطى الموهبة له هو الذى لا يعبدك وتحرمني أنا منها الذى أعبدك وأؤمن بك • ويكفر بالله الذى حرمه الموهبة ، ولكن موزار ماض صاعد كالنجم الصاعق ، فيبدأ يتدخل في حياته الشخصية ويدس عليه خادمة تأتيه بأخباره وتجعله يزور بيته خلسة ويكشف أسرار أوبراته الممثلة للبلاط ، ويضع المصاعب تلو المصاعب أمامه ، ويفعل هذا كله وهو يعشق موسيقاه كما لا يعشقها أحـــد • • •

وأنا أشاهد تلك الأجزاء تذكرت كلمة قالها برنارد شو مرة : ان الناس العـاديين لا يرعبهم وجـودهم في حضرة انسان ذكي فهم متصورون انهم بكثرة العمل والجد ممـكن أن يعوضوا الذكاء ، ولا يرعبهم آن يوجدوا فى حضرة رجل غني ، فكل انسان يقول لنفسه انى أستطيع يوما أن أكون غنيا ، أما الذى يرعبهم حقا فهو وجودهم فى حضرة انسان موهوب ذلك أن الموهبة لا تخلق ولا تكتسب ولا تأتي بالجد والاجتهاد والعمل الشاق ، انها نفحة من عند الله ، اما أن تكون أو لا تكون ، فاذا كانت فانك لا تستطيع قهرها الا بأن تقتل صاحبها • وهذا بالضبط ما فعله سيريللى بخبث شديد أيضا • ولقد أعجبتني (التيمة) التى آثارها مؤلف المسرحية ليقتل بها موزار اعجابا شديدا • فقد توفي والد موزار بعد أن وجده قد استغنى عنه وتزوج ولم يعد بحاجة الى رعايته • وحزن موزار على والده حزنا جعله يترنح ، وهو يترنح كان سيريللى يرسل له بقنينات النبيذ الفاسدة يجرعهـا وتقتله ببطء ثقيل ، ولكنه لكى يجهز عليه أرسل له رسولا متنكرا (ربما هو سيريللى نفسه) طلب منه لحنا جنائزيا لشخص هام ووعده بأن يجزل له العطاء •

فانهمك موزار فى العمل فى اللحن الجنائزى ، وكلما انهمك فيه وغاص كان يغوص اعمق وآعمق فى فكرة الموت ، وكأن الموت أصبح أباه الذى يناديه من القبر أو كأن أباه أصبح الموت يناديه ، والانسان لا يموت فى شبابه هكذا الا وقد استبدت به فكرة الموت حتى أصبحت أحب اليه من فكرة الحياة • وبانتهاء اللحن الجنائزى ، كان موزار قد عشقه لدرجة ان مات بعد نهايته • قصة غريبة ولكنها ، من كثرة ما رأيت فى أوساطنا الأدبية والعربية لا أجدها غريبة أبدا ، فالحقد على صاحب الموهبة من انصاف الموهوبين وارباعهم حقد له لفح الجحيم وطعم العلقم • وهو شىء ليس موجودا فقط فى بلادنا العربية ولكنه موجود منذ أن وجد الفن والفنانون •

كل ما فى الأمر أن عبقرية الكاتب المسرحى الانجليزى بيتر شيفر استطاعت أن تلتقط هذه (التيمة) وتجسدها عملا فنيا معجزا لا غرابة أن حاز الجائزة الأولى فى أكبر مهرجان عالمى أمريكى — أربع جوائز أوسكار ، احداها لمخرج الفيلم مع انه شيوعى يعيش فى تشيكوسلوفاكيا •

ولكن الفن العظيم يهشمه فى طريقه الينا • كل تحيز مذهبى أو طائفى والموهبة العظيمة يقدرها حتى أعداؤها المذهبيون ، حتى الحاقدون عليها ، يتمنون لها الموت ، وأحيانا ينجحون فى قتلها ولكنهم يقدرونها الى درجة التقديس •



حتما سأكتب قصتها

أريد أن أكتب قصة ·· قصتها حديثة جدا وقريبة جدا فقد وقعت أحداثها خلال أيام قليلة مضت ، عرفناها وشاهدناها وأثقلت قلوبنا جميعا بهم من الصعب أن يزول·

قصة حديثة لأني كففت عن قراءة القصص التي تبدأ بكانت الريح تزوم ، والقمر محاقا ، والدنيا بين الصيف والشتاء ·· كففت عن قراءة قصص تحدثني عن انسان يشكو الظلم أو الوحدة أو انعدام الهدف ··

كففت عن قراءة قصص الخيال الطفولية وكأنما تكتب من أطفال ليقرأها أطفال ·· كففت لأن ما يدور بنا وأمامنا ونعيشه أصبح أكثر فاعلية بكثير من أى خيال ، ومن أى رعب مصطنع ، ومن أية كوارث قرأنا عنها فى التاريخ ··

ماذا يكون شعر الخنساء ، أو تكون تراجيديا « أوديب » أو « هاملت » الذى يتأرجح بين أن يكون أو لا يكون ؟! كل ما كتبته البشرية بخيالها وتجاربها لا يقارن بما يحدث أمامنا فى واقعنا الآن · بل وعلى الساحة من حولنا وفى العالم ··

فهى قصة أبطالها رؤساء دول ، وفتيان عرب ، وقنابل وطائرات مخطوفة ، ورجال جبنوا فماتوا ، مخنوقين بجبنهم ، قصص بطـولات ، وعبث أخرق مجنـون ، ورجال تعصف الأوضاع بأفئدتهم وعقولهم ، ورؤساء عرب عناتير محتمين فى جحورهم المحروسة بالدبابات ومحاطين بالمرتزقة . وهم بكل اجرام وجبن يصدرون الأوامر بالاغتيال ، والاقتتال . قصة دولة عنصرية قامت عـلى المذابح وبالمذابح ، وتعيش بالترويع والاجتثاث ، ودولة كبرى فى مساحتها وثروتها ، صغرى الى أدنى حدود الصغار فى سلوكها وقيمها ، قصـة عالم عربى جاءته أعظم رسالات من السماء فأصبح بها ذات يوم أعظم الشـعوب ، ثم تفجر له من باطن الأرض شيطان اسود يحـاول أن ينهش رسـالته العظيمة ويلتهم انسانـه ولا يبقى له سوى نفس مريضـة أمارة بالسوء وبالجشـع واجتثاث الضمير .

أريد أن أكتب قصة .. قصتها ..

ولكنها ليست قصه مجردة حديث من فراغ وفى فراغ ..

انها قصة حدثت ودارت فى قلب وخلفية الجحيم الذى نحياه ..

وأبطالها كلهم وكانمـا يساقون الى مصيرهم ، وحتفهم بقدر لا يستطيعون منعه أو دفعه أو حتى تحويل مساره .



ثلاثة فتية عرب ..

أحدهم ولد – حيث يقول – فى قرية يحشى فيها أبوه زيت الزيتون كل صبـاح ليكتسب الصحة والقـدرة وطول العمر والبقاء ، ومات هو ، الفتى ، مجندلا فى طائرة مصرية كان ينوى أن يقتل – وقتل – كل ركابها الذين لا ذنب لهم ولا حول الا أنهم ركاب طائرة مصرية •

وزميلاه اللذان قابلاه فى آثينا ، لأول مرة يلتقى الثلاثة ، عربا كنا ونبقى عربا ، لا يعرف بعضهم البعض ، بل حتى لا يعرفون مهمتهم ، وانما بكل براءة وسذاجة وضياع ، تلقوا الأمر من (قائد) خسيس : لكى تنقذوا فلسطين والقضية •• لـكى تكونوا أبطالا خـذوا هـذه المسدسات والقنابل واخطفوا طائرة العدو المصرى اللدود ، ونفذوا التعليمات •

لم يتوقف أحدهم ليناقش ما علاقة انقـاذ فلسـطين ، بقتل ركاب مدنيين أبرياء ، وهل الطائرة المصرية التى تقل فلاحين مصريين وركابا أجانب ، هى طائرة معادية مثل التى تخرق حاجز الصوت فوق بيروت كل يـوم ، وتدك البقـاع دكا دكا ، وتمسح قرى ومدن الجنوب اللبنـانى بلا أى ذرة رحمة أو هوادة ••

أبدا •• لم يتوقف أحدهم ليناقش نفسه ، أو قائـده •• فهو شاب عربى يريد الخلاص •• وقد أقنعوه أن الخلاص فى اتباع قيادته ، وثقته فى تلك القيادة لا حد لها ••

فاذا كان قد تشكك أو تردد فانهم كانوا سيقولون له : وهل كان الفلسطينيون فى دير ياسين وكفر قاسم وصابرا وشاتيلا من العسـكريين أم كانوا من الأطفـال والنسـاء المبقورات البطون البارزات الأشلاء والأجنة ••

اننا نحارب ارهابا بارهاب ، وأعداؤنا ارهابيون سفاكون ، وهكذا يجب أن نكون ، لنهزمه ، وننتصر ، ونسترد الأرض والعرض ، غافلين عن الحقيقة التى يرددها دهاة الصهيونية أنفسهم من أن اخطر شيء على الانسان أن يتبنى منطق عدوه ، ومادام منطق عدوه هو الابادة والذبح والارهاب فهكذا لابد أن نرد . ناسين أن العدو هو الذى يريد بالضبط هذا ، فكيانه قائم على الارهاب ، ويموت الكيان لو توقف الارهاب ، ولكى يرهب عليه أن يعتمد على بعض الحوادث الارهابية التى نقوم بها نحن . ولهذا فمن مصلحته القصوى أن يستمر ارهابنا الصغير نحن ليسدر فى ارهابه الكبير هو ..

ولكن تلك طائرة مصرية ، وركابها معظمهم عرب ..و

فيجيب القائد الحكيم الخطير : ان مصر تقود القضية للسلام والسلام ضدنا ، السلام على طريقة عرفات ومبارك وحسين وصدام و ٢٤٢ ، و ٣٣٨ ، انه نفس الطريق الى الكامب ، والى الخيانة فاذبحوا الركاب ذبحا فنحن نريد قطع هذا الطريق ، فلو نجحوا لضاعت القضية ، ضاعت القضية، أترضون هذا ؟!

وبالطبع لا يرضون ، وأمرك يا سيدى ، هات البنادق والقنابل والى اللقاء المرتقب فى أثينا ..

البطل المجهول الثانى ، يونانى أرزقى ، عرضوا عليه كذا ألفا لقاء أن يحمل لفافة من طائرة عربيـة الى طائرة أخرى رابضة بجوارها تماما ..

يونانى كادح ، ماذا يهمه هـو ، أن تنتقل لفافة مهما كانت محتوياتها ، من عربى الى عربى ، أو حتى من يهودى من الموساد الى عربى ، طالما سيقبض مبلغا من المال يضمن له العيش المريح لعدة سنين ، ولو علم ان فى الطائرة ثلاثة عشر يونانيا سيدفعون بأرواحهم وأطفالهم ثمن هـذه السنوات المريحة ، ربما كان قد تردد • ولـكن مثلمـا الحب يعمى ويصم فالمال ، أيضا يعمى ، خاصة الضمائر ويصمها •

وهكذا ترتحل الطائرة ، حاملة فى جعبتها كل متناقضات العالم العربى ، والعالم عامة ، عربا واسرائيليين وأمريكان، ويونانيين ، وحتى فلبينيين ، وخادمات فلبينيات ، لتكمـل المأساة ••

وهكذا تتحول القضية العربية والفلسطينية من مقالات يدبجها اخواننا الكتاب والمفكرون العرب ، مقالات تستهلك مئات الملايين من الكلمات وآلاف التحليلات والتصورات ، ومئات الخطب والتصريحات ، تتحول وتصبح كائنات حية ، نفذت كل هذه المجارى من الكتابات والتصورات الى كياناتها الداخلية ، وأصبحت الخطب بشرا ، وأصبح الاستنكار قنبلة ومسدسا ، وأصبحت القضية من كفاح رهيب فى سبيل الحق والعدل والحرية الى أبشع قيم مما قد يحفل بها قلب بشر ، الا وهى أن نأخذ الشخص البرىء بذنب المسىء وأن يواجه الأعزل ويقتله بالسلاح فى وجهه وأمام عينيه ، لا يصبح فى قلب أى انسان ذرة من بطولة أو شهامة أو انسانية انما هى الكراهية العمياء فى أحط صورها ، انما هى الكائن البشرى حين يتحول الى الاجرام وسيلة لحل قضية مقدسة •

في غمضة عين كانت الطائرة مخطوفة ..

وكان الأبطال المغاوير الثلاثة قد سيطروا على الموقف تماما وأرسوا أبشع أنواع الرعب في قلوب الركاب ، وحتى في قلب موظفي الأمن ، فما بالك بقائد الطائرة الذي يحس بالمسئولية الأكبر والأضخم ..

من السهل على أي انسان أن يجلس الى هذا المكتب ، بعيدا عن المكان والزمان ، مستريح الخاطر الى انه في أمان تام ، ويتحدث عن هذا الذي حدث داخل الطائرة ..

مستحيل ..

ان أي رفة جناح لطائرة عادية ، أو أي مطب هوائي تصادفه يسقط قلوب ركابها جميعا ، مهما بلغت شجاعتهم ، فما بالك والأمر أمر اختطاف، وأمر حيوانات بشرية عمياء. في أيديها أسلحة فتاكة ، استولت على الركاب والطائرة والمصير ، والطائرة والركاب معلقون بين السماء والأرض ..

ان البشر لا يتصرفون بنفس الطريقة في كل المواقف، فالموقف المباغت خاصة لو كان يتهدد صميم حياة الشخص يجعله يتصرف بطريقة لا علاقة لها بتصرفاته العادية أو حتى صفاته ، فالشجاع قد ينقلب جبانا ، والخائف قد يتحول الى جبان أخرق ، ومن المفروض انه بطل يتمخض الأمر عن فأر صغير مذعور ..

وهكذا فهناك فارق هائل بين الصورة ـ ونحن نستعيدها الآن ، بعيدا تماما عن حدوثها ـ وبين الصورة لحظة حدوثها.

فجأة .. شل تفكير الجميع ..

الوحيدون الذين أصبحوا يفكرون هم السفاحون الذين احتلوا الطائرة وسيطروا عليها ، بل اعتقد ان هؤلاء هـم الآخرون كانوا يعانون فى داخلهم رعبا قاتلا ٠٠

وهنا ، وفى مثل هذا الجـو تتجلى بطولة رجـل الأمن مدحت فأمامه ثلاث قنابل يدوية مصوبة اليه والى الركاب٠٠ وثلاث فوهات مسدسات ، ومع هذا قرر أن يؤدى واجبه ، وما دام واجبه أن يقاوم الارهاب ، فليضرب ، وليتظاهـر باخراج جواز سفره ، ويخرج مسدسا ، معدا ، يردى به قائد العملية بثلاث طلقات مفاجئة مصوبة بعناية ٠٠

ولكن زملاءه كان لهم تصرف آخر، فقد أثروا الاستسلام وألقـوا بمسدسـاتهم أرضـا ، هكذا دفعتهم حلاوة الـروح والرغبة فى النجاة بالنفس ، أليس من سـخرية القـدر ، وحكمة المولى ، أن الذى تصرف بشجاعة وأدى واجبه هـو الذى يعيش الآن ، بينما هلك زميلاه اللذان آثرا السلامة والاستسلام ، انها ليست سخرية أقدار ، انها قانون الحياة ، فالبقاء دائما للأشجع ، والحرص على الحياة هو بالشـجاعة وليس باستخفاء واستكانة وآكل العيش بالجبن يطول العمر، كان خالد بن الوليد رضى الله عنه أشجـع فرسـان العرب ، ولهذا لم يمت أبدا فى حرب فقد كان يدخلها شجاعا فيهزم عدوه ، ويعيش ويموت العدو ٠٠

أما قائد الطائرة ، فأعتقـد ان مسـئوليته كبرى عن الفاجعة التى حدثت ففى حالة كتلك هو مسئول فيها عن مائة انسان ، كان عليه حتى لو كان أشجع الشجعان أن يطيع أمر هؤلاء المجرمين تماما ، فاذا انت قررت أن تقوم بمهمة كالتى

كلفوا بها ، ووضعت رأسك على كفك ، ونويت ، اذا حانت اللحظة أن تفجر الطائرة وانت فيها ، فمن أبسط مبادىء الذكاء أن تطيع انسانا كهذا طاعة عمياء لأنه يكون فى حالة نفسية مستعدا فيها لكى يقامر بأى شىء وبكل شىء ..

ولهذا كان قرار الكابتن أن يراوغ ويفرغ بنزين الطائرة ويفرغ اطاراتها من الهواء كان فى رأيى قرارا خاطئا لأنه عرض حياة الركاب للخطر أكثر ، فمعنى هذا انه حدد قدرة التهوية ، وقدرة الطيران ، أى كسح نفسه وطائرته ، وأرقدها فوق أرض مطار فاليتا لا حول لها ولا قوة ..

وقد فسر هو هذا بقوله أنه كان خائفا أن يرغمه المختطفون على التوجه الى ليبيا حيث يفجرون الطائرة وهو تفسير قاصر تماما ، فليس من المعقول ــ اذا كان المتهم هو ليبيا ــ أن تقبل تفجير الطائرة على أرضها ، فمن باب أولى ان يفجرها المختطفون فى مالطة ، اذا كان فى نيتهم التفجير، العكس هو الصحيح ، لقد كان من مصلحته ومصلحة الركاب والطائرة أن يتوجهوا جميعا الى طرابلس حيث تصبح المسئولية مسئولية ليبيا بدلا مما هو حادث الآن من أن الدوائر الاعلامية العالمية تحمل مصر المسئولية عن مأساة الطائرة ..

ومن رأيى ان الكابتن أصيب بحالة من الارتباك أدت به الى هذا التفكير الخطأ ، وانا ــ من مجلس فوق مكتبى هذا ــ لا الومه ، وليست أعرف كيف كنت ولا كيف كان غيرى يتصرف لو وضع فى هذا الموقف ؟!

الخطأ الأكبر الثانى الذى ارتكبه الكابتن هو مطالبته بالتدخل بقوات من خارج الطائرة تنقذ الموقف ، والحاحه فى

هذا بطريقة تدل على أنه كان يعاني شبه انهيار لا منقذ له منه الا بقوة خارجية مع أنه يعلم تماما أن أى تدخل خارجى سيكون على حساب ركابه وعلى حسابه هو شخصيا ٠ وقد تبع هذا الخطأ وكنتيجة له ، سلسلة من الأخطاء ، ففى سبيل التحريض على التدخل ، بالغ القائد فى صورة الوضع داخل الطائرة بحيث أن المعلومات التى ذكرتها دفعت القيادة العسكرية فى مصر الى سوء تقدير الموقف ، وكان القرار بالتدخل ٠٠

وهناك طرق علمية للتدخل ، منها ادخال الغازات المخدرة ٠٠ ومحاصرة الطائرة الى درجة انهاك مختطفيها حتى لو كانوا يقتلون أحد الركاب بين الحين والحين ، أما الهجوم بفرقة صاعقة ، ما أشجع أبطالها هم الآخرين وهم يواجهون خطرا لا يعرفون كنهه ، ولكنهم خضر العود والتجربة والاعداد بحيث هجموا على الطائرة وكأنهم قوة أمن مركزى فى طريقها لفض مظاهرة بالتفجير وقنابل الدخان، والاقتحام بالقوة وحدها ، اقتحام قلعة محصنة ، يسيطر عليها مسلحون سوف يكون ضحيته بلا أدنى شك الرهائن الأبرياء ٠

وبقيت بعد هذا القصة التى أريد أن أكتبها :

قصة شادية ٠٠

كبيرة المضيفات ٠٠

تلك التى أطلقوا سراحها لتبلغ رسالة الى المطار ثم تعود الى الطائرة ٠٠ وأريد أن أسأل كم امرأة وفتاة ، لا فى مصر والبلاد العربية وحدها ولكن فى العالم كله ٠٠ تقبل ،

أن تنفد بجلدها من حصار الخاطفين والاحتمال شبه الأكيد للموت والقتل ، تقبل ، بعد أن تصل الى مبنى المطار فى سلام ان تقرر وبمطلق ارادتها ، وبقرار لا رجعة فيه أن تعود الى حيث الرعب والموت ؟!!

انه موقف يفوق فى رأيى بطولة الفتيات والرجال الذين يقبلون أن يلغموا أنفسهم ليفجروا معسكرات وقوات العدو .. ذلك أن هؤلاء الفتيات والرجال مناضلات ومناضلين وتربوا تربية ثورية نضالية بحيث يعتبر عمل كهذا من قبيل المهمات القتالية الثورية .

أما شادية ، فلم تكن مقاتلة ، ولم تكن ثورية ، ولم تكن منضمة الى حزب أو حركة ، ولم تكن فدائية ، كانت فتاة مصرية عادية جدا ، تعمل مضيفة ، وقد جاء علينا حين من الدهر كنا نعتبر ان الفتاة التى تقبل العمل كمضيفة ، فتاة تهوى السفر والمغامرات الشخصية ، وها هى واحدة ممن كنا نعتقد فيهن هذا تتبدى لها فى لحظة الواجب شخصية الفتاة والمرأة المصرية التى فى لحظات الخطر تصبح أكثر تماسكا حتى من الرجل ، وتقبل التحدى ، وتعود بقدميها الى حيث ينتظرها الموت المحقق ، وقد فعلت .. بمنتهى البساطة، ودون تردد ، دون ارتعاشة جفن ، أو دمعة تسيل دون أن يتداعى الى ذهنها ، موقف بناتنا فى أفلامنا السينمائية ومسرحياتنا اللاتى يرتعشن من رؤية صرصار ، و (يفقعن) بالصوت لدى شكهن فى وجود لص ..

ها هى فتاة مصرية حقيقية ، عروس تستعد للزفاف ، ناضجة وليست مراهقة فى السادسة عشرة أو العشرين اذ هى فى الثالثة والثلاثين ، تقبل بمطلق ارادتها أن تذهب الى الجحيم القابع على أرض المطار دون وجل أو تردد .

لماذا فعلت هذا ؟!

أنه الاحساس بالواجب ، وبكلمة الشرف ، وبالوعد الذى قطعته وخجلها آن تنكص ، نفس هذه الأحساسيس التى هربت من بعض موظفى الامن فى لحظة الجد ، فاستحالوا الى أداة لمساعدة الخاطفين ، وجر الجرحى ، والقائهم من الطائرة ..

يالعار بعض الرجال !!!

ويا لشجاعة بعض النساء !!!

فالشجاعة ليست رجلا وأمرأة ، الشجاعة انسان ، رجل أو أمرأة .. يحس بواجبه ، ولا يتردد فى فعله ..

سأكتب قصتها ، وليتنى أملك ساعتها ، شجاعتها ، لأؤدى واجبى ككاتب تجاه فتاة ضربت مدينتها السويس فأبت أن تغادرها وهى بعد لا تزال صبية ، وأدت واجبها تجاه الوطن الى آخر لحظة فى حياتها وان هى الا مثل واحد أضربه لمن لا يزالون يعتبرون المرآة حرمة وعورة وخطيئة وعيب ، من المحتم ان تحتجز ، كالعار فى الحرملكات والمنازل ، وتقام حولها الأسوار لأنها (بطبيعتها) ميالة للتبذل والتبرج واشاعة الفتنة فى عالم الرجال .. ماذا تقولون عن هذه المرآة التى آشاعت (البطولة) فى عالم رجالى معظمه تصرف برعونة وتخاذل وجبن ؟ !!

من بين الرصاص وقنابل الدخان والحرائق واستغاثات البشر واختناقات الأطفال والجثث المكومة جثة فوقها جثة ، وحياة بأكملها وأسرة فوق حياة ، ومأساة فوق مأساة ، تتبدى

لنا القضية العربية فى صورتها الحقيقية تماما ، فهى لم تعد قضية نظرية ومطالبات استقلال أو وطن ، وانما نجح أعداؤنا فى الخارج وأعوانهم فى الداخل فى آن يقلبوها سرطانا داخليا يتمدد فى داخل كل مواطن عربى على حدة يقلبوها حربا على أنفسنا من أنفسنا ، واهدار لكل قيمة عليا فى شبابنا فلم يعد الفلسطينى فلسطينيا والعربى عربيا ولكنه أصبح فلسطينى أبى نضال أو أبى عمار . وعربى مشرق وعربى مغرب ، ومصريا منبوذا ومخابرات جبانة ورعديدة وطعننا فى الظلام ، وجهنم آقامها العرب من أجل العرب ، وبالذات من أجل مصر المصريين ، من أجل (ثورة مصر) أى ثورة لمصر تقتل المصريين والعرب وتبيد الفلسطينيين أى ثورة عربية أو حركة أمل أو دروز أو شيعة تحولت الى عصابات من قطاع الطرق ، بأخس الوسائل تتقاتل وتنسف وتبيد بلا أى عقل أو صواب أو تمييز .

واذا لم تصدقوا فشاهدوا معى صورة الجثث مرة أخرى صور حطام الطائرة . وصور الهول الذى قام به عرب خرب العدو فى الداخل والخارج نفوسهم . شاهدوا ذلك الحطام من الصلب والبشر والأشلاء . !

شاهدوا أم شادية بملابسها البيضاء ، فى المطار وهى تقول أنا أم البطلة ، وشاهدوا مدحت فى مرقده بالمستشفى راقدا رقدة أسد جريح آسد نهشته مجموعة فئران مذعورة قامت بأحط عمل جبان فى التاريخ ..

شاهدوا كل ذلك لتدركوا ما آلت اليه القضية ..

ولتدركوا أيضا ، انه ، رغم كل شىء ، ورغم المأساة ، ففينا بطلات من النساء أبطال من الرجال ، بل وفينا القدرة الكاملة على أن نحارب وننتصر ، أما الارهاب فهو بضاعة اسرائيل وعدتها . والحرب الشجاعة وجها لوجه هى عدتنا .

شاهدوا حطام القضية . وتذكروا جيدا ذلك الحطام .

وهنيئا لك يا اسرائيل ..

وهنيئا لك يا مستر ريجان الذى بدأت القرصنة وتؤمن بها ..

وهنيئا لك يا أبو كذا وأبو كذا وابن كذا وابن كذا ..

أما انت يا مصر ..

أما انتم أيها الفلسطينيون الأحرار ..

أما أنتم أيها الأبرياء الذين راحوا ضحية لا حول لها ..

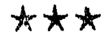
فلكم العزاء ..

فالله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل ..

وما حادث مصرع ٢٥٠ جنديا آمريكيا يحرسون اسرائيل فى سيناء ، ببعيد ..

اللهم لا شماتة ، ولكن أيها الناس ، هناك عدالة الهية على الأرض ..

أقسم أن هناك عدالة الهية على الارض مع عدالة السماء



الرأس ، والحل ، والنظام

آكتب لأنى أريد فعلا أن آكتب • مرة أخرى احتشد وينتقل ما بالرأس الى الأصابع والأنامل وتستحيل «النغمشات» الى أشياء مجسدة لها معنى • آهى لعنة ؟ آهى نقمة ؟ آهى نعمة ؟ أهو قدر يحيط عنقى بطوق من حديد لا يعرف حداد فى العالم كيف يحطمه ؟ قائد أنا أم مقود مغمض العينين غير مطلق السراح الى أبد محدد لم يستشرنى أحد أبدا فى نوعه أو اتجاهه أو تحديده •

وقف فى المنتصف رافضا آن يتحرك خطوة حتى يعرف الى أين ، حتى يعرف لماذا ؟ حتى يرى ان كان هناك مجال للرؤيا حتى يبصر ، ولو بالبصيرة يبعده •

أكتب •

قال : ما أنا بكاتب •

أكتب •

قال : ما أنا بكاتب •

لا تتمرد ٠

قال ما أنا بمتمرد ، ان هو الا سؤال ٠

السؤال أيضا تمرد ٠

قال : حين يصبح السؤال تمردا تصبح الكتابة معصية وخطأ لا يغفر ٠

سم واكتب ٠

قال : « بسم الله الرحمن الرحيم »

« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » ٠

وسكت ٠

اقرأ ٠

قال : ما أنا بقارىء ٠

اقرأ ٠

قال : ما أنا بقارىء ٠

« اقرأ بسم ربك الذى خلق ٠ خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم، علم الانسان مالم يعلم» ٠

قال : صدق الله العظيم ٠ الكتابة أمانة ٠ وقد عرضت الأمانة على الأرض والسماء فأبين أن يحملنها وحملها الانسان ٠ ما أتعسه ، وما أخطرها من أمانة ٠

★★★

ولكننى فعلا مشتاق أن أكتب ، مثلما أنت تشتاق أن تأكل أو تشرب أو تهفو بجنون الى أخذ النفس اذا غطست

في الماء وعاندت نفسك وأردت أن تظل أطول الوقت مكتوم الأنفاس تحت الماء • ما أحلى أن ترفع الرأس المختنق فجأة وتدخل صدرك أول شهقة هواء •

شهور ثلاثة والقارىء الكاتب مشتاق للقارىء القارىء، وكل شيء يحول بينهما الى حد أن لا شيء يحول بينهما • الثاني ما عليه الا أن يقرأ • الأول مشكلته أن عليه أولا أن يكتب ، وأن يكتب لا ليرى للناس صورته الباسمة المنقوشة، أو يقول للعالم : أنا هنا • أو من أجل أن يطالع القارىء كل يوم ، كل يوم — يا الهى — بكلام ، أى كلام لا • لابد أن يكتب ليضيء شمعة • ليسوق للناس كلمة طيبة ، ليضع شيئا يستحق عناء أن يمسك المواطن بالصحيفة ليفتش فيها عن شيء نافع أو دواء ناجع •

الحقيقة ان أسهل شيء فى الدنيا •• كما ترون •• أن يكتب الانسان •

وأصعب شيء فى الدنيا كما لابد تعرفين ، أن يكتب الانسان •

وبلادنا ووطننا الصغير والكبير ، ومواطننا كبر أم صغر يمر بمرحلة تدور لها الرءوس ولو كانت مصنوعة من حديد•

وأنت ككاتب ليس مفروضا أن تكتب لتشكو مما يشكو منه الناس ويعرفونه ربما أعمق منك •

وليس مفروضا أن تكتب لتحاصر العينين بانتقاداتك بحيث لا يعود الانسان يعرف من أين والى أين ؟

انت لا تكتب لأنك تفكر • وليس أى فكر أو أى تفكير، لكنه ذلك النوع الذى يسمونه الفكر المضيء أو الفكر القائد•

الفكر الذى وجد الحل ويراه ، واضحا وضوح الشمس، بحيث ما عليه الا أن يفتح الناس .

فاذا لم يكن الحل هناك ..

واذا كانت الأمور قد استغلقت وتعقدت ، بحيث ، حتى لو كنت تملك ذلك المفتاح الواحد السحرى الفعال ــ كلمتك، لم تعد قادرة على فتح ما استغلق ، أو فقدت ما بها من سحر .

الحل اذن أن تسكت .. !

ولكن الكارثة أن السكوت ليس هو الحل ، فلابد شئت أم أبيت أن تظل تفكر ، فأنت عضو تفكير ، اذا تعطل أضر ، واذا توقف استحق البتر .

أيكفى هذا ليعذرنى القارىء فى الشارع فى العمل فى البحر والبر وكل مكان ، الذى يسأل : لماذا لا تكتب . وأين أنت . وهل أنت ممنوع أو مصادر ؟

أيكفى ما سبق وذكرته اجابة تشفى الغليل .. !

لا أعتقد .

فأنا شخصيا غير مقتنع .

لابد أن هناك شيئا أكبر وأخطر وأشمل هو الذى يخيم علينا جميعا ولا يكفى قلم واحـد ، بل لا تكفى كل الاقلام مجتمعة أن تقنعنـا بوجوده أو بعـدم وجـوده ، فحنانيكم أرجوكم . اذا لم أكن عند كل حسن ظنـكم فلا تسيئوا بى الظن ، واذا كنت عند بعض حسن ظنكم فلا تعتقدوا أن هذا ــ فى وقتنا ذاك ــ شىء معين .

يا صديقى المواطن · بطل والله انت ، وأى بطل ·

ليست البطولة أن تجيد التصـويب وتذهب الى سـاحة الوغى أو عند الكمين وتقتل اول عدو تصادفه ·

هذا فى رأيى هو البطولة الصغرى ·

البطولة الكبرى حتى ليس أن تعبر المـانش أو تجيـد سباحة المسافات الطويلة · البطـولة الـكبرى أن تغرق انت البحر ·

وبلادنا فى مرحلتنا هذه بحر عالى الأمواج صاخبها ·

بحر وكأنما يريد أن يبتلع الناس والزرع والأشياء وكل ما على سطح الأرض ·

ولكنا ، بوجودنا هذا الذى يبدو فوضويا وبـلا معنى وشديد البشاعة ، نصنع المعجزة نغرق البحر فعلا ·

لا ··· نحن لا نغرق ·

نحن نغرق « بضم النون » ·

تجرح أجسادنا وتمزق ثيابنا ويصيب الرشاش كرامتنا ، ونفرط فى أشياء عزيزة وغالية كنا نسميها قيما ·

ولكنه كفاح « البطل » ، ليعيش ، ليغوص الحفر والبرك والمستنقعات والبحور ·

بطل انت يا مواطنى العزيز · وأنت تخرب ما أصلحه الدهر بطل ، وأنت تصلح ما خربه الدهر بطل ، وانت على أى الحالين لازلت تعيش بطلا ·

ولا أقول هذا نفاقا لك أو تعزية ··

فأنت فى غنى عن النفاق لأنك فى لحظة تحدد الحيـــاة والموت ، وفى غنى عن التعازى لأنك تعرف ان المعزين هم المنافقون السائرون أو الذين يريدون السير وراء نعشك ٠

متأكد أنا تماما انك تفهمنى ٠

برغم أنى أتكلم ، وكأنما « باللاوندى » ولكنى متأكد انك تفهمنى ٠

فأنا ، بفوضاك ، أفهمك ٠

بكل منا وقد راح يخترع لنفسه قانون وجود ، أفهمك ، بل وينتج عن ملايين القوانين ، ويا للغرابة ، قانون واحد يحكمنى ويحكمك كلانا عليه نتفق ٠

وأنا مثلك لم أفت ٠

وأنت مثلى لا تعيش كما تريد وكما يجب ٠

وأنا وانت البطل ٠

★★★

يخيل الى أن ما من شعب عاش على سطح الأرض ومر بما مررنا به من تجارب وآزمات ٠

خذ عصر المماليك أو عصر البطالسة ٠

خذ أى عصر ٠٠٠

واقرأ كيف جاوزناه واجتزناه ولازلنا باقين وسنظل الى ما شاء الله نبقى ٠

أنا هذه المرة لا آكتب لأشرح وضعا سياسيا استعصى على أو علينا فهمه ٠ ولا لأثير مشكلة أو آثور على مشكلة ٠

أنا فى الحقيقة أكتب لأونس نفسى •

وأونس من يريد الونسة معى •

أكتب كمـا أريد أن يكتب لى وأحس به طبطبة حنـان صادقة ، تخفف عنى ، تشجعنى ، تطمئننى ، تنشقنى جرعة أكسجين أرى بها المستقبل لى أو عـلى الأقل انفتحت أبوابه أمامى •

وما دامت العبرة بالنوايا ، فليحاسبنى الله سبحانه على نيتى ، أو فليغفرها لى فما أكثر ما تكـون النيـات الحسنة ذنوبا على الطريق •

بالأمس سألنى ابنى الاكبر « ايه » النظام ؟ والتعبير أحد نتاجات المرحلة ويعنى شيئا أكثر دقة من قولك : ماذا سيحدث ؟

وكأنما فوجئت بالسؤال ، فقد اضطربت •

وكأن السؤال ليس همى صباح ومساء •

قلت : أن يكون هناك نظام •

ولكنى أيضـا وأنا أقولهـا كنت أفعل وكأنى أعتـذر أو أقول : يا بنى لست أدرى •

وأمس ، سألت ابنتى ذات السنوات الخمس : ما هو الحل يا نسمة ؟

قالت الشقية وهى تحاورنى : حل « ايه » •

قلت : يعنى الحل • أى حل • • ؟

قالت بتأنيب : الحل يبقى حل مسألة فأنت « مش » عارف المسألة « وعايز » تعرف الحل « ايه اللخبطة دى » ٠٠٠ !

شكرا يا نسمة ٠ فعلا لكى نعرف ما هو الحل لا بد أن نعرف ماذا نريد حله ٠ أو بالتعبير الرياضى يا نسمة لا بد أن نعرف « رأس » المسألة ، لكى يا عزيزتى وحبيبتى نحلها ٠

فاذا لم نكن نعرف الرأس ولا المسألة ومع هذا فنحن نحلها وماضون فى حلها ، وببطولة نفعل ، ونوجد ، ونكتب. ألا يعد هذا ما يشبه المعجزة ؟!

بل المعجزة الاكبر والتى لم تحدث أبدا فى التاريخ ولكنا لا بد أن نحدثها هى ان نعرف من خلال حلنا لمسألة لا نعرفها رأس المسألة ٠

أجل يا بنى ويا ابنتى حينذاك فقط نعرف ما هو النظام وما هو الأصل ٠

قد لا تفهمانى ولكن ، يكفى احساسكم بى واحساسى بكم ٠



مؤلفات د. يوسف ادريس

مجموعات قصص قصيرة :

١ ـ أرخص ليالى — الطبعة الأولى عام ١٩٥٤

٢ ـ جمهورية فرحات وقصة حب — الطبعة الأولى عام ١٩٥٦

٣ ـ أليس كذلك الطبعة الأخيرة باسم قاع المدينة كذلك
الطبعة الأولى عام ١٩٥٧
كذلك)

٤ ـ البطل — الطبعة الأولى عام ١٩٥٧

٥ ـ حادثة شرف — الطبعة الأولى عام ١٩٥٨

٦ ـ آخر الدنيا — الطبعة الأولى عام ١٩٥٩

٧ ـ لغة الآن آى — الطبعة الاولى عام ١٩٦٠

٨ ـ النداهة — الطبعة الاولى عام ١٩٦٢

٩ ـ بيت من لحم — الطبعة الاولى عام ١٩٧٢

١٠ ـ أنا سلطان قانون الوجود — الطبعة الاولى عام ١٩٧٥

١١ ـ اقتلها — الطبعة الاولى عام ١٩٨٢

١٢ ـ أمه — تحت الطبع

مسرحيات :

المسرحية	ملاحظات
١٣ ــ جمهورية فرحات وملك القطن	قدمها المسرح القومى عام ١٩٥٦
١٤ ــ اللحظة الحرجة	قدمها المسرح القومى عام ١٩٥٨
١٥ ــ الفرافير	قدمها المسرح القومى عام ١٩٦٣
١٦ ــ المهزلة الأرضية	قدمها المسرح القومى عام ١٩٦٦
١٧ ــ المخططين	صودرت ليلة افتتاحها عام ١٩٦٩ أفرج عنها وعرضت عام ١٩٨٢
١٨ ــ الجنس الثالث	قدمها المسرح القومى عام ١٩٧٢
١٩ ــ البهلوان	كتبت عام ١٩٨٢ وطبعت فى كتاب فى نفس العام .
٢٠ ــ نحو مسرح عربى	مجموعة أعمال المؤلف مسرحيا مع مقدمة عن « نحو مسرح عربى » تدعو ــ لأول مرة فى تاريخ المسرح العربى « الى فكرة ضرورة خلق وابتكار مسرح عربى محلى أصيل يستوحى الاشكال المسرحية فى

حياتنا الشعبية وكذلك يستوحى تراثنا المسرحى الشعبى من آمثال السامر والحكواتى والشاعر وحلقات الذكر ٠٠ الخ

روايات وقصص طويلة :

٢١ ــ الحرام	نشرت عام ١٩٥٨ فى أول طبعة
٢٢ ــ العيب	نشرت فى أول طبعة عام ١٩٦٠
٢٣ ــ رجال وثيران	أول طبعة عام ١٩٦٤
٢٤ ــ البيضاء	أول طبعة عام ١٩٦٥
٢٥ ــ العسكرى الاسود	أول طبعة عام ١٩٥٩
٢٦ ــ السيدة فيينا	أول طبعة عام ١٩٥٩
٢٧ ــ نيويورك ٨٠	أول طبعة عام ١٩٨٠
٢٨ ــ قصة حب	أول طبعة عام ١٩٥٦

من مفكرة د ٠ يوسف ادريس :

٢٩ ــ من مفكرة د٠ يوسف ادريس (جزء أول)	نشرت عام ١٩٧٧
٣٠ ــ من مفكرة د٠ يوسف ادريس (جزء ثان)	نشرت عام ١٩٧٩

٣١ ــ بصراحة غير مطلقة طبعة أولى عام ١٩٧٣
٣٢ ــ اكتشاف قارة الطبعة الاولى عام ١٩٧٢
٣٣ ــ جبرتى الستينات الطبعة الاولى عام ١٩٨٣
٣٤ ــ عن عمد اسمع تسمع الطبعة الاولى عام ١٩٨٢
٣٥ ــ الارادة الطبعة الاولى عام ١٩٧٨
٣٦ ــ شاهد عصره الطبعة الاولى عام ١٩٨٠
٣٧ ــ عزف منفرد الطبعة الاولى عام ١٩٨٥
٣٨ ــ خلو البال الطبعة الاولى عام ١٩٨٧
٣٩ ــ أهمية أن نتثقف يا ناس الطبعة الاولى عام ١٩٨٦
٤٠ ــ فكر الفقر وفقر الفكر الطبعة الاولى عام ١٩٨٥
٤١ ــ انطباعات مستفزة الطبعة الأولى عام ١٩٨٦
٤٢ ــ اسلام بلا ضفاف **الطبعة الأولى عام ١٩٨٧**
٤٣ ــ الأب الغائب الطبعة الاولى عام ١٩٧٨

ترجمـــــات :

الحـــرام :

ترجمت الى الانجليزية والفرنسية والالمانيـــة والروسية واليابانية والاردية والسويدية والارمنيـــة والهـــولندية والصينية .. ولغات آسيوية أخرى .

أرخص ليالى :

نفس اللغات السابقة وتحت عناوين مختلفة ظهرت على هيئة اختيارات من مجموعات القصص المختلفة :

حلقات النحاس النهامة : ــ الانجليزية ــ الفرنسية

لغة الآى آى : المجرية والرومانية والبلغارية ٠

آكبر الكبائر

السويدية مع غيرها من مختارات قصصية أخرى ٠

فى عين الرائى الانجليزية ٠

الفرافير :

الانجليزية والألمانية والتركية والصربية الكرواتية والسلافية ولبننت وقدمت فى مسرحين متقابلين فى مقدونيا وقدمت أيضا فى بيروت أيام حصار المدينة ٠

قاع المدينة : البولندية ولغات أوربية شرقية أخرى ٠

كتب ألفت عن الكاتب وأعماله :

★ ساسون سوينج :

١ ــ اللغة عند يوسف ادريس ٠

٢ ــ يوسف ادريس بين القصة والمسرحية

٣ ــ عالم يوسف ادريس القصصى

★ د ٠ ناجى نجيب :

٤ ــ الحلم والحياة فى صحبة يوسف ادريس (بالعربية والالمانية) ٠

★ فؤاد طلبة :

٥ ــ يوسف ادريس والتابو

★ د • ابراهيم القط :

٦ ــ عالم يوسف ادريس القصصى

★ ب• م كور بيير شوك :

٧ ــ قصص يوسف ادريس القصيرة (بالهولندية والانجليزية والعربية)

★ د • نادية فرج :

٨ ــ مسرح يوسف ادريس (بالانجليزية والعربية)

★ يوسف ادريس بقلم هؤلاء :

٩ ــ د• طه حسين• د• حسين فوزى • د• لويس عوض د• محمد مندور ، د• على الراعى ، د• عبد القادر القط ، د• رشاد رشدى ، صلاح عبد الصبور ، أنيس منصور ، رجاء النقاش ، نعمان عاشور ، د• شكرى عياد ، محمود آمين العالم ، صافيناز كاظم ، غادة السمان ، عبد الفتاح الجمل ، سامى خشبة ، عبد الرحمن أبو عوف ، محمد عودة ، على أمين ، د• محمد عنانى ، أحمد عباس صالح ، سامى داود ، رشدى صالح ، د• صبرى حافظ •

★ د • ليلى كيريتشنكو :

١٠ ــ يوسف ادريس رائد القصة القصيرة (بالروسية)

« تطلب هذه الكتب من مكتبة مصر بالفجالة ومكتبة مدبولى بميدان طلعت حرب ودار المعارف والهيئة المصرية العامة للكتاب وغيرها من كبريات المكتبات »

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٢٢٢/١٩٨٩

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٢٢٠١ ـ ٧



كلمة لابد منها لأنى أخشى أن يتصور من يقتنى هذا الكتاب ــ دون اطلاع على محتوياته ــ أن يعتقد انى اتخذ العقيدة الإسلامية السمحاء موضوعا كاملا متكاملا للكتاب كله .

ولكن الأمر ليس كذلك ، فحقيقة هناك مواد كثيرة من أبواب هذا الكتاب تتحدث عن الإسلام ، وأكتب من خلالها وجهة نظرى فى كثير من الأوضاع الإسلامية التى فرضت نفسها على القراء والكتاب جميعا . . . وأعرف انى حين أتعرض لإسلامنا الحنيف إنما أتعرض له ككاتب يعمل بقضايا الإنسان المصرى والعربى والمسلم بشكل عام ، القضايا الحياتية والسياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية ومن هنا ، ولهذا السبب جاءت محتويات الكتاب الأخرى .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٦٤٠ قرشا